لوحتا الغلاف :

اخوة فى الكفاح

للفنانة جاذبية سرى ..

فنانة شقت بكفاحها الذاتى الطريق الى الصفوف الاولى بين الفنانين المصريين المعاصرين . تلقت مزيجا من الدراسات المعهدية والدراسات الحرة فى مصر والخارج؛ وتدرجت فى وظائف التدريس حتى أصبحت من ساتذة التصوير بالمعهد العالى للتربية الفنية .. ولكن روحها ما زالت عالقة بأحياء طفولتها وذكرياتها ؛ وما زال فيها رغم ما اكتسبته من خبرات الاداء التشكيلى تذكارات من تطلعها الى اعمال الفنان الشعبى التى تغطى واجهات البيوت القديمة ؛ غير أن قدرتها تمثلت فى مزج هذا العصير الشعبى بألوان شرقية العبير وصياغة معاصرة تنبىء عن وعيها الهندسى واحساسها بمقتضيات المعمار فى التصوير .

فى أعمالها التى سبقت رحلتها الاخيرة الى أمريكا ــ ولوحة الغلاف من بينها ــ يتمثل حلمها باللوحات الجدارية ؛ وتمردها على نطاق اللوحة الصغيرة ..

وهى فى مسار خطها التشكيلى تعنى بالمضمون الاجتماعى لحياة الشعب وقضاياه .. نبض قلبها حزنا من أجل النوبة الغارقة واهتزت بملاعب الطفولة وأفراحها ؛ وصرخت مشاعرها مع العدوان ومجدت اخاء الكفاح الذى جمع الشعب فى مواجهة الاستعمار .

برغم تحرر فنها من قيود القوالب القديمة فانك تلمح فى بنائها الهندسى .. فى تلك الخطوط التى تسودها كما يبدو فى لوحة الغلاف وفى خصائصها اللونية ؛ وفى سمات نسيجها العام ؛ تلمح فى ذلك كله رواسب تراث تعايشه من اللوحات الجدارية حتى بريق الوان الفن الاسلامى وزخارفه .

الناس قبل الطبيعة هم الهامها المباشر ، ومن خلالهم حققت تعبيرها الذاتى وقدرتها على مشاكله الاحداث العامة .

من أجل هذه السمات المميزة تلقى أعمالها الاعجاب حيثما عرضت فى المعارض الدولية ، وفى معارضها الخاصة بمصر والخارج .

النزهة ــ للمثال أحمد عثمان

فى مجموع انتاج كل فنان تبقى بين أعماله صفوة تتمثل فيها ذروته وعلامات الطريق الذى شقه . وتمثال « النزهة » للمثال احمد عثمان من صفوة اعماله ان لم يكن رائعته الفنية .. فهو تجسيد لاضافته الى النحت المصرى المعاصر ، تمثلت فيه قوة التعبير النحتى مع حاسة زخرفية لم تفقد التمثال تماسكه وقوته ، بل هى عنصر مكمل له .. وقد حقق به صيغة تشكيلية لنموذج بنت البلد فى النحت المعاصر تذكرنا على نحو ما بنماذج المصور الكبير محمود سعيد .

ظهر احمد عثمان فى حياتنا الفنية مع جيل النحت الثانى فى الثلاثينيات ، واضطلع بدور المعلم الى جانب دوره كمثال ، بل ان حماسه للدور التعليمى حجب عن الابداع الفنى كثيرا من قدراته ، فلقد ظل عشرين عاما رئيسا لقسم النحت بكلية الفنون الجميلة بالقاهرة ؛ وما زال منذ عشرة أعوام عميدا لكلية الفنون الجميلة بالاسكندرية التى أسهم فى انشائها وما زال قواما فى النهوض بها وتطويرها .

ولكن أحمد عثمان ظل يواصل مساره الفنى فى تماثيله ، وفى لوحات النحت الجدارى بالمبانى العامة ، فهو فنان من هباته القدرة على هذا النوع من النحت الذى يطالعنا فى أعماله المشتركة مع زميله المثال منصور فرج بمداخل حديقة الحيوان ، وبمبنى محطة قصر القبة .

ولو اتاحت له الظروف مزيدا من التفرغ الفنى لاستطاع أن يواصل تيارا حضاريا كان فيه النحت قرين المعمار ، ولأثرى الرؤية بمزيد من الاعمال الفنية الجدارية فى مبانينا العامة .. تلك الاعمال التى تتطلب سلامة الادراك النحتى مع الحماسة الزخرفية والتناسب بين العمل الفنى والبناء ليتحقق بين الفنون ما يتطلع اليه من لقاء حميم .

بدر الدين أبو غازى

سكرتير التحرير :
كمال ممدوح حمدى
محمد سامى فريد

المشرف الفنى
جمال عزام

الاشتراك السنوى
١٠٠ قرش صاغ فى مصر والسودان
١٥٠ قرشا فى الخارج أو ما يعادلها

ادارة المجلة ٢٧ شارع عبد الخالق ثروت
تليفون ٤٩٦٨٩ بالقاهرة

ترسل الاشتراكات إلى قسم الاشتراكات بادارة المجلات ٥ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة





٢

حسين ذو الفقار صبري

الثلاثاء ٦ يونيو

تحاشيت أن أعقد مع فريد ابى شادى أى حديث عن المعركة الدائرة هناك على حدود الوطن البعيد ، كانت أنباء الليلة الماضية قد أسبغت عليه سكينة من تفاؤل ، تعلق بها قلبه المفعم بالايمان فلا يفرط فيها ، فى حين عاد فتملكنى حذر طبعت به فارفض الاطمئنان الى مالم يقطع به بعد يقين .

وددت لو أن السيارة طارت بنا الى المطار فاقابل فتيحا فعنده ولا شك آخر الانباء ، أما نحن فتائهون عاجزون عن فك الطلاسم التى تقرع بها آذاننا رطانة الاذاعات .

نزلنا من السيارة الى دائرة تسعى الينا فى وجوم ، أين فتيح ؟ وبرز الينا كاسف الوجه لا ينطق بحرف الا أن ابتدرته بالسؤال .

« الاخبار سيئة بعض الشىء .. » ثم تدارك يقول : « ليست على ما يرام ، أعلن اليهود سقوط العريش ، ولكن البلاغات المصرية تؤكد بأن القتال ما يزال دائرا هناك وأنه بالغ العنف.. وفى الجبهة الاردنية سقطت جنين.. »

وكان فريد حبيب ، سفير لبنان ، قد وصل لتوه فانضم الى الحلقة الصغيرة الملتفة حول فتيح ، فلوى رأسه وقد اكفهر وجهه ومط شفتيه غير مصدق ثم أفلتت منه كلمة وحيدة : « جنين .. ؟ » ، صدرت خافتة هامسة لثقل ماكانت تنوء به من مشاعر .

وانفض الجمع اذ تكررت المناداة علينا بالحاح، وهرولنا الى الطائرة وقد أوشكت على الاقلاع الى بيونس آيرس ، حيث ينتظرنى وزير خارجية الارجنتين فى الخامسة من مساء اليوم نفسه . وكانوا قد أبرقوا الينا بذلك .

***

هاجمتنى جموع الصحفيين والمصورين فى أروقة وزارة الخارجية تسد على المنافذ ، وأصررت مع ذلك على ألا أنطق بحرف حتى أنتهى من مقابلتى لوزير الخارجية .

وتقدمنى مدير المراسم يشق طريقه بصعوبة بالغة ، بينما أحاط بى من شمال ويمين رجلا الشرطة السرية المكلفان بحراستى ، فالارجنتين هى معقل الجاليات اليهودية بأمريكا اللاتينية ، أضخمها حجما اذ تناهز نصف المليون ، وأقواها نفوذا اذ قوامها الاثرياء من يهود ألمانيا الذين فتح أمامهم هتلر باب الهجرة حين تولى الحكم — كذب من قال انه أعمل فى اليهود قتلا فى سنيه الاولى! بل انه فتح لهم الابواب على مصاريعها حينذاك ، أما من اختار منهم البقاء فاما عن رغبة أو سعيا الى غرض ، ولكنها قصة أخرى طويلة .

يهود الارجنتين ، كما لاحظ الرئيس الأسبق فروندیزی — حين اختطفوا أيخمان — دولة داخل الدولة ، كلا بل دولة تغلغلت الى أدق تلافيف الدولة فسيطرت عليها من داخل .

وربما كانت أجهزة الامن — كما لمست فى زيارتين سابقتين — هى الوحيدة التى قاوم رجالها ذلك التغلغل ، اذ لايكاد يمر بهم يوم دون ان يضعوا ايديهم على عصابة تهريب او وكر للتغرير بالفتيات — بضاعة تصدر لبيوت الدعارة حيثماتكون — أو ان يكشفوا عن تلاعبات

مالية تحت ستار تصفية اعمال او اعلانات افلاس مختلقة ، او ان يقعوا على شبكات ابتزاز قوامها «بلطجة» وقحة او اندية ميسر مرفهة انيقة ، ورؤوس الشر فيها جميعا يهود او واجهات تستر من خلفها يهود .

ولكن ألا تزال اجهزة الامن على نقائها ؟ هل امكنها الاستمرار فى الصمود ، ام ان نفوذا صهيونيا ما قد تسرب اليها آخر الامر ؟ تساؤل لأستطيع الاجابة عليه ، فان زيارتى هذه الاخيرة لم تهيىء لى فرص استطلاع .

***

اقبل على «كوستا منديس» وزير الخارجية باش الوجه يصافحنى ، وتمنيت لو ان اتيحت لى فرصة اللقاء قبل ذلك بشهور ، قبل ان يتمكن الامريكان من استغلال الازمة الاقتصادية فيفرض على الحكم مستوزر دعموا مكانته بقرض ضخم ارتفع الى عشرات الملايين من الدولارات .

قبل ذلك كانت حكومة الارجنتين متجانسة الاتجاهات ، وطنية فى مساعيها الى الحلول ، اما الآن فقد اختلت موازينها بعد ان اصبح للامريكان موطىء قدم داخل مجلس الوزراء ، وياله من موطىء قدم وطيد ، لايمكن تجاهله او الاستخفاف به .

كانت الجملة الافتتاحية «اياها» قد علقت بلسانى فلا اجد عنها بديلا ، وانها لمدخل الى الحديث على اى حال ، ولكنى ماكدت انطق بها حتى قاطعنى الوزير : « بل انى اعتقد ان مهمتك لاتزال كما هى ، مهمة سلام فى المقام الاول » .

وسألته : « كيف بعد ان القت امريكا وبريطانيا بثقلهما فى المعركة ؟ » وأسهبت فى اضفاء تفاصيل من عندى ، استنتجتها استنتاجا من تلك الانباء المقتضبة التى التقطتها سفارتنا من اذاعات القاهرة عن التدخل الجوى الاستعمارى ، وارى الآن انى لم اجاف الحقيقة حين اكدت ان القوات الجوية الاسرائيلية نفسها قد طعمت بمئات من المتطوعين اليهود اوفدوا على عجل على متن الاسلحة التى تدفقت على اسرائيل من القواعد الاستعمارية المحيطة بنا ليشتركوا فى القتال .

وافضت فى تعديد الشواهد على نيات امريكا المبيتة ، منها ترحيل العائلات قبيل نشوب القتال ، ومنها تحركات الاسطول السادس المريبة ، ثم ذلك الجسر الجوى الذى لم تنقطع علائقه بين اسرائيل والقواعد الامريكية بالمنطقة وخاصة تلك التى فى «هويلس» بليبيا ، كما أشرت الى المحاولات المفضوحة التى التجأت اليها سفينة نقل امريكية بغية تعطيل الملاحة فى قناة السويس .

واستطردت اقول : « اننا نبغى السلام ولكن ليس اى سلام ، فلا سلام الا اذا ارتكز على قواعد وطيدة من عدل تراعى فيه حقوق الشعوب ، واننا نرى أن الدول الاعضاء فى مجلس الامن ، ومنها الارجنتين ، تحمل على كاهلها واجبا مقدسا ، الا وهو شجب التدخلات الاجنبية فى المعركة وخاصة من قبل الدول العظمى .. »

كان الوزير قد أقبل على بحواسه ، تشف قسماته الطلقة عن صفاء طوية وخلق رسى ، فتحسرت على الفرص الضائعة ، هذا العالم الفسيح يزخر برجال على استعداد للالتقاء بنا ، ولكننا نتجاهلهم فلا نسعى اليهم الا حين تتأزم أمورنا ، وهيهات أن تتسع الدقائق لتشييد جسور من تفاهم ، انما هى فى حاجة الى دعائم لاترسى رواسيها الا من خلال العمل الدائب المتصل عبر السنين .

سارعت مرة الى الارجنتين ابان ازمة مياه حوض الاردن ، ضمن جولة بدأتها بزيارة عدد من بلدان جنوب شرقى آسيا ، تابعتها الى اقاصى المحيط الهادى حيث استراليا ونيوزيلندا ، ثم قفلت منها عبر أمريكا اللاتينية فأزور سبعة من بلادها .

ولكنها منطقة أهملناها حين كانت تتوق الى اتصال فتتبدد الشكوك التى ساورتهم عندما أسىء تصوير موقفنا من حكوماتها فى ضوء من قرارات مؤتمر القارات الثلاث ، كانوا يتطلعون الى كلمة منا يأتيهم بها رسول ، ولكننا ادرنا لهم ظهورنا وكفاهم ما قيل لسفرائهم فى القاهرة !

أقنعنا سفراءهم فعلا ، واضطلع هؤلاء بدورهم بمهمة اقناع حكوماتهم ــ هذا كله على

الصعيد الرسمي خلف ابواب مغلقة ، فهي اتصالات لا تروى الا بعض غلة ،اذ أن الدعايات الاستعمارية والصهيونية انتهزت الفرصة فالبت الرأى العام علينا مما دفع ببعض الحكومات على التلويح بقطع علاقاتها معنا ، فلو أن رسولا خاصا أوفد اليهم وقتذاك من القاهرة – أى رسول – فتتابع الصحافة أخبار اتصالاته ، لكان هذا وحده كفيلا بتبديد الكثير مما علق بأذهان العامة ، فان شعوب أمريكا اللاتينية ،ورجالاتهم فى الحكم قبل شعوبهم ، عاطفيون ، انهم احفاد الاسبان الذين أختلطت دماؤهم وتشابكت أمزجتهم بدماء العرب وامزجتهم خلال ثمانية قرون أو يزيد .

ثم انها دول لها حساسية خاصة ، كثرتها العددية فرضت على المنظمات الدولية استخدام الاسبانية لغة رسمية ، على قدم المساواة مع تلك اللغات الأخرى الثلاث – بل الاربع ، فلا نتجاهل الصينية وان كانت قد أدخلت بالوكالة على اكتاف حكومة تايوان العميلة – تلك الكثرة العددية خلقت لدول امريكا اللاتينية مكانة تناظر بها الدول العظمى ، ولكنها مكانة عالقة بعرض دون جوهر ، فهى أبدا متعطشة الى مظاهر تقدير تدعمها ، فاذا ما أبدت دولة لها وزنها ، كما كانت حال مصر قبل الخامس من يونيو – ملاحظة أنسيها الى الواقع ماض، فلابد لنا من مواجهة الواقع المرير، فنعلم أن النكسة قد أصابت أيضا من مكانتنا الدولية– اذا كانت مصر قد أبدت وقتها اهتماما لعجزت اذن وسائل السيطرة الامبريالية على جبروتها عن أن تكبت فورةالمشاعر التى تحركها فىكوامن نفوسهم تلك الاستجابة الفورية تجاه موضوع اضفيت عليه بالنسبة لهم ابعاد قارية ومصيرية .

ثم ان الخلافات التى استعرت بين دولهم لمئات السنين دفعت بأبحاث القانون الدولى عندهم الى ذروة من عمق وشمول ، فصار لهم فى هذا المجال اساطين،ومن اليسير لمن كان على حق أن يكسب منهم أعدادا الى جانبه، وخاصة اذا طرحت القضايا على مهل عن طريق مداومة الاتصال ، وليس اعتسارا فى أوقات الازمات ، وان أصوات أولئك الثقات لتتمتع بوزن لا يجرأ ساستهم ، مهما تعرضوا الى ضغوط ، على تجاهله تماما ، فهو المجال الذى يتأكد لهم فيه علىغيرهم تفوق وصيت وعلو شأن .

ولكن مهلا، وعود بنا الى ازمة قرارات مؤتمر القارات الثلاث ، فهل اقتنعت فعلا حكوماتهم بالتفسيرات التى قدمت الى سفرائهم فى القاهرة؟ أو لم يترك الموضوع بعض مرارة فى النفوس أو على الاقل بعضا من شكوك من حيث نياتنا فنؤازر حركات تصدير الثورات من خارج وإثارة القلاقل والاضطرابات على حساب ما نعلن من تمسك بعدم التدخل فى الشئون الداخلية للدول الاخرى ؟

ففى مساء السبت ، الثالث من يونيو ، وأحداث العدوان ما تزال فى طى من غيب، اتصل بى سفير الارجنتين بالبرازيل يخطرنى بأن المسئولين فى بيونس آيرس يودون لو أتيحت لهم فرصة مناقشة موقفنا من قرارات مؤتمر القارات الثلاث ، فتطمئن قلوبهم فى ضوء من الاتصالات التى أجراها سفيرهم فى القاهرة .

تأهبت اذن لمناقشةالموضوع اذا ماأثير،واثقا من أنه ولا شك سوف يثار ، ولكن كياسة وزير الخارجية أمام ظروفالعدوان رفضت أن تلمح اليه ولو من بعيد ، انما أنا الذى أشرت الى تصريح مؤسف أطلقه منذ أيام مكتب لنا فى دولة مجاورة، عقدت فيه مقارنة لا معنى لها بين مشاكل المرور فى مضايق تيران من ناحية وقناة « بيجل » من ناحية أخرى ، فلم يكسبوا تعاطفا من شيلى كانوا يسعون اليه ، وانما فى غفلة من تقدير ألبوا الارجنتين علينا ، والبحرية الارجنتينية على الخصوص ، وهى المتفردة عن زميلتيها قوات الجو وقوات البر ، اذا مسها سانح قول تطيرت الى سورة جامحة، فهى الى الغضبوبالغضب مسرجة، فكيفبها والموضوع منصميم اختصاصاتها، قيمة عليه ، رأيها فيه فرض لازب على مستويات الدولة جميعا .

وكان صالح محمود ، سفيرنا بالارجنتين ، قد سارع فيؤكد لهم أنه تصريح لا يعكس رأينا الرسمى ، فهدأت النفوس قبل أن ينزو بها شر ، وان ترسبت عنه فى القلوب ولاشك بعض حفيظة .

وأبى الوزير عنكياسة مرة أخرى، أمام ظروف الحرب الدائرة على حدود بلادنا ، الا أن يشير بأنهم قد وجدوا فىتأكيدات سفيرنا كفاية تفسير، ولكنى كنت أسعى لمحو أى أثر لذلك التصريح

المؤسف ، فقلت أن تعليماتنا الرسمية لا ترى عقد مقارنة بين مشاكل خليج العقبة وبين أى مشكلة أخرى ، اللهم الا فيما يختص بتلك الجوانب من مشكلة خليج « فونسيكا » ، التى وجدت لها العبقرية القانونية اللاتينية حلا سليما .

وأبدى الوزير اهتماما بالغا حين عرضت لأوجه التشابه بين المشكلتين ، واستحثنى الى مزيد من معلومات عن وضعية خليج العقبة ، جغرافيا وقانونيا ، واستوقفنى طويلا اذ شرحت له كيف اغتصبت اسرائيل قرية أم رشرش، متحدية بذلك التزامات الهدنة ، فأقامت على انقاضها وجودها فى الخليج ، ثم وعدنى فى النهاية بأن يمهد لمقابلتى لرئيس الجمهورية ،فيعرض عليه تفاصيل ما جرى بيننا من حديث .

***

وكبس على الصحفيون فقد كانوا بباب الوزير مرابطين ، حلقة متراصة قد أحكمت من حولى ، وعلى الأجناب نفر اعتلوا المقاعد فيصوبون من مصابيح اضاءة تليفزيونية أو سينمائية وهجا خاطفاسدر له بصرى،لولا تلك الومضات المنطلقة من آلات التصوير ، متواترة حينا ومتلاحقة حينا آخر ، فالمح مع رجع الاضواء الوجوه وقد رشقت بطول وعرض فى تلك الكتلة البشرية المتلاحمة ، بعضها قد جثا أصحابها أو ارتكزوا، وآخرون قد أشرأبوا بها يتشوفون أجهزة تصوير علقت بأطراف ممدودة الى اعلى، وبين بين متناثرة على غير استواء، باختلاف قامات أصحابها، وجوه مشدودة الى فى تطلع ملهوف ، بينما تصطخب الحناجر بوابل من كلام ، تداخلت مقاطعة مع تنافر فى النبرات الى ضجيج لا يبين، تضطرب معه فى عشرات الايدى وريقات تحفزت من فوقها أقلام قد شحذت فاستلت .

وأفرعت من قامتى ، متصنعا الهدوء ، شاخصا ببصرى عبر حدود المكان كأنما استشف به الى بعيد ، وأرخيت من أطراف شفاه ربما علقت بها آثار زم سابق فأسكن بها الى ابتسامة خافتة ، وخمدت أصوات الجلبة رويدا حتى همدت أو يكاد الا من همهمة أو بضع همسات .

« هل أخاطبكم بالانجليزية أم بالفرنسية ؟ »

وارتفعت موجة من لغط ،ومال مدير المراسم يهمس فى أذنى ألا جدوى طالما افتقد المترجم من الاسبانية واليها ،ونظرت اليه بعين ساهية ، انه لا يريدنى أن أتكلم اذن ، واستنهضت نفسى ، فلدى ألفاظ هى حصيلة رحلات سابقة ، وخاصة تلك الاولى عام ١٩٦٠ ، حين زرت خمس عشرة دولة جميعها ناطقة بالاسبانيةفيما عدا البرازيل، لازمنى خلالها الدكتور حسين مؤنس فكان لى خير ملقن، حتى انه توسم أن سأواظب ، فضحكت من نفسى حسرة ، واشفاقا عليه اذ خيبت ظنه ، حين أرسل الى منذ عام أو يزيد نسخة فاخرة تضم أعمال«جرثيالوركا» ، فلم اقرأ الا كلمة الاهداء الرقيقة التى خطها صديقى مؤنس على البطاقة المرفقة .

ولكنى اندفعت اتكلم ، قبل أن يشلنى شعور بقصور عن مواجهة الموقف فيرتج على .

اندفعت ولكن بلسان محجل ، اتصيد الكلمات فالهث بها اذ انتشلها واحدة بعد أخرى من أغوار ذاكرة آجنة ، حتى انفكت العقدة فقد ازمعت وصممت .

« تكلمت مع الوزير .. على .. على .. حول الموقف فى الشرق الاوسط .. هناك صعوبة .. أجد صعوبة فى الرد على الاسئلة .. ولكن .. ولكنى سوف القى عليكم تصريحا .. تكلمت مع الوزير عن .. عن ظروف الحرب فى الشرق الاوسط ، بلادنا تتعرض لهجوم جوى ثلاثى .. كما حدث خلال عام .. عام .. »

وافلتت منى الارقام فلم أجدها : « كما فى العدوان فى حرب السويس .. »

وقاطعنى سائل : « هل تعنى أن فرنسا قد اشتركت ؟ »

« كلا .. قلت عدوانا مماثلا .. كلا ليس فرنسا ، انما أمريكا الشمالية وبريطانيا .. الطائرات شمال الامريكية » — فاللاتين يربأون بكلمة «أمريكا» متجردة عن أن تكون علما تحتكره الولايات المتحدة لنفسها دون غيرها من دول الامريكتين — « الطائرات شمال الامريكية والبريطانية بادرت بالهجوم الجوى علينا .. وهى مستمرة فى ذلك ،بل انها الآن فوق القاهرة .. »

ونظرت الى ساعتى : « قاذفات ثقيلة ، لاتملك مثلها اسرائيل، بدأت تضرب القاهرة حين انتصف الليل هناك ، أى منذ ساعتين ٠٠ اننا أمام عدوان ثلاثى تشترك فيه دولتان كبيرتان مع اسرائيل٠٠ هذا ما استطيع أن أقوله لكم الآن ، وأشكركم »٠

« هل تقابلون رئيس الجمهورية ؟ »

« سؤال يوجه الى وزارة الخارجية » قلتها وأنا اتحرك الى أمام بعد أن بدأ رجلا الشرطة السرية المكلفان بحراستى فى شق الطريق فتداعت صفوف الصحفيين والمصورين الى شمال والى يمين ٠

***

ولم نجد فى السفارة أنباء جديدة،آخرها كانت تلك التى وصلتنا قبيل الموعد المحدد بينى وبين وزير الخارجية – قبيل الخامسة مساء بتوقيت الارجنتين ، أى منتصف الليل هناك فى أرض الوطن البعيد – والتى حملت الينا ذلك الخبر عن تعرض القاهرة لاغارة جوية ليلية ٠

الاربعاء ٧ يونيو :

تهادت بنا السيارة الى مدخل « لاكاسا روسادا » – القصر الوردى – انها ثالث زياراتى لهذا المكان حيث المقر الرسمى لرئيس الجمهورية، قابلت فيه « فرونديزى » عام ١٩٦٠ و « اليا » عام ١٩٦٤ ، وميعادى اليوم مع الجنرال اونجنيا ، الذى اعتبر وقتا ما قائد الجناح « الناصرى » فى الجيش الارجنتينى،ذلك الجيش الذى كان دائما القوة الحقيقية وراء الحكم وما يزال ، رغم الانقسامات العنيفة التى تمزقه ، والتى كادت أن تتردى بالبلاد الى الحرب الاهلية فى بعض الظروف، فينقسم الجيش عندئذ على نفسه الى « زرق » و« حمر» – وليس هؤلاء بشيوعيين بل ان البعض ليعتبرهم يمينيين متزمتين ، انما هى تسميات يستعيرونها من الاعلام التى ترفع فى « لعبة » المناورات – ثم هناك تنظيمات سرية تمتد بخلاياها الى أدق الحنايا ، أهمها اثنان ، «الخضر» وجماعة «الغوريلا» ، هذا عدا « شلل » فى القوات الجوية، ملتفة حول أفراد ، متناحرة فيما بينها ،قد تنجح احداها – وان لم تكن الأقوى عددا – فى فرض رأيها خلال الأزمات،لمجرد أنها سارعت فأمسكت بزمام المبادرة ، بالنسبة لمواضيع معينة ، لم تثر لسبب أو آخر اهتمام زميلاتها – أو بالأحرى غريماتها – فهى اذاك لا تبالى ٠

ولكن الذى يجمعهم آخر الأمر هو بغضهم للحركة « البيرونية » ، أو هلع يصيبهم اذا ما لوح لهم النفوذ الامريكى المتغلغل باحتمالات خطر شيوعى مزعوم فيما يظهر من اتجاهات تقدمية هنا أو هناك أو حتى حين تبزغ نوازع الى اصلاحات اجتماعية ٠

ومن خلفهم جميعا كتلة صلدة من ضباط البحرية ، لا يتحركون – رغم حساسيتهم « الاشتعالية » – الا بحساب وفى الوقت المناسب، كما حدث عام ١٩٥٥ حين أقلع الاميرال روخاس بسفينة حرب قديمة ، من مدينة « ماردل بلاتا » ، على مئات الأميال من العاصمة ومينائها ، فذعر الرئيس بيرون – وقد تم له عزل مراكز ثورة القوات البرية تمهيدا للقضاء عليها – وهرع مهرولا « ديله فى أسنانه » ، لاجئا سياسيا الى سفارة البرجواى ٠

***

أقبل على كوستا منديس وزير الخارجية بوجهه الصبوح ، مارا بقاعة الانتظار فى طريقه الى مكتب رئيس الجمهورية ، ان هى الا لحظات والحق به، قالها وكأنما يتأسف اذ يسبقنى فيجور على دقائق هى من حقى ، وقد أزف موعدى مع رئيس الجمهورية ٠

واستقبلنى الجنرال اونجنيا بنظرة صافية ، ثابتة لا تريم ، تنم عن ثقة واستقرار نفسى ، كما يضح أيضا من قسماته ، فلا شد أو زم ، وانما اسالة بشرة اديمها صراح ٠

هو صديق حميم لرئيس البرازيل ، ولكن شتان بينهما فى المظهر على الأقل ، بل لو لم أقابلهما فأبرزت الى صورتاهما فاحزر وأفزر ، لجزمت بأن « كوستا اسلفا » هو رئيس الارجنتين، اذ تتجسد فيه تلك الملامح التى اعتبرت سمات بارزة لفرسان « الباماس » ، فهو « الجوشو » الامثل ، الا من حيث بعض بدانة أو ترهل ، أما اونجنيا فهو أى رجل أعمال شاب ، ميسور العيش

فى حظوة من وظيفة قيادية مستقرة ،لايقض صفو باله اعتضال مشاكل ، فهو مدير لمصرف يهيمن به على شئون المال فى مدينة هادئة ، أو صاحب مصنع للروائح العطرية أو غيرها من الكماليات عالية الأرباح مضمونة التصريف ٠

ولكنك لو وقفت على تاريخه ٠٠

بل ان رئيس البرازيل يبز أيضا الرئيسين الأرجنتينيين السابقين من حيث السمات التى صورت علما على الأرجنتينى كما يجب أن يكون ، وتذكرت فرونديزى بوجهه اذ يستدق من جبهة عريضة الى فكين طويلين نحيلين وذقن لا تكاد تبين ،ومنخلف نظارته عينان لاتكاد أن تستقران — ثعلب فى صورة انسان — وقد كان فعلا داهية مكيرا ، متمرسا فى أساليب المداورة والمحاوطة ، وتذكرت نرونديزى بوجهه اذ يستدق من جبهة ثم « اليا » ذلك الشيخ الطيب النحيف ، انحنى ظهره فهو صورة لطبيب القرية ، حدب على أهلها رؤوف بهم ، يحار أمام صنوف العللالتى تهب بها مدنية العصر الحديث، فلا يجد لها تشخيصا فيركن الى ايمان لا يتزعزع بأن دواءها جميعا انما فى مزيد من عطف ، طريقا الى ثقة ثم طمأنينة نفس ، فلا شك أن سوف تستجيب السماء آخر الأمر فتسبغ عليهم من لدنها رحمة ورضوانا ٠

***

جلس أونجنيا قبالتى فلا تطرف له عين ، بل وما من خلجة تنم عن أنه يصغى فعلا الى ما أقول ، ولكنى ما أكاد أتوقف هنيهة حتى أشعر وكأنما عيناه تستحثانى الى مزيد من شرح وتفصيل ، أهو بريق غامض ، أم فحمة تضفى على الحدقة مزيدا من عمق واتساع ، فينجذب لها لسانى ٠

ومضيت فلم أترك جانبا من جوانب القضية الا وعرضت له ، وكان قصارى أملى أن تتاح الفرصة فأفضح دور أمريكا وبريطانيا فى تدخلهما الجوى لصالح اسرائيل ، وما ترتب عن استمرار دعمهما الجوى للعدوان من قطع علاقاتنا مع أمريكا ومن اغلاق القناة بعد ضرب تكرر لبعض السفن المارة بها ، ولكن رئيس الجمهورية اذ أفسح لى من وقته واهتماماته هيأ لى أن أربط الأحداث بأصولها القريبة منذ أن ألقت المخابرات الأمريكية بثقلها علينا فى محاولات تربص أو اقتحام ، بل وأن أربط بين الأحداث وجذورها العميقة منذ ان اغتصبت الصهيونية أرض فلسطين ، فانتهكت الحقوق ثم تنكرت لما تعهدت به على نفسها أمام العالم من حيث اتفاقيات هدنة تحولت الى قصاصات من ورق تذروها رياح الأطماع التوسيعية ٠

وتكلم أونجنيا فاورى بأنهم على اتصال وثيق مستمر بالبرازيل ، زميلتهم اللاتينية فى مجلس الأمن ، يعدون معا مشروعا مشتركا يستهدفون به اقرار السلام قبل أن يستفحل النزاع فيتطور الى حرب عالمية ٠

وقاطعته فورا : « ليس أى سلام والا فهو استسلام ، وانما على أسس من عدل ، وشجب لتدخلات الدول الكبرى ٠٠ »

« نعم ٠٠ نعم ٠٠ اننا نتدارس الأمر مع أخواننا البرازيليين من حيث جوانبه جميعا ، ولسوف يكون مندوبنا فى مجلس الأمن تحت تصرفكم فيما يعن لكم من آراء ، فأرجو أن يظل وفدكم هناك على اتصال وثيق به ، كما أرجو أن ترفعوا للرئيس جمال عبد الناصر عميق شكرى لمبادرته هذه ، فليس مثل الاتصال الشخصى عاملا فعالا فى توضيح الأمور وشرح ما يلابسها من أسباب ربما خفيت علينا لبعد المسافات وندرة الاتصالات ، ثم اننا أقرب اليكم مما تظنون ، فلدينا جالية عربية هى محل كل تقدير ٠٠ »

وشعرت على الفور أنه ود لو راجع نفسه ، ان هى الا وقفة خاطفة ، ولكنها عند هذا الرجل — المسيطر سيطرة شبه مطلقة على خلجات جسمه ونبرات صوته ونوابض حواسه — كانت تعنى الكثير ، وسارع يصل الكلام ببعض : «وانها لمحل تقدير لأنها تقدس أيضا « ارجنتينيتها » ، فهى بيننا وبينكم خير رباط ٠٠ »

وكنتقد سمعت عن مخاوف ابديت فى بعض الاوساط من أن يتحرك أفراد من الجالية العربية متظاهرين ، فتتصدى لهم الجالية اليهودية بالمثل فتقع بينهم مصادمات ، ولكنى كنت بتخاذل رؤوس الجالية العربية فى الارجنتين علیما ، فكم من اتصالات دارت ، كلما يشتد أوار الدعاية الصهيونية ، مع رجال الاعلام ، ومع القائمين على

محطات التليفزيون على وجه الخصوص ، فيردون بانها برامج تحتاج الى تمويل ، وان الجالية اليهودية تدفع ، وتدفع بسخاء ، فلو أن اجتمع المغتربون ودفع الواحد منهم دولارا واحدا لاغير ، فانها عندئذ حصيلة محترمة من مئات الألوف ، كفيلة باعداد برامج لها وزن ، فاذا ما نقل الكلام الى أقطاب الجالية العربية وقع من آذانهم « كالأذان فى مالطة » ٠

ولكن أحداث العدوان نجحت فى الدفع بهم الى الاجتماع آخر الأمر ، فتمخضت حميتهم عن خمسة وسبعين دولارا ٠٠

صحيح ان الاجتماع لم يضم مغتربى الارجنتين جميعا ، فما كان هناك متسع من وقت، ولكن أقطابهم فى بيونس آيرس كان يمكنهم لو أرادوا أن ينصبوا من أنفسهم وكلاء على زملائهم ثم يحاسبونهم على مهل ، وربما يكون هذا ما حدث ، بواقع « بيزو » ارجنتيني ـ أى ما يعادل مليما أو يزيد قليلا ـ عن كل خمسة افراد ، أم انى اظلمهم ، فبعض الظن اثم ، فهو مبلغ قد قد جادت به أريحية اعضاء الجالية بالعاصمة وحدهم دون غيرهم ، فالحساب اذن ليس بطول وانما بعرض ، ولكم أود لو تتهيأ لى فرصة تصفيته معهم بعرض القفا واحدا بعد آخر ٠

وانه لأمر عجيب ، اذ أذكر كيف تسابقوا عام ١٩٦٤ فاقاموا لى حفل عشاء فخيم ، استأجروا له طابق الاحتفالات بفندق « بلازا » بقاعاته جميعا فغصت بالمئات ، ولا أحسب أن الفندق رضى بأقل من تلك الخمسة وسبعين دولارا تكلفة عشاء وشراب وخدمة للفرد الواحد ٠

ولكنهم دفعوها عندئذ مضروبة فى عدد الحاضرين ـ ولقد نيفوا على الاربعمائة ـ عن طيب خاطر ، بل وسمعت انهم تباروا فى أيهم يتحمل من التكاليف أكثر من غيره ، فهو حفل سوف يهيىء لهم دعاية وأى دعاية ، أو لنسائهم على الأقل فرصة استعراض رشاقتهن ونفائس ملبس ومصاغ ، كما سوف يدفعن من خلاله ببناتهن اللائى على « وش جواز » الى ساحة تموج بشباب الجالية ، فعسى أن تروق هذه فى نظر هذا او ذاك ٠

ثم ان بينهن نسوة لا يدفعهن الى الحفل مجرد توق الى مباهاة أو مكايدة من حيث رشاقة أو جمال أو علو ثراء ، فان لبعضهن مآرب أخرى ٠٠

حاصرنى خمس او ست ، واحدة بزتهن جميعا أسلوبا وجراة مغلفة بمكر لاشك أنها تمرست عليه ، هى بضة رخصة رطبة ، عيناها الخضراوان تسقيانك طهرا وبراءة ، اخترعت قصة عن ابن عمومة لها لاشك وانى اعرفه، فهو ضابط سورى انتقل الى ميدان السياسة ، كثير الترحال الى القاهرة ، ولكنى لا اذكره ولا اعتقد انى رأيته، ولكنها تلح على أن اتذكر فيخفت صوتها الى نبرة من توسل هامس ، وتتأود وهى تتكلم فتنسل الى أمام حتى أكلت المسافة التى بيننا ، وأصبحت انفاسى تداعب جيدها ونحرها ٠ واكتافها العارية تعكس الأضواء كأنما بشرتها من زجاج رقراق، ولم تعد بى حاجة الى اختلاس النظر الى طوق ثوبها الذى انحسر عن صدر عاجى رحيب ،فقد كبست حتى أصبحت ملء البصر تحجب عن عينى ما عداها ، وأنظر فاعجب كيف أن ثوبها ما يزال متلبثا بمكان ، لولا أن نهد له ما يناهده ، فهو بحنايا جسدها لصيق ، مخرز يتلألأ مع الأضواء اذ لاتنى صاحبته عن التثنى ٠

وبدأت اتصبب عرقا وقد تملكنى الحرج ، أليس لها زوج وأين هو ، وماذا يكون موقفه اذا ما نظر ورأى ؟ أم أنها لم تتزوج بعد ، فهى فوق العشرين بقليل ، فأين اذن صحبتها من أب وأم أو أقارب أدنين ؟

ولكنى كنت قد حوصرت وظهرى الى جدار القاعة ، وصدرها يكاد أن يناطح جسدى من يمين وشمال ، وتلفت حولى أبغى خلاصا ولكن الجميع عنى فى شغل شاغل وقد شدتهم تلك الاهتمامات التى هى بعض دوافعهم الى اقامة هذا الحفل ، واذا كان نفر قد لاحظ ما أنا فيه فربما أن سرهم الحال فيتحرجوا من أن يحرمونى متعة لاشك انى سعيد بها فى اسار حلقة الانسجام المضروبة من حولى ٠

وفيما أنا اتلفت وقعت عينى على تلك الفتاة الأخرى التى كانت ألصق من غيرها بصاحبتنا ، انها أصدق صديقاتها ولاشك ، سمراء نحيفة القوام هضيم ، وان كانت ملفوفة الأطراف ، تتابع الحديث بابتسامة خفيفة تنم عن رضا ، فان للصداقة فروضا،أو ربما هى من اللائى،وخاصة

اذا كن لا يتمتعن بمسحة ملفتة من جمال ، فيجدن غبطة أو تسلية هم فى « التوفيق بين رأسين » ، ولهن فى الحرام مجالات أوسع منها فى الحلال ، وأنى لها بمثل صاحبتنا ، طعما شهيا تفور له الدماء ويسيل له اللعاب .

ولكن اذ تقابلت الأعين فقد حدجتنى فجأة بنظرة كأنما من صقر جارح واضطربت أطراف انفها الضارم كأنما قد مستها رعدة ، ثم حركة طفيفة باعدت بها بينها وبين صــاحبتها فتنفى تبعيتها لها ، ولكن مع ذلك لا تنطق بحرف بالرغم من ان صاحبتنا قد أعياها الكلام ، ولكن الأخريات سرعان ما انتهزن الفرصة فملأن الفراغ بشقشقة متصلة ، فاحاول أن التقط معنى أو لفظا ، متنقلا بنظرى بينهن ، فتقع عينى مرة بعد أخرى على تلك الفتاة الســمراء ضامرة القوام بابتسامتها الخفيفة الساخرة ، فتلمع عيناها بذلك البريق الغامض ، فيه التحدى وفيه تربص الصــقر اذ يتحفز لانقضاض ..

وكأنى بها تقول : « سحرتك صاحبتنا اذ تتأود وتتأوه ، فان بأعطافها اللينة فورة تنازع ثوبها اللصيق فيكاد أن ينفتق ،ولكنها ليست الا طفلة بعد كل ، سرعان ما يصيبها فتور ، فهى عندئذ مهاد من راحة واسترخاء ، أما هنا فاللواعج المتصلة اذا ما قدحت بزناد، لهيب لا يكاد يخبو فيتأجج من جديد ، نار مستعرة، تأكلك أكلا ثم تعود فتصاعد بك الى جموح ، مرة بعد أخرى فتحار أين الغلة وأين الروى .. ولكنها أمور لا يقدر عليها الا من كان من معدن ، وأى معدن .. فأى الرجال أنت ؟ » .

ولكن أين الحقيقة مما أقول ؟ هل يحق لى أن أتصــيد طفيف عرض فاحلل وأستنتج ثم أقرر كأنى بخوالج النفوس عليم ؟

أليست جميعا خطرات قد قفزت الى مخيلتى فاجسمها الى يقين ، أنها أقرب الى تمنيات مكبوتة قابعــة فى أغــوار النفس ، فأرمى غيرى بداء هو دائى وان كنت به غير دار ، تنزيها لنفسى أمام نفسى .

وجاء دور الرجال اذ أزفت ســاعة العشــاء ، تحركوا نحونا فى صــورة لجنــة ضمت رؤســاء الأندية المختلفة ، كل منها يمثل ملة أو طائفة ، فتلك الفواصل العقيمة ماتزال تلاحقهم حتى فى أرض الاغتراب فتحــول بينهم وبين التماســك والاتحاد ، وتعلقت بى نظرات « الطفلة » البضة الرخصة عسى أن أومىء اليها بأشارة ربما أدت الى وصال ، وانى لأبعد من أن أكون قد خدعت عن حقيقة حالى، فلست صاحب وسامة مظهر او خلابة لسان أو ســمعة من فحــولة أو غيرها من صفات تهفو اليها بعض من نسوة ، ولكن الرجل اذا ما كان محط اهتمامات فان منهن من يرضى غرورها ان يعتسر من التزاماته فيفرغ اليها ولو سويعات .

ولكن أقطاب الجالية كانوا فى عجلة من أمرهم، فقد انقضت علينا نحو ساعة فى قاعة الاستقبال، دارت خلالها بينهم اتصالات عمل ، فتمتاتفاقات وعقدت صفقات او تواعدوا على لقــاء ، أما الآن فالى حيث مدت الموائد ، حافلة بمــا لذ وطاب ، بما سوف لا أهنــأ به ، فاصناف الطعام هنيــة شهية تفوح بأرواح زكية تناغش جوفى ، ولكن المأدبة ليست الا ذريعة يستغلها أقطاب الجالية فى الدعاية لأنفســهم جماعة وافرادا ، فالمصورون يجوسون الصفوف المتراصة متربصين، يترصدون عليك الطعام مضغة بعد لقمة ، فاذا ما نجح المرء مرة فغافلهم، وقفت اللقمة فى حلقه اذ ينطلق مرة بعد أخرى رنين من آنية تدق بسكين ، ايذانا بان فلانا أو علانا سوف يلقى خطابا ، فنزدرد ما فى فمنا ولما تذوقناه ، بل ونمسك بانفاسنا فنضفى على القاعة الفسيحة جوا من انصات وترقب لتلك الدرر التى سوف تساقط من لســان محدثنا ــ وحاشــا أن تكون المــأدبة عجفــاء فلا نحظى الا بمتحدث أو اثنين ، فهم عشرات يتعاقبون واحدا تلو آخر ، يأكلون علينا الوقت أكلا فاذا بالطعام قد أروح أو تلبن فأختر ، وتصد عنه نفوسنا وتعافه .

ولا بد للخطيب أو الشاعر ــ فالحفل مسيخ ان لم يبتل بقصــيدتين أو ثلاث ــ ان يقف متخايلا بعض الوقت حتى تلتقط له عشرات الصــــور فينتقى منها فيما بعد ما سوف تتحلى به صفحات مجلة الجاليــة ، « فالجــوالى » ــ كما يســميها المغتربون ــ حريصــة على ان يكون لهــا مجــلة مصورة ، مهما كلفهم ذلك ، انها الوسول الذى

يحكى قصة نجاحهم لاقربائهم فى الشرق البعيد ، هؤلاء الذين أقعدهم وخم أو تبلد عن الهجرة الى حيث الجاه والثراء ·

وبعد أن تكون نفسى قد علت وجسدى قد فتر من تقزز على طوى ، ومن غثيان بعد ثرثرة ولغو او تقعر وتشدق ، فانهم يستحثوننى بتصفيق وجلبة هى أقرب الى الوعوعة ، أن أقوم بدورى فالقى عليهم كلمة ، فاستجمع من شتات نفسى لأنهض نشطا خفيفا ، متهلل الوجه ، تفيض بى سعادة دافقة لما غمرونى به من حفاوة وتكريم ·

وليس هذا حال الجاليات العربية جميعا ، فشتان بين هذه وبين جالية البرازيل ، أو بينها وبين جالية شيلى ، بل ربما أكون قد جرت عليها فغبنتها ، ولكنها الظروف القاسية التى مرت بى بينا سلامة وطنى فى كف القدر وكرامته تتعرض لامتهان ، فلم تقفز الى ذاكرتى الا النقائص مجسمة مضخمة فتحجب عنى مواطن من مروءة وشهامة لا شك وأنها غير معدومة ·

اجتمعوا اذن بالأمس ــ ثانى أيام العدوان ــ فجمعوا خمسة وسبعين دولارا ، فماذا هم بها فاعلون ؟ وصاح أحدهم فجأة بأن تستخدم فى ارسال برقية تأييد ، ولا أريد أن أثقل عليكم بمزيد من تفصيل ، وانما الذى يعنينا أنهم قرروا بعد نقاش طويل توجيهها برسم الرئيس جمال عبد الناصر ، الا ان ذلك اللوذعى الذى كلف بصياغتها أخذته الحمية فتجاوز بكلماتها الحد المتاح ، فهى عندئذ تتكلف ثمانين دولارا ، فاين لهم بالخمسة الباقية ؟ وكان ان تكفل أحدهم بالانكباب عليها فينكمش بها داخل الحدود المالية التى رسمت لها ·

***

خواطر وذكريات ومشاعر مرقت بذهنى ، سريعة متلاحقة متجاوزة فى ذلك أرقى ماوصلت اليه « التقنية » الالكترونية ، ورفعت بصرى الى الجنرال اونجنيا أنظر اليه مليا ·

« سيدى الرئيس ، ربما أن تكون الجالية احدى الروابط التى بيننا ، ولكن الدعامة الوطيدة ·· العروة الوثيقة التى تربط بين العالم العربى من ناحية وبين كل بلد ناطق بالاسبانية هو ذلك التراث المشترك الذى خلقه التلاحم بين أجدادنا وأجدادكم على الأرض الأسبانية خلال ثمانية قرون أو يزيد ، تراث انبثقت عنه قيم حضارية لا تزال حية حيثما الغلبة للروح على المادة ، واذا كانت بلادنا قد عزلت عن بلادكم لطول ما عانينا من سيطرة استعمارية ، فانه يجب علينا منذ اللحظة تخطى تلك الحواجز التى أقيمت بيننا قسرا فنزيلها من الطريق ·

« سيدى الرئيس ، لا تحدثنى عن الجالية ، فانها رباط ولا شك ولكن ما أوهاه اذا قيس بتلك القيم المشتركة التى هى الأصول الوجدانية لشعوبنا » ·

وشد اونجنيا على يدى بحرارة وقد اعتملت نفسه بمشاعر دافقة ، ولكن المشاعر لا تؤتى أكلها الا بعد عمل شاق طويل ، انها لا تقوى وحدها على الثبات امام وطأة الضغوط الاجنبية التى تمسك بخناق كثير من بلاد ، ولكننا نرتكب خطأ فاحشا اذا ما أدبرناها ولم نحاول أن نتعهدها ، تمهيدا لخلق ترابط بين المصالح المادية التى تمس حياة الشعوب ، واننا لنخطىء أيضا اذا ما حاولنا وتعجلنا النتائج فينفد صبرنا وننقلب على محاولاتنا حانقين ، انما هى خطوات أولى على طريق من مثابرة شاق طويل ·

***

وخرجت الى رجال الصحافة رابط الجاش ، لا يساورنى قلق كما بالأمس ، اذ كنت قد أخذت لهم أهبتى وأمضيت وقتا ، فى ضوء آخر ماوصل الى سفارتنا من أنباء ، فى الرجوع الى قاموس جيب أحمله معى فى مثل هذه الرحلات ، فاعددت ما سوف ألقيه عليهم من كلام ، منددا بالتدخل الاستعمارى من قبل الولايات المتحدة وبريطانيا ، وان استمراره قد أدى الى اغلاق قناةالسويس ، وأننا نرفض رفضا قاطعا قرار وقف اطلاق النار حتى يتم لنا طرد قوات العدوان فتتطهر أرض الوطن من دنسها ·

(لها بقية)

مشكلتنا .. السكانية ..

بين الموارد ... والمواهب

د . جمال حمدان

قل منا من يختلف على أن مشكلة السكان هى واحدة من أخطر ملامح الكيان المصرى المعاصر ، بينما تعتقد الكثرة ــ ونحن معهم ــ أنها هى بالدقة المشكلة الأم أو المشكلة المفتاح · خذ أى مشكلة نوعية فى حياتنا اليومية ، مباشرة أو غير مباشرة ، صغيرة أو كبيرة ، ابتداء من عمالة المثقفين الى مشكلة رغيف الخبز ، من مشكلة مواصلات محلية فى مدينة الى مشكلة اسكان على المستوى الفردى، من بالوعة الاستهلاك الىمعوقات التصدير ·· الخ · فلن تخطىء عند التشريح الدقيق اصبع مشكلة السكان خلفها بطريقة أو بأخرى، حتى ليصح أن نضعها قاعدة عامة فى كل مشاكلنا : « **فتش عن السكان** » !

ونعتقد أنه قد آن الأوان لتطرح هذه القضية الحيوية الخطيرة على أوسع نطاق وفى أشمل اطار ولقد كتب الكثير فى الموضوع ، ولكنا ما زلنا بحاجة ــ وسنظل دائما بحاجة ــ الى كل نظرة جديدة والى كل زاوية وكل تشريح وضوء ، حتى يتم « تحبيش » الرأى العام فى وعى سكانى مدرك تماما لفداحة المشكلة وخطورتها وقادر موضوعيا وفكريا على مواجهتها ·

ولعل خير ما نفعل فى هذا الصدد أن نضع القضية فى اطارها الصحيح وهو الاطار التاريخي لنبدأها من جذورها فى بدايات عصرنا الحديث ولنتتبع ديناميكياتها قبل أن نتلمس حلا لها . وبغير هذا المنظور التاريخي قد نخطىء حقا تشخيص المشكلة ذاتها وأسبابها الحقيقية ، فضلا عن طرق العلاج من بعدها . فسنرى أن المشكلة مشكلة تراكمية فى الدرجة الاولى ، ومن صنع الاقطاع وارثه أولا وأخيرا . ونحن اليوم انما نحصد الشوك الذى زرعه عصر الاقطاع منذ محمد على حتى نهايته مع ثورة يوليو . ومن هذا المنطلق ، نعتزم هنا أن نقسم دراستنا الى تتبع نمو السكان أولا ، ثم نقارنه بحركة نمو الانتاج القومى ثانيا ، ثم نحصر المشكلة فى بؤرتها - المتعفنة ! - وهى افراط السكان ، وبعدها نكون فى موقف يسمح لنا بمناقشة الحلول البدائل .

الثورة الديموغرافية

وقبل أن نعرض للثورة السكانية الحديثة التى بدأت فى القرن الماضى ، يحسن أن نذكر أو نتذكر أن تاريخ مصر القديم والوسيط عرف مشكلة السكان معرفة مريرة حقا فى كثير من مراحله . ويكفى أن نقول ان ضغط السكان وما صحبه من ذبذبات نكبائية فادحة كاد أن يكون مرضا مزمنا و متوطنا ، واثقين - مع المؤرخ ويلسون - أن مصر القديمة كانت دائما بمثابة « أنبوبة مغلقة تحتوى على تجمع من الحياة قريب من نقطة التشبع » (١) . كذلك يمكن أن نقول باطمئنان ان الضوابط المالثوسية التقليدية من مجاعات وأوبئة - وحروب ربما - كانت هى الحل الاخير لمشكلة السكان ، حتى كادت تصل بمصر فى نهايات القرن الثامن عشر الى نقطة الصفر تقريبا حيث بلغت ٢٫٥ مليون نسمة فقط . ولعل هذه النقطة السوداء هى نقطة الحضيض المطلق فى كل تاريخ مصر العمرانى المعروف ، ولا مفر من أن نعدها قلبا وتشويها كاملين لشخصية مصر الحقيقية فى هذا المجال .

ومع بدايات القرن التاسع عشر تبدأ الفترة الحديثة ، وهى فترة سكانية جديدة تماما لا تقارن ولا ينبغى أن تقارن بما عرفته مصر من قبل ، وتعد وحدها وحدة مورفولوجية مستقلة تماما فى منحنى السكان التاريخي . انها « الثورة الديموغرافية » بكل معنى الكلمة ، ونحن انما نعيش اليوم على آخر وأعلى قممها . ونستطيع أن نحدد حجم هذه الثورة عموما ، وقبل أن نحلل مراحلها ، اذا نحن قارنا بين عدد السكان فى بدايتها ونهايتها . فالبداية - ١٨٢١ - تسجل بالتقريب ٢٫٥ مليون نسمة (٢٫٥٣٦٫٠٠٠) ، بينما استقراحصاء العينات١٩٦٦ على علامة الثلاثين مليونا (٣٠٫٠٨٣٫٠٠٠) . فنسبة النمو الكلى فى مجموع السكان تصل الى ١١٫٨ ضعفا ، أى أن سكان مصر ضاعفوا عددهم نحو ١٢ مرة بالنسبة الى ما كانوا عليه منذ نحو قرن ونصف قرن (١٤٥ عاما) .

فاذا ما التفتنا الى المقارنة بالعالم الخارجى ، فهذه ثورة ديموغرافية عارمة لا تأتى فى الصف الأول من افريقيا أو الشرق الأوسط ، بل تفوق كل ما عرفته أوربا أو آسيا فيما عدا جاوة والفلبين (٢) . غير أننا لا ينبغى أن نغفل عن حقيقة هامة وهى أن هذا المعدل القياسى منتفخ فى الواقع بقدر أو بآخر من الافتعال أو فلنقل الشذوذ لأنه انما يبدأ من ذلك النقص السكانى الفاحش الذى سبق تلك الثورة بحيث كاد حكمها أن يكون حكم البلاد « الحديثة » المكشوفة والمعمرة لأول مرة ! ومع هذا ، وعلى أى مقياس ، تظل ثورتنا السكانية - بالنسبى لا بالمطلق بالطبع - من أضخم الثورات السكانية فى العالم .

فاذا عرفنا بعد ذلك أن أولى الثورات الديموغرافية فى عالمنا الحديث هى تلك التى بدأت فى بريطانيا مع الانقلاب الصناعى فى عشرينات القرن الماضى ، وتلتها بسرعة فرنسا ثم بقية دول أوربا من الغرب الى الشرق بالتدريج حتى السبعينات والثمانينات ، أدركنا أن مصر

لم تتخلف طويلا جدا فى نقطة البداية ، وان كانت قمة الانفجار وجسمه الاساسى قد تأخرا حقا الى القرن الحالى • ولما كان الزناد الذى أطلق هذا الانفجار السكانى فى مصر هو انقلاب الرى والزراعة بكل ما يعنى من نتائج ومحمولات اقتصادية واجتماعية ، مثلما كان الزناد الذى أطلقها فى الغرب هو الانقلاب الميكانيكى والانقلاب الصناعى ، فاننا نستطيع باطمئنان أن نقول ان انقلاب الرى عندنا كان بمثابة الانقلاب الميكانيكى فى أوربا ، بينما يعادل انقلاب الزراعة الانقلاب الصناعى • (٣)

وقبل أن نناقش اتجاه وحركة النمو بعامة ، ثمة بعض نقط تاريخية تستحق الملاحظة كعلامات على الطريق • فدورة القرن نقطة ارتكاز جديرة بالتسجيل ، اذ وصل السكان عندها الى علامة العشرة ملايين ، بينما أن لسنة ١٩١٧ مغزى خاصا حيث بلغ السكان ١٢٫٧ مليون نسمة • وكانت بذلك أول مرة على الارجح تحقق مصر الحديثة فيها قدراتها وطاقاتها السكانية القصوى التى أتيحت لمصر القديمة ، مصر الزراعة الحوضية وكل زيادة بعدها تعد بذلك طاقة وآفاقا جديدة تماما لم تعرفها مصر القديمة على الأرجح فى أى وقت • ثم يأتى منتصف القرن ليسجل علامة العشرين مليونا ، أى ضعف علامة دورة القرن • وأخيرا وعلى عتبة الثلث الأخير من القرن تتحدد علامة قياسية جديدة هى علامة الثلاثين مليونا ، تربو كثيرا بالتأكيد على ضعف أقصى ما يحتمل أن يكون قد وصل اليه سقف السكان فى مصر القديمة أو الوسيطة •

ويهمنا بعد هذا ايقاع النمو وسرعة خطاه • والواضح أن الفترة منذ الحملة الفرنسية الى ١٨٢١ تمثل فترة جمود وتوقف تام ، حيث أن عدد السكان عند التاريخين واحد وهو ٢٫٥ مليون نسمة • أي أن حصاد الموت كان يستوعب بساطة كل محصول الحياة • وتلك علامة ما يسمى « مرحلة السكان البدائية » فى أوضح صورها •

ولكن ربع القرن ٢١ ــ ١٨٤٦ كان على الارجح فترة نشطة من اعادة تزايد السكان حيث بدأ انقلاب الرى واستصلاح الاراضى • فكان الفلاحون يستشحون حثا على الزواج المبكر والتناسل السريع (٤) ، كما أدخلت وسائل الطب الحديثة ضد الاوبئة ، فارتفعت المواليد وانخفضت الوفيات • ومع ذلك فقد ابتلعت الأوبئة والحروب العديدة نسبة كبيرة (٥) وكانت الصيحة دائما هى طلب المزيد من السكان • والأغلب بعامة أن تزايد السكان رغم سرعته النسبية كان أبطأ من الامكانيات الاقتصادية ، كما يبدو أن الوضع هكذا ظل حتى نهايات القرن الماضى • يؤكد هذا أن المساحة المزروعة فى مصر أكثر من تضاعفت فى تلك المرحلة ، فارتفعت من ٢٫٠٣٢٫٠٠٠ فدان فى ١٨٢١ الى ٤٫٧٤٣٫٠٠٠ فى ١٨٧٧ الى ٥٫٠٨٨٫٠٠٠ فى ١٨٩٧ ، أى أن تلك كانت أعظم مرحلة شهدتها مصر الحديثة فى التوسع الافقى • كما شهدت سلسلة من الانجازات الهندسية ومشاريع الرى الاساسية كاتمام قناطر الدلتا فى ١٨٨٣ ، ١٨٩١ ثم اقامة خزان أسوان ١٩٠٢ • ولم يكن غريبا لذلك أن تصل صيحة المطالبة بتكاثر السكان حينذاك الى أحد طبقات « الكامراليه » فى دعوة مثل دعوة روسى بك Rossi المستميتة الى التناسل السريع (٦) • ولعلنا لا نخطىء اذا شخصنا الفترة بأنها « مرحلة الانطلاق السكانى أو المرحلة الانتقالية » بدرجة أو بأخرى •

غير أنه منذ حوالى بداية القرن العشرين بدأ معدل النمو ينخفض باستمرار واطراد تقريبا حتى بداية الحرب الثانية ، فهبطت نسبة الزيادة المئوية سنويا من ٢٫٩ فى ١٨٩٧ ، الى ١٫٦ فى ١٩٠٧ ، الى ١٫٤ فى ١٩١٧ ، الى ١٫١ فى ١٩٢٧ الى ١٫٢ فى ١٩٣٧ • أى أنها انتهت الى نصف

ما بدأت به . ورغم أن هذه الفترة شـهدت ثمار انشاء خزان أسوان ثم تعليته المزدوجة ثم بدايات الصناعة الاولى بعد ترشيد التعريفة الجمركيـة فى ١٩٣٠ ، الا أن من الواضح أن هبوط معـدل النمو بالحاح يدل على أن موارد البلد لم تعـد تتزايد بنفس سرعة السكان . فمنذ ١٨٩٧ حتى ١٩٣٧ لم تزد الارض المزروعة الا من ٥ر٠٨٨ر٠٠٠ فدان الى ٥ر٢٨١ر٠٠٠ فقط ، وان كانت زيادة المساحة المحصولية أكبر نظرا لاستكمال التحول من الرى الحـوضى الى الدائم ، فـارتفعت من ٦ر٧٦٤ر٠٠٠ فدان فى ١٨٩٧ الى ٨ر٣٥٨ر٠٠٠ فى ١٩٣٧ . واذن فتلك المرحلة استمرار للفترة الانتقالية ، غير أنها كانت فى نصفها الهـابط كأنما تقترب نوعا من طلائع « المرحلة الاستقرارية» بصورة ما .

غير أن مرحلة جديدة بدأت مع الحرب الثانية، انقلب معها اتجاه الحركة صعودا وطفرة . فقـد صبت ظروف الحرب رءوس الاموال الاجنبيـة ووصل التصنيع الى قمة نسبية . ثم أتت ثورة يوليو لتغلب الاقتصاد بالتوسع الزراعى والصناعى المطلق ولتقلب المجتمع بالاشتراكية واعادة توزيع الملكية ، فاصبح معدل نمو السكان يطفر بانتظام ففى ١٩٤٧ وصل الى ١ر٩ ، وفى ١٩٦٠ الى ٢ر٤ ثم الى ٢ر٧ فى ١٩٦٦ . وهذا المعـدل الاخير يقترب كثيرا من أعلى معـدل سـجلته الفترة الحديثة وهو ٢ر٩ فى ١٨٩٧ ، ولا مثيل له فيما بين البداية والنهاية .

ومن الواضح من سلوك النمو على امتداد الفترة السكانية الحديثة أنه وظيفة لعلاقة الصراع والشد والجذب ما بين قوى التكاثر كما تحددها التطورات الاقتصادية وفرص الانتاج وما بين قوى التناقص كما تتمثل فى فرص الموت ، و معدلات المواليـد والوفيات على الترتيب . ولسنا نعرف على وجـه الدقة اتجاهات المواليد والوفيات فى القرن الماضى ولكنها فى الخمسين سنة الاخيرة تبدى نمطا محددا بوضوح كان يعطى مصر شهرة تقليدية وهى أنها من أعلى دول العالم مواليد ووفيات . فقد ظلت المواليد تتأرجح حوالى ٤٠ ـ ٤٥ فى الألف بمتوسط



قدره ٤٢ فى الألف ، ولم تزل كذلك حتى الآن . أما الوفيات فقـد تراوحت حوالى ٢٦ فى الألف حتى الحرب الثانية ثم بدأت تنخفض انخفاضـا محققا حتى وصلت أخيرا الى ١٥ فى الألف ، وينتظر لها المزيد من الانخفاض بكل تأكيـد . وهـذا ما يفسر بدء مرحلة جديدة من النمو منذ تلك الحرب . وفى النتيجة فقد انتقلت مصر من نمط البلاد التى تمتاز بمواليد مرتفعة ووفيات مرتفعة كذلك ومن ثم بتزايد معتدل ، الى نمط البـلاد التى تمتاز بمواليد مرتفعة ووفيات منخفضة ومن ثم بتزايد سريع ضخم ، وهذه مرحلة الانفجـار السكانى . ونحن الآن نزيد بمعـدل ٧٥٠ الف نسمة كل عام .

وهنا يمكن أن ننظر الى هذه الدورات المتعاقبة من تسارع وتباطؤ واضح فى النمو خلال فترتنـا الحديثة ككل . ومن الممكن أن نقيس هذه الدورات اذا نحن عرفنا فى كم سنة ضاعف السـكان أنفسهم مرة واحدة . ولمثل هذا نتخذ فترة قاعدية ولتكن ٢٥ سنة ومضاعفاتها . والجـدول الآتى يلخص لنا هذه المحاولة ، مع ملاحظة أنه لما كان طوال الفترة منذ ١٩٤٧ أقصر من الفتـرة القاعدية فقد أضفنا لتقريبهما تقديرات حجم السـكان المنتظرة لعام ١٩٧٠ . (٧)

الفترة	السكان	السكان فى نهاية الفترة ٪
١٨٢١ ـ١٨٤٦	٢ر٥٣٦ر٠٠٠	١ر١٧٦
(٢٥ سنة)	٤ر٤٦٧ر٠٠٠	تقريبا تضاعفت
١٨٤٦ ـ ١٨٩٧	٤ر٤٦٧ر٠٠٠	٦ر٢١٥
(٥١ سنة)	٩ر٦٣٤ر٠٠٠	أكثر من تضاعفت
١٨٩٧ ـ ١٩٤٧	٩ر٦٣٤ر٠٠٠	٦ر١٩٧
(٥٠ سنة)	١٩ر٠٤٠ر٠٠٠	تقريبا تضاعفت
١٩٤٧ ـ ١٩٦٦	١٩ر٠٤٠ر٠٠٠	٠ر١٨
(١٩ سنة)	٣٠ر٠٨٣ر٠٠٠	مرة ونصف
١٩٤٧ ـ ١٩٧٠	١٩ر٠٤٠ر٠٠٠	٠ر١٥٨
(٢٣ سنة)	٣٤ر٥٠٠ر٠٠٠	تقريبا تضاعفت

والحقيقة البارزة هى أن سكان مصر ضاعفوا أنفسهم تقريبا فى ربع القرن الاول ، بينما فى نصف القرن الثانى أى فى ضعف الفترة السابقة لم يفعلوا سوى أن ضاعفوا أنفسهم أو أكثر من ذلك نوعا ، ثم فى نصف القرن التالى تكرر ـ أو بالكاد ـ نفس الشىء • ولكنهم يعودون بعد ذلك فى ربع القرن الأخير ، أى فى نصف المدة السابقة ، فيوشكون أن يضاعفوا أنفسهم • ومعنى هذا ، بصورة نسبية فيها شىء من التجاوز ، أن الانتقال من ربع القرن الاول الى نصف القرن التالى كان من مستوى هندسى من النمو الى مستوى حسابى ، بينما ظل المستوى الحسابى فى النصف القرن التالى ، ثم عاد هندسيا فى ربع القرن الأخير •

ومثل هذا السلوك قد يوحى باتجاهات معينة • وبالفعل رأى البعض فيها ما يسمى بالاتجاهات اللوجستية Overpopulation (٨) • واللوجستية تفترض عالما متناهيا تبدأ فيه السكان أولا تنمو وترتفع ببطء ، تقريبا بشكل لوغاريتمى ، ثم تتوسع جدا فى متوالية هندسية بدرجة أو بأخرى وتستمر هذه المرحلة بنسبة الحجم المطلق للامكانات الطبيعية والحضارية ، ثم أخيرا ينعكس معدل النمو ويدخل فى مرحلة لوجستية يتناقص فيها • ومعنى هذا كله أن نمو السكان يخضع لقانون « معادلة الدرجة الثالثة » (٩) •

وبغير التزام بحرفية اللوجستية ، فمن الواضح أن سكاننا بعد مرحلة التوقف منذ الحملة الفرنسية بدأوا نموهم بسرعة ، ثم أخذت تتباطأ خطاها كما لو لتنتهى الى حالة من الاستقرار والثبات فى دورة طويلة المدى كما يقضى المنحنى اللوجستى (١٠) ، ولكنها عادت فى النهاية منذ الحرب الثانية وبسبب ثورة التصنيع والتوسع الزراعى لتبدأ دورة لوجستية جديدة قصيرة المدى أو لا نعلم مداها بعد • والمهم أننا ، بعد أن كنا قد اتجهنا أو بدأنا نتجه الى مرحلة الاستقرار بصورة ما أو حتى ببطء شديد ، قد عدنا منذ الحرب الثانية الى معدل من سرعة النمو لم نعرفه الا فى بداية الثورة الديموغرافية والى قمة انفجارية خطيرة من التزايد الهندسى ، كأننا لنبدأ لا دورة لوجستية جديدة فحسب بل وثورة ديموغرافية جديدة أيضا ! وهنا موطن الخطر •

فالمد السكانى قد هزم بانتظام كل تنبؤات وتقديرات المتنبئين ، ولا نكاد نعرف تقديرا أو اسقاطا للسكان الا وتخطاه النمو الفعلى ، وأحيانا بصورة صارخة أو ساخرة ! ففى ١٩٢٣ حين كان السكان ١٣ مليونا ، قدر شبرد ورتيشاردز أنها ستتضاعف فى ٥٠ سنة أى ستصل الى ٢٦ مليونا فى ١٩٧٣ ، وأن هذا هو أقصى طاقة مصر للتحمل بالسكان بعدها لا بد من استقرار النمو (١١) • وفى ١٩٢٨ ، وعلى أساس المساحة الصالحة للزراعة (٧ ملايين فدان) ، وعلى أساس كثافة المنوفية أكثف أجزاء مصر (٣ أشخاص للفدان)، قدر أن أقصى طاقة مصر هى ٢١ مليونا ستصل اليها فى السبعينات • (١٢)

وقريب من هذا جدا تقدير دورين وارينر بنحو ٢٢ مليونا لسنة ١٩٧٠ (١٣) • كذلك أعطت محاولة أخرى فى ١٩٣٨ تقديرا بنحو ٢٠ مليونا لعام ١٩٦٠ • وفى ١٩٣٧ ، وعلى أساس انخفاض معدل النمو السائد حينئذ ، قدر البعض عدد السكان بنحو ٢٣ مليونا فى ١٩٩٧ ! (١٤) وآخرون أعطوا ٣٠ مليونا لعام ١٩٩٠ (١٥) ، بينما قدر البعض الآخر نفس الحجم لسنة ١٩٧٢ ، وتنبأ غيرهم بنحو ٢٥ مليونا لسنة ١٩٦٧ (١٦)• ومن الواضح أن السكان بالفعل حطمت حتى الأرقام القياسية فى هذه التنبؤات •

وتتأكد خطورة الموقف اذا نحن اعتبرنا

المستقبل من منظور الحاضر الواقع فعلا . فقد قدر على أساس تعداد ١٩٤٧ أنه اذا استمرت معدلات الخصوبة الحالية طوال المدة من ١٩٦٠ حتى ١٩٨٥ ، فسيصل السكان الى ٢٩ر٩ فى ١٩٦٥! (وهو ما تحقق بالفعل اذا كشف تعداد ١٩٦٦ عن ٣٠ مليونا) ، ثم الى ٣٤ر٥ فى ١٩٧٠ ، فالى ٣٩ر٧ فى ١٩٧٥ ، الى ٤٥ر٧ فى ١٩٨٠ ،وأخيرا الى ٥٢ر٥ فى ١٩٨٥ ! وهذا يعنى اضافة ٢٢ر٥ مليون نسمة الى السكان الحاليين ـ أى بنسبة ٧٥٪ ـ فى نحو ٢٠ عاما . (١٧)

وعلى أساس من أرقام السكان ١٩٦٠ ، أجرت اللجنة المركزية للاحصاء بمصر تقديرات أخرى للسكان على أساس عدة افتراضات ، فوجدت أنه اذا ثبتت معدلات المواليد باستمرار فسيبلغ عدد السكان فى ١٩٨٥ نحو ٥٢ر٥ مليون نسمة تهبط الى ٤٨ر٣ اذا تناقصت المواليد بمعدل ١٪ كل عام ، والى ٤٣ر٦ اذا تناقصت بمعدل ٢٪ كل عام .

كذلك فقد قدرت هيئة الأمم المتحدة سكان مصر عام ٢٠٠٠ على أساس أرقام السكان ١٩٥٥، فوجدت أنها ستبلغ ٨١ مليون نسمة اذا افترضنا ثبات معدلات المواليد والوفيات كما هى ، أو ٤٧ر٥ مليون نسمة اذا افترضنا ثبات الوفيات وانخفاض المواليد . هذا ، بينما يذهب تقدير آخر ، على أساس أرقام السكان ١٩٦٠ هذه المرة ولنفس التاريخ عام ٢٠٠٠ ، الى احتمالات تتراوح بين ٦٦ر٣ مليون نسمة كحد أعلى ، ٤٦ر٢ كحد أدنى .

الانتاج : ثورة أم دفعة ؟

تلك قصة السكان فى مصر المعاصرة ، فماذا عن الجانب الآخر ، جانب الانتاج والموارد الاقتصادية ؟ ندخل مباشرة الى قصة الارض والزراعة بحسبانها قاعدة الانتاج . الجدول الآتى يقدم خامة للمناقشة ، والأرقام المطلقة فيه بالألف ، وأرقام ١٩٦٦ تقريبية .

ولسنا بحاجة الى أن نقول ان الايقاع الاساسى الذى يرين على الارقام هو الاختلال المطلق والمطرد بين الأرض والناس . فالسكان فى تزايد سريع، والأرض أقرب الى الثبات أو بطيئة الخطى ،وبالتالى فان متوسط نصيب الفرد منها فى انكماش خطير . ويمكن أن نعبر عن هذا بطريقة موحدة اذا درسنا السبعين سنة من ١٨٩٧ ، حيث تبدأ الأرقام الموثوق بها ، حتى ١٩٦٦ ، واعتبرنا أن كل أرقام ١٨٩٧ تساوى ١٠٠ ننسب اليها أرقام ١٩٦٦ كأرقام قياسية . فنجد أن عدد السكان

السنة	السكان	المساحة الزراعية			المساحة المحصولية		
		المساحة	الزيادة أو النقص	نصيب الفرد	المساحة	الزيادة أو النقص	نصيب الفرد
١٨٢١	٢ر٥٣٦	٢ر٠٣٢	ـ	٠ر٨٠	٢ر٠٣٢	ـ	٠ر٨٠
١٨٧٧	٦ر٠٩٨	٤ر٧٤٣	+ ٢ر٧١١	٠ر٧٨	٤ر٧٦٢	+ ٢ر٧٣٠	٠ر٧٨
١٨٩٧	٩ر٧١٥	٥ر٠٨٨	+ ٠ر٣٤٥	٠ر٥٢	٦ر٧٦٤	+ ٢ر٠٠٢	٠ر٧٠
١٩٠٧	١١ر٣١٢	٥ر٤٠٣	+ ٠ر٣١٥	٠ر٤٨	٧ر٦٦٢	+ ٠ر٨٩٨	٠ر٦٨
١٩١٧	١٢ر٧٩٥	٥ر٢٩٦	ـ ٠ر١٣٤	٠ر٤٠	٧ر٦٨٦	+ ٠ر٠٢٤	٠ر٦٨
١٩٢٧	١٤ر٢٧٦	٥ر٥٤٤	+ ٠ر٢٧٥	٠ر٣٩	٨ر٦٦١	+ ٠ر٩٨٥	٠ر٥٢
١٩٣٧	١٦ر٠٠٨	٥ر٢٨١	ـ ٠ر٢٦٣	٠ر٣٣	٨ر٣٥٨	ـ ٠ر٣٠٣	٠ر٥٢
١٩٤٧	١٩ر٠٦٨	٥ر٧٦١	+ ٠ر٤٨٠	٠ر٣٠	٩ر١٦٧	+ ٠ر٨٠٩	٠ر٤٨
١٩٦٠	٢٦ر٠٨٥	٥ر٩١٨	+ ٠ر١٥٧	٠ر٢٢	١٠ر٣٩٧	+ ١ر٢٣٠	٠ر٤٠
١٩٦٦	٣٠ر٠٨٣	٦ر٠٠٠	+ ٠ر٠٨٢	٠ر٢٠	١٠ر٤٠٠	+ ٠ر٠٠٣	٠ر٣٥

زاد الى ٣٩٫٨ أى تعدى ثلاثة الأمثال ، بنسبة زيادة قدرها ٢٠٩٫٩٪ . أما المساحة المزروعة فقد ارتفعت من ١٠٠ الى ١١٨ فقط ، أى بزيادة ١٨٪ . وكنتيجة لهذا هبط متوسط نصيب الفرد الواحد من الأرض المزروعة من ١٠٠ الى ٣٨ ، أى أصبح ٣٨٪ مما كان عليه ١٨٩٧ . أما المساحة المحصولية فقد ارتفعت من ١٠٠ الى ١٥٣٫٧ ، بزيادة قدرها ٥٣٫٧٪ فقط بينما هبط نصيب الفرد من هذه المساحة من ١٠٠ الى ٥٠ ، أى أصبح النصف .

ويمكن أن نلخص الموقف كله كالآتى : الأرض المزروعة ثابتة لم تكد تزداد عمليا ، أما السكان فأصبحوا ثلاثة الأمثال ، وفى المنزلة بين المنزلتين زادت مساحة المحاصيل فأصبحت المثل ونصف المثل . وترتب على ذلك أن نصيب الفرد من الأرض المزروعة هبط من أكثر من نصف فدان الى خمس فدان ، ومن المساحة المحصولية من ٠٫٧ فدان الى ٠٫٣٥ فدان . ويمكن أن نضيف فى ١٩٥٧ يعادل تقريبا ما كان نصيبه من الأرض المزروعة فى ١٩١٧ ، بينما أن نصيبه من المساحة المحصولية ١٩٦٦ انحدر الى ثلثى نصيبه من الارض المزروعة كما كان ١٨٩٧ . وبهذا كله أصبح كل خمسة مصريين يعيشون على فدان واحد من الأرض المزروعة (مقابل اثنين فقط ١٨٩٧) ، وكل ثلاثة تقريبا على فدان واحد من المساحة المحصولية (مقابل ١٫٥ فقط ١٨٩٧) .

غير أن الأرض والزراعة ليست كل الاقتصاد فهناك الصناعة وطفرتها الاخيرة ، وهناك النشاطات العديدة الاخرى . ولهذا فالمقياس الحقيقى للعلاقة بين السكان والانتاج انما هو الدخل القومى ككل والأرقام الخام لدخلنا القومى فى تزايد مستمر بطبيعة الحال . ففى ١٩١٣ بلغ الدخل ٢٠٠ مليون جنيه ، وصلت فى ١٩٦٥ الى حوالى ١٨٠٠ مليون جنيه ، الى ٢٣٥٠ مليونا مقدرة بصفة مبدئية لعام ١٩٦٧ . وعلى هذا الأساس فان متوسط دخل الفرد كان فى السنة الاولى نحو ١٦ جنيها ، وفى السنة الوسطى نحو ٦٠ جنيها ، وفى الاخيرة ٧٨ جنيها .

لكن هذه زيادة شكلية مضللة ، لأن القوة الشرائية ، القيمة الحقيقية ، للنقود تغيرت خلال الفترة جذريا ، ولا بد لصحة المقارنة من تصحيح تلك الأرقام على أساس ثابت . فاذا ما فعلنا ـ على أساس أسعار ١٩٥٧ ـ وجدنا قيمة الدخل ١٩١٣ تعادل فى الحقيقة ٤٧٦ مليون جنيه ، وبذلك كان متوسط دخل الفرد ٣٦ جنيها . ولكنه هبط بعد ذلك الى ٢٨ جنيها فى ١٩٤٥ ثم عاد فارتفع الى ٣٢٫٥ جنيه فى ١٩٥٧ . ولم تصحح أرقام ١٩٦٧ بعد الى الاساس الثابت ، ولكن اذا كان ثمة تحسن فهو طفيف على الأرجح .

وقصارى ما قد يمكن أن يقال الآن هو أن كل الجهود الاقتصادية والحضارية التى بذلت خلال نحو نصف القرن الاخير ، ولكن بالاصح والأحرى فى عقد الثورة الاخير فقط ، قد نجحت بالكاد فى المحافظة على مستوى متوسط الدخل . الاخير فى تناقض جذرى متزايدين الكم والكيف ، بين حجم السكان ومستوى المعيشة . ولا يخرج الموقف عن شخص يصعد على سلم هابط آليا ، أو على تلك التشبيهات المألوفة عن السباق بين الحيوانات العداءة والزواحف .. الخ .

افراط السكان

علام يدل هذا كله ؟ ضغط السكان على موارد الانتاج واضح ، وأوضح منه ضغط الانتاج على حياة السكان . غير أن صميم السؤال هو : هل بلغ السكان حجما أكبر مما تحتمل الموارد أى هل تعدوا حدود « أنسب السكان » ، وبصيغة اخرى هل ثمة « افراط سكانى »

فى مصر ؟ هناك أعراض محددة جغرافية واقتصادية واجتماعية تتخذ مقاييس لافراط السكان ، منها درجة التزاحم أو كثافة السكان ومنها اكتظاظ الريف ، ومنها انخفاض مستوى الدخل ومنها كذلك البطالة .

ورغم ان كثافة السكان ليست أصلا مقياسا لأنسب السكان ، فلعلنا لا نغلو اذا اعتبرناها قد أصبحت فى مصر عرضا حقيقيا من أعراض افراط السكان . فقد وصلت الكثافة الى أرقام نادرة ، فكثافة المعمور فى مصر ١٩٦٦ تصل الى ٨٥٤ نسمة فى الكيلو متر المربع ، أو ٢٣٠٠ فى الميل المربع ، وهى معدلات لا تعرف حتى فى

أكثف المجتمعات الصناعية • غير أن هذه الكثافة الفيزيولوجية تشير الى المعمور على الاطلاق (٣٥ الف كم٢ أو ١٣ الف ميل٢) ، فى حين أن نسبة الارض المستغلة بالفعل — الستة ملايين فدان التى تعادل نحو ٢٥٫٥ ألف كم٢ أو المعمور الفعال — تقل عن ذلك كثيرا ، بحيث قد ترتفع الكثافة الحقيقية الى ١١٧٠ نسمة للكيلو المربع •

وواضح أن الغطاء البشرى فى مصر يؤلف ارسابة سميكة لا تكاد تكرر على رقعة مماثلة فى العالم • ومن المحقق أن زراعة الرى ، والرى الدائم خاصة ، تستدعى كثافة من السكان غير عادية مثلما تمكن لها • ومع ذلك فكما يلاحظ بومان، فانها وحدها ليست المسئولة عن كثافتنا الساحقة المفرطة ، فمثلها فى الولايات المتحدة لم يخلق مثل هذه الكثافة • (١٨) وانما يكمن الضابط الأخير فى الاطار الاقتصادى — الاجتماعى ولو كانت مصر ترتبط فى تقاليدها الاجتماعية بمستوى معيشى أعلى لكانت ثورتها الديموغرافية وكثافتها السكانية أقل بالتأكيد •

ولا يقل الريف الزراعى وحده اكتظاظا بالسكان • فاذا كانت الزراعة تمثل حياة ثلثى السكان فى مصر تقريبا ، أو نحو العشرين مليونا اليوم ، فالنتيجة أن كثافة الريف تتراوح حول ٧٨٥ نسمة للكيلو متر المربع ، وهو رقم غريب حقا • وينعكس افراط السكان الزراعيين فى تفتت الملكية الزراعية وقزميتها ، بل وقبلهما فى انتشار المعدمين من مستأجرين وأجراء ، وفى انخفاض مستوى الاجور والدخول والمعيشة الريفية ، ثم فى تفشى البطالة الموسمية والمقنعة والسافرة بنسب متفاوتة ، فبقدر ارتفاع انتاجية وحدة المساحة وقلة رأس المال فى الزراعة المصرية تمتاز بانخفاض انتاجية وحدة العمل مع شدة كثافة العمل فى نفس الوقت Labour-intensive حتى ليكاد يتحول العمل بصورة ما الى نوع من رأس المال •

كذلك تنعكس نفس الظاهرة فى طفح الريف المستمر الى المدن وفيما تلفظه الزراعة من قوة العمل الى الصناعة وغيرها من الحرف الاخرى ، دون أن يتأثر انتاجها هى ، مما يدل على أنها من قبل خزان عمل متخم الى درجة ما فوق التشبع

وقد ضرب كيلاند مثلا خطيرا منذ ١٩٣٦ على مدى افراط السكان الزراعيين من تجربة عملية أثبتت أن مجرد ترشيد وتنظيم الادارة الزراعية واستغلال قوة العمل والتوقيت — دون أى ميكنة — يمكن أن يعطى نفس الانتاج الزراعى بنحو خمس قوة العمل الراهنة ! (١٩) ومهما يكن من أمر ، فان من المؤكد أن ميكنة الزراعة ميكنة شاملة جديرة بأن تستلب الاغلبية العظمى من السكان الزراعيين مبرر وجودهم ذاته بكل بساطة ! وحسبنا أن نذكر أن كل قوة الزراعة فى الولايات المتحدة لا تزيد اليوم عن ٣ — ٤ ٪ من مجموع السكان !

واذا تركنا الزراعة الى سكان المدن ، فان الكثيرين — ونحن منهم — يعتقدون أن طفرة المدنية وتضخم المدن ، خاصة الكبرى ، ليس الا الوجه أو الجانب الآخر من افراط السكان الزراعيين ، حتى لتبدو المدن جزئيا كمجرد طفح الريف • فنسبة سكان المدن فى مصر الآن نحو الثلث (٣١٪ فى ١٩٦٠) ، وجزء كبير من هذا النمو الهام غير وظيفى بالقطع فى أكثر من معنى فعدا البطالة بأنواعها المختلفة ، فلعل الحرف غير المنتجة والغامضة أكثر فى المدن منها فى الريف كذلك — وكما قدر فى فرنسا — (٢٠) تعانى طوائف التجارة والخدمات ، بما فيها الادارة البيروقراطية من افراط سكانى مهنى محقق لا شك فيه • وقد قدرت البطالة فى مصر عامة ١٩٦٠ بنحو ٣٫٣ مليون نسمة •

أما عن مستوى المعيشة ، فاذا كانت دلالة اتجاه متوسط الدخل القومى غامضة لتطور الاسعار ، فان مستوى متوسط الدخل الحالى يعد منخفضا جدا بالنسبة للدول المتقدمة ، بل بالنسبة لأغلب الدول العربية ، البترولية وغير البترولية على السواء ، وكذلك يقصرون الحد الأدنى الذى تحدده هيئة الامم المتحدة • كما أن هناك مقياس التغذية والصحة ، وهما واضحا الدلالة • وقد كان هناك من يعتقد — مثل المؤرخ الاقتصادى كروتشلى — أن مستوى معيشة الفلاح والمستوى العام للحياة هو خير الآن مما كان عليه فى القرن الماضى كما تدل سجلات الماضى (٢١) • ولكن الكثيرين يرون العكس ، وأن الأسعار زادت بوجه عام أكثر من الاجور • بل ذهب يونجفلايش الى

أن نفس مستوى المعيشة الادنى الذى كانت تكفله للأسرة الزراعية ٥ أفدنة فى عشرينات القرن الماضى يتطلب اليوم ١٠ أفدنة • (٢٢)

ويبقى فى النهاية عنصر الكفاية الذاتية الغذائية • وليست الكفاية الذاتية ، غذائيا أو غير ذلك ، هدفا قوميا كقاعدة عامة ، لا وليست هى دليلا قاطعا أو حتى دالا بالضرورة على افراط السكان ، ولكن مصر التى كانت حقل غلال روما قديما ، والتى كانت تكفى نفسها بنفسها من الحبوب حتى الحرب العالمية الثانية ، بدأت تتحول الى مستورد كبير للحبوب خاصة القمح بدرجة لا يمكن الا أن يكون لها مغزاها • فمع ضيق وثبات الرقعة الزراعية ، ومع توازن أطراف المركب المحصولى بحكم الضوابط الاقتصادية والأجرونومية ، ظل الانتاج الغذائى ينمو ببطء فى مواجهة الطفرة السكانية حتى تخلف عنها تماما •

ونحن الآن نستورد من القمح أكثر مما ننتج بنسبة ملحوظة ، ربما بنسبة ٦٠ : ٤٠٪ ، كما أن عجز الانتاج المحلى فى كثير من الغذائيات يزداد باطراد • والمقدر أن ما ندفعه ثمنا لهذه الواردات يكاد يعادل دخلنا من قناة السويس حاليا ، أى اننا بالفعل نلتهم محصول القناة بطريق غير مباشر ! وقد بلغت قيمة وارداتنا من السلع الاستهلاكية الغذائية فى ١٩٦٥/٦٤ نحو ١٢٣ مليون جنيه من مجموع الواردات البالغ ٤٠١ مليون جنيه بنسبة الثلث تقريبا (٣٠ر٦٪)، وكانت تلك القيمة تقارب فى الواقع قيمة العجز فى الميزان التجارى بين الصادرات والواردات والبالغ ١٣٦ مليون جنيه حينذاك •

وبصفة عامة فنحن نبتعد كل يوم عن الكفاية الذاتية الغذائية بدرجة مثيرة بالنسبة لبلد لا زال زراعيا أساسا • غير أن الكفاية الغذائية ليست مقياسا لافراط السكان ، وان كانت تؤكد ضغط السكان ،على الموارد وتقوى بذلك الشبهات التى تثيرها المقاييس الاخرى •

والسؤال الآن : افراط سكانى ؟ وهو سؤال قديم ، وكان دائما قضية خلافية • فثمة قلة أنكرت أن السكان أكثر مما تحتمل الموارد ومما



ينبغى ، كما فعل كروتشلى الذى يقول انه اذا كان المقصود بافراط السكان اتجاه مستوى المعيشة نحو الانخفاض ، فليس بمصر افراط (٢٣) ومثله يفعل نصيف الذى يرى - كالكامراليين - الثروة فى السكان ، ولو أنه يكاد يتراجع عن موقفه فى النهاية (٢٤) •

ولكن الأغلبية العظمى من الكتاب تعتقد - مع ومنذ كليلاند خاصة - بالعكس تماما ، وأن مصر تعانى من افراط السكان بدرجة أو بأخرى • فقبيل الحرب الثانية قدر كليلاند أن أنسب السكان لمصر لا ينبغى أن يتعدى ١٢ مليونا ، وأن الانتاج الزراعى كان فى حالة تكافؤ معقول مع السكان حوالى ١٩١٤ ، وبعدها بدأ افراط السكان بالنسبة للموارد حتى وصل الزائد الفائض الى ٥ ملايين فى ١٩٣٩ • (٢٥) ويأخذ عيسوى موقفا أكثر تحفظا ،فيميز بين ثلاثة أنواع من افراط السكان : تنظيمى - حين لا يحسن استغلال الموارد والطاقات ، تكنيكى - حيث يؤدى ادخال المخترعات التكنولوجية الى عدم الحاجة الى جزء من السكان ، مطلق - حين يزيد عدد السكان عن كل موارد البلد اطلاقا • ثم يرى ان

النوعين الأولين تعرفهما مصر حقا ، أما عن الافراط المطلق فهو يرى أن كل شيء في مصر يتوقف على سعر القطن في الخارج ، ومع هذا السعر تتذبذب أبدا نقطة الأنسب عندنا • (٢٦)

ولا شك أن عناصر الموقف قد تغيرت كثيرا منذ الثورة عن طريقين ، الاشتراكية والتصنيع ، مما يحتاج الى اعادة النظر في الحكم من جديد • ويقدم لنا شيروشى ناسو مفتاحا للحل (٢٧) • فهو يميز بين نوعين من افراط السكان : المالثوسي والماركسي ، وهما ليسا مرادفين تماما لزراعي وصناعي أو لغربي وشرقي • وانما يوجد افراط السكان المالثوسي حين وحيث يوجد اختلال جذرى بين الموارد والسكان كنتيجة لخطأ في العلاقة بين الانسان والبيئة نفسها ، أما الماركسي فحين وحيث تكفي الموارد الكلية ولكن يفسدها عدم عدالة التوزيع بين السكان، اى انه ينشأ من خطأ في العلاقه بين الانسان والانسان • ومن المؤكد أن مصر كانت تعانى من افراط السكان الماركسي قبل الثورة • ولم يكن ذلك بالشيء اليسير اذا تذكرنا أن نحو نصف في المائة من السكان كان يحصل على نصف الدخل القومي كله تقريبا ، بمعنى أن مستوى الدخل الحقيقى ومستوى المعيشة الفعلى للسواد الأعظم من السكان كان نصف المتوسط القومي الشكلي • ولما كان هذا في ١٩٤٥ يعادل ٢٧ جنيها ، فان متوسط الدخل الحقيقى للشعب كان في حدود ١٤ جنيها للفرد • وهذا وحده يكشف عن بشاعة الموقف الحقيقي كما كان في ظل الاقطاع • لقد كانت جغرافية السكان في جوهرها وأغلبها فصلا ضخما في « جغرافية الجوع » اذا استعرنا تعبير دى كاسترو ، وكان السواد الاعظم من السكان يعيش قريبا من «خط الفقر » أو عليه ، وربما وقع بعضهم تحته في منطقة خط الجوع ذاته • (٢٨)

غير أن المحقق أن الاصلاح الزراعي واعادة توزيع الدخل القومي عن طريق القوانين الاشتراكية وتقارب الدخول وتذويب الفروق بين الطبقات ، قد استبعدت افراط السكان الماركسي من مصر ، لا نقول تماما ولكن في معظمه • ويبقى الافراط المالثوسي مدار السؤال • ولا شك أن مصر ما قبل الثورة قابلت النذر المالثوسية وجها لوجه ابان الحرب الثانية وبعدها كما تدل كارثة الملاريا أثناءها ووباء الكوليرا بعدها ، وكل استمد فاعليته في الحقيقة من الفقر الذى وصل بالكثيرين الى حد سوء التغذية المزمن ولا نقول المجاعة • وقد كان الاقطاع يلجأ دائما ، عندما توشك السكان أن تواجه الموانع المالثوسية بصورتها الخام الكالحة ، يلجأ الى المسكنات والمهدئات المؤقتة لتفادى الكارثة ، ولكن الاختلال الرهيب كان يستفحل باطراد • بل لقد نمى الاقطاع لنفسه كما عبر البعض عبقرية نادرة - عبقرية الحلقة المفرغة - في حل المشكلة بخلق مشكلات أخرى ، وكان الحل الأخير لمشكلة السكان هو ببساطة تخفيض مستوى المعيشة بانتظام (٢٩) والواقع أن التحول من الرى الحوضى الى الدائم - الذى كان ينبغى نظريا أن يرفع مستوى معيشة الفلاح - قد انتهى على يد الاقطاع الى أن يكون تحولا من مجاعات دورية الى جوع مزمن (٣٠)

ولا جدال أن الوضع اليوم بعيد عن خط الفقر ، فضلا عن خط الجوع • ولكن أنسب السكان - يقينا - ليس « أنسب علف » كما يقول الاقتصادى روبنز (٣١) ، وليس من المعقول ان يكون الجوع المباشر هو المقياس الاخير لافراط السكان ، والا لكانت فكرتنا عن أنسب السكان أقرب الى « أسوأ السكان » • ومن هذه الزاوية فنحن نرجع أن مصر لا تزال تعانى اليوم من افراط السكان - المطلق بتعبير عيسوى ، والمالثوسي بتعبير ناسو - وان يكن بدرجة قد تقل عما قبل الثورة • والمحك في النهاية سؤال وحيد هو : هل اذا نقص سكان مصر اليوم بطريقة أو بأخرى ، ينخفض مستوى معيشة الباقى أو يزيد ؟ ويكاد يكون الرد المؤكد أنه يزيد ، بينما أن الانتاج القومى لن يقل • وهناك اذن نسبة من سكاننا زائدة وفائضة عن طاقة - وحاجة - مواردنا ، ولكن ليس من سبيل الى معرفة حجم هذه النسبة بالضبط ، وكل ما نعرف أنها ستظل تزداد باستمرار ما لم يتغير الموقف كلية •

ومن الضرورى أن ندرك أن هذا الفائض انما هو حصيلة تراكمية أساسا من ارث الماضى الاقطاعى وعمله ، وأن الحل ليس اقتصاديا

فحسب بل وتاريخى كذلك ، ليس استاتيكيا فقط بل وديناميكى أيضا • واذا نحن حللنا الموقف فى اطاره الحضارى العريض ، فلن يخرج عن صيغة الفارق الحضارى Cultural lay الذى حدث فى تطور مصر الحديثة • فصميم الأمر أنه منذ أوائل القرن الماضى حدثت ثورة اقتصادية فى الانتاج والموارد خاصة الزراعة ، ولكن دون أن تصاحبها ثورة اجتماعية فى توزيع الدخل ونشر العدالة الاجتماعية وتطور التعليم • بل لقد تخلفت الثورة الاجتماعية (١٩٥٣) عن الثورة الاقتصادية (١٨٢٠) أكثر من قرن وثلث قرن فى الواقع ، وكان على « ثورة » يوليو أن تحل الارث المتراكم منذ « انقلاب » محمد على •

ومع ذلك فان انفجار السكان فى العقد الأخير قد ضاعف من هذا الفائض وهذه التركة بمعدل الربح المركب • فان اعادة توزيع الملكية الزراعية والدخل القومى الى جانب التصنيع قد أحدثت موجة رخاء ورواج لا شك فيها بين شرائح عريضة من السكان ، ولكن موجة الرواج تحولت من أسف الى موجة زواج ، وتحولت اعادة توزيع الدخل الى زيادة معدلات الاستهلاك الى درجة الأزمة الحقيقية وتغلبت خصوبة السكان على خصوبة التربة • بل ان موجة الهجرة الى المدن — والمدن « آكلات الانسان mangeuses des hommes كما وصفت لما تخفض من معدل المواليد (٣٢) — لم تغير من السلوك البيولوجى لأغلبية الريفيين المهاجرين (وان نقلتهم — بالمناسبة — من مستهلكى ذرة الى مستهلكى قمح ، أى أن كل ما فعل التمدين أنه لم يخفض المواليد ولكنه عقد مشكلة الحبوب الغذائية) • ونكاد لهذا كله أن نقول ان افراط السكان الماركسى الذى صفته الثورة قد حوله معدل المواليد الى حساب افراط السكان المالثوسى ولحسابه ، وهو الافراط الأصعب حلا ! بل كدنا نضيف أن الثورة السكانية باتت تتهدد الثورة الاشتراكية بكل جهودها الضخمة الى حد أن وصفها البعض — مجازا — بمثابة « ثورة مضادة » ، صامتة غير واعية وغير مقصودة بطبيعة الحال !

وعند هذا الحد يرد على الذهن تشبيه جوليان هكسلى الشهير عن النمو السرطانى • فهو يتساءل عما هو السرطان ان لم يكن نموا شاذا مرضيا متضخما مدمرا فى خلايا الجسم ، ثم يتساءل — وبحق يتساءل — عما هو افراط السكان ان لم يكن نموا شاذا مرضيا متورما فى أحد عناصر المركب البيئى يهدد كل خلاياه بالتخريب والتلف ويهدد التوازن الايكولوجى الدقيق فيه بين العالم العضوى بالاختلال الخطير • وليس فى التشبيه غلو أو اسراف فيما يبدو ، وعلى الاقل فان افراط السكان المعربد ان لم يكن ورما خبيثا فهو — ولا يهم بعد ذلك ان كان حميدا — ورم على أية حال •

وان قليلا من التفكير ليهدينا الى أن افراط السكان أصبح عبئا حقيقيا على تنميتنا الاقتصادية وانه يحد كثيرا من مرونتنا وحريتنا فى التخطيط والحركة • فعدا خطر الاستهلاك الداخلى كالبالوعة وعجز الادخار الشديد ، والانفاق الخطر على استيراد الغذائيات على حساب امكانيات التصنيع والضغط المستمر على موارد التربة الى حد الاستنزاف ، هناك أخطار السياسة العالمية والديموغرافيا العالمية •

فاذا كان ضبط النيل قد حررنا من ذبذبات النهر العشوائية ، واذا كان تنويع الانتاج يحررنا من ذبذبات سوق القطن العالمية ، فان افراط السكان يهدد الآن بأن يضعنا تحت رحمة ضغوط السياسة العالمية التى تتخذ من القمح الآن سلاحا تعسا للحرب الاقتصادية • كذلك فان اتجاه ديموغرافية العالم يجعل المستقبل خطرا ، حيث يسبق نمو سكان العالم نمو انتاج الغذاء ، فتزداد المنافسة على سوقه التى تضيق باستمرار •

ان افراط السكان عندنا يمكن أن يتحول الى نقطة سوداء فى كياننا مستقبلا ، ويمكن لضغوطه المتزايدة ان لم تكبح أن تحرق كثيرا من شخصية مصر المتطلعة الى الاستقلال الاقتصادى المطلق والانطلاق فى مدارج التنمية الاقتصادية والقوة السياسية • لقد تحررنا من الاستعمار القديم استعمار القطن ، ويجب الآن ألا يضعنا افراط السكان تحت رحمة الاستعمار الجديد استعمار القمح • لقد سبق أن وضع افراط القطن « مصر افريقيا » تحت رحمة « مصر أمريكا » (كما قيل عن نطاق القطن فى الولايات المتحدة) ثم تحررنا بشق النفس ، وليس ينبغى لافراط السكان اليوم

ان يضع حقل قمح روما القديم تحت قبضة نطاق القمح الامريكي الجديد ٠٠ فى كلمة واحدة : لقد أصبحت كثافتنا هى قدرنا

our density is our destiny

وعند هذا الحد من المناقشة ، يمكن أن نرى أين تضعنا صورتنا ومشكلتنا السكانية من الاطار العالمي ٠ فهنـاك بعض نواحي من تشـابه فى السكان وغير السكان بين مصر فى افريقيـا وكل من اليابان فى آسيا وبريطانيا فى أوربا ٠ فـكل منها جزيرة ـ فعلا أو مجازا ـ على تخوم وأطراف قارة ، وكل منها تمتاز بانهـا « جزيرة جيب » تعاني من المساحة المحدودة ، وكل منهـا تحمل كتلة بشرية ضخمة كثيفة تكاد تعد أكثف أو من اكثف ما فى قارتها ٠ وكل منها تحكم سكانه ، نموا وتوزيعا ضوابط جغرافية محددة تختزل فى معادلة سكانية قوية شديدة الوضـوح : فثمة فى بريطانيا معادلة : الفحم : الصناعة : السكان ، كان يقابلها فى اليابان تقليديا معادلة : المطر : الأرز : السكان (٣٣) بينما تخضع مصر لمعادلة : الري : القطن : السكان ٠

ثم ان كلا من ثلاثتها لا يعرف أو لم يعد يعرف الكفاية الذاتية الغذائية ويعتمد على الاسـتيراد بدرجة أو بأخرى ٠ وكل منها كان أسبق قارته الى الانقلاب الصناعى والاخذ بالحضارة الحديثة ، وهو أكثر قارته قوة وتطورا ٠ كما أن كلا منها كان أسبق قارته الى الثورة الديموغرافية وسجل أكبر رقم قياسي فى معدلها ٠ وكما أخرج الانقلاب الصناعى بريطانيا من النظام الاقطاعى ، صـفت الحرب الاخيرة فى اليـابان آخر بقايا نظامها الاقطاعى العتيق ، وكانت الثورة هى التى وضعت نهاية العصر الاقطاعى فى مصر ٠

والفارق الجوهرى بين النظائر الثـلاثة هو الفارق الزمنى والتوقيت ٠ فعلى أساس الصناعة والتصنيع سبقت بريطانيا فى كل مجـال منذ الانقلاب الصناعى ، وتختلف انطلاقة اليابان الى أواخر القرن الماضى ، ولم تبدأ مصر التصـنيع حقا الا بعد منتصف القرن الحالى ٠ ولكن فيما عدا هذا فالتطور السكانى فى الجميع يشير الى منحنى واحد أساسا ، وانمـا يختلف موقع كل منهـا عليه ٠ فبريطانيا دخلت مرحلة الاسـتقرار بعد الانفجار والانطلاق فى النمو السكانى منذ عهد بعيد حوالى دورة القـرن ، ولم تعـد تتزايد الا طفيفا ٠ أما اليابان فقد ظلت حتى منتصف القرن فى مرحلة الانفجار الخطر العارم وعرفت مشكلة السكان كأشد ما يكون ، ثم ما لبثت أن دخلت مرحلة الاستقرار والثبات وانخفاض المواليـد ٠ أما مصر فتختلف عن الاثنتين كثيرا ، فهى على قمة مرحلة الانفجار والانتقال بعد أن بدا أنهـا الى هبوط واعتدال نسبى ٠ غير أن الفترة الحالية من تاريخنا ووعينا السكانى تشبه ارهاصات الفترة التى عرفتهـا اليابان فى أعقاب الحرب الماضيـة وعلمتها ضرورة ضبط النسل ٠

هى اذن ثلاثية سكانية متقارنة الملامح فى معنى أو آخر ٠ والتشابه بين بريطانيا واليـابان أمر معروف ، ويمتد الى أبعد من النواحى السكانية وحدها ، حتى ليقـال بحق ان « اليـابان هى بريطانيا الشرق الأقصى »٠وقد يصح لنا بدورنا أن نضيف الى هذا التشبيه أن مصر هى اما يابان افريقيا أو بريطانيـا الشرق الأوسـط » دون أن نقصد بذلك تشابها ، فضلا عن تماثل ، فى أكثر من جوانب بعينها فى الوضع والتطور السكانى ٠

نحو الحل

وبعد ، فما الحل ؟ بغير مقدمات مطولة ، ثمة طبقات أربع من الحلول لمشكلتنا السكانية : اعادة توزيع الدخل القومى ، زيادة الدخـل القومى ، الهجرة ، ضبط النسل ٠ والأول والثانى يمثلان جانبى الانتـاج والتوزيع ، والأول والثـالث يشتركان فى أنهما اعادة توزيع أساسا ، بينمـا يشترك الثانى والرابع فى أنهمـا اعادة تحديد أحجام ٠

وواضح أن اعادة توزيع الدخـل القومى هو أوليات الحل الاشـتراكى ، ولذا يدخلنا فى فلسفة الاشتراكية السكانية مباشرة ٠ وقد كان الاصـلاح الزراعى واعادة توزيع الارض أولى انجازات ثورة يوليو ، ولا شك أنها قطعت شوطا هاما فى سبيل حل أو تخفيف مشكلتنا السكانية واذا كانت اعادة توزيع الدخل قد رفعت مستوى المعيشة لملايين من الفلاحين والعمال بالتأكيد ، فقد رأينـا كيف انعكس هـذا بمزيد من تكاثر السكان من ناحية ، وطفرة الاستهلاك واستيراد الغذاء من ناحية أخرى ٠ غير أن الناحية الأخيرة

تستدعي وقفة استدراك . فرغم كل أخطارها ، فهي لا تعدو في الحقيقة انهـــا اســتبدال لنمط استهلاك واستيراد جديد وصالح بنمط استبدال واســتهلاك قديم وفاسد . فالثمن الذي ندفعه اليوم في استهلاك الحبوب والغذاء لسواد الشعب هو في جوهره نفس الثمن الـــذي كان الاقطاع القديم يســـلبه من الشعب ويدفعه في استيراد قائمة الكماليـــات الترفيهية الطبقية لحســـابه الخاص . وهو بهذا خطوةاشتراكية ، وخطوة الى الامام (٣٤) .

وأيا ما كان ، فان لامكانيـــات اعادة توزيع الدخل حدودها التي يحكمهـا الحرص على عدم تفتيت الملكيات الى ما دون الحد الاقتصادى للانتاج وأهم من ذلك ضآلة المساحة الزراعية في البلد أصلا . وقد قدر أن اعادة توزيع الملكية كلهـا تماما لن تخرج في النهاية عن اعادة توزيع الفقر أو المساواة في الفقر .. بمعنى آخر ، فان الحل الاشتراكي البحت غير كاف وحده لمواجهة مشكلة السكان .

وهنا نصطدم بالفلسفة الاشتراكية في السكان فللماركسية نظرية ثورية برمتها في علم السكان ترفض أولا مجرد فكرة أنسب السكان أو افراط السكان في مجتمع طبقي ، فمثلها لا يمكن الحديث عنه الا بعد اعادة توزيع الدخل تماما . ومن ثم فليس هنـــاك ثورات ديموغرافية ، ثمـــة فقط ثورات اجتماعية (٣٥) وبعد هذا وأخطر من هذا فانالماركسية تقول ان «افراط السكانمستحيل» على الاطلاق والى الابد في المجتمع الاشـــتراكي الكامل ، وذلك بغير الهجرة وبغير ضبط النسل ولهذا فان الماركســـية من أكبر أعـــداء مالثوس والمالثوسية الحديثة معا .

غير أن موقف الماركسية هنــــا لا يخلـــو من غموض ، فالبعضيفهمه علىأنه ينفي امكان حدوث افراط السكان الى الأبد ، والبعض الآخر يرى أن ماركس لم يقل أبدا أن مشكلة افراط السكان لن تواجهها الشيوعية يوما ما .

ومهما يكن ، فليس من الواضـــح ماهيـــة الميكانيزم الذييستبعد افراط السكان منالمجتمع الماركسي (٣٦) . ولهذا يرىالبعض أن الماركسية قد تكون نجحت في تحطيم النظرية الكلاسيكية في السكان ، ولكنهـــا لم تنجح في اقامة بديل بها . ومن الناحية الاخرى فان التجربة الفعلية للاتحاد السوفيتي ثم للصين الشعبية عادت اخيرا بعد فترة تعاول طويلة الى قبول تحديد السكان وضبط النسل . ومن الواضح لهذا كله اننا في مصر لا يمكن ان نترك حل مشكلتنا الســـكانية المثقلة معلقة على نظرية غير قاطعة اكاديميـــا وهجر أصحابها عمليا .

ويمكن ان نعرض للهجـــرة بنفس المنطـــق والاقتضاب . فاقتراحات تهجير المصريين ليست جديدة ، وكثيرا ما تراوحت بينالسودان والعراق وسوريا ، واحيانا بين الحبشة والعالم الجديد في امريكا اللاتينيـــة . كذلك تراوحت تقـــديرات الفائض الذي يهجر من ٤ ـ ٥ ملايين أي بنسبة ٢٠ ـ ٢٥ ٪ من مجموع الســـكان حينذاك عند كليلاند ، الى مليونين عنـــد وارينر (٣٧) ومن المرجع أن مشاكل الهجرة الخارجية المألوفة لا محل للخوف منها هنا . فبالحجم المناسب ، لن تؤثر في حجم الانتاج القومي ـ فهذا محور سلامة اقتراح الهجرة أصلا . ثم انهـــا لن تؤدي الى الاقفـــار الاقليمي أو الاقفار بالقرى كما عرفت ايطاليا مثلا ولن ترج الاقتصـــاد القومي بالعـــرض الفجائي لعقارات المهجرين ، ببساطة بسبب الفقر السائد بينهم . كذلك فان مشـــاكل التـــأقلم ليســـت جديدة (٣٨) ومن ناحية أخرى ، فان توزيع بضعة ملايين من المصريين على البلاد العربية التي تعاني من تفريط السكان underpopulation لا يفيد الانتاج في هذه البلاد فقط ، بل ويمثل أداة سياسية وحدوية بالغة الأهمية والخطورة ان لم يكن الضروري ، فهي تدعم الوحدة المنشـــودة وتجانس العروبة ، كما تحد من ضخامة مصر في الاتحاد المرموق وتقرب من أحجام الجميع بدرجة ما ، مما يبـــدد مخاوف البعض ـ حقيقيـــة أو موهومة ـ من «سيطرة» مصر على الاتحاد كمـــا يقولون .

ومع ذلك كله فأغلب الظن بل الظن كله أن الهجرة حل خيـــالي أكاديمي بحت في الظروف الحاضرة وفي المستقبل المرئي . فعدا ما تتطلبـــه من تنظيم وتحويل حكومي ضخم جدا ، وعدا رغبة المصريينعن الهجرة، وعدا حدودامكانيات التشبع السكاني في المهاجر المقترحة ونمو أبنائها الذاتي، وعدا التمويل الأضخم اللازم لاعداد المهاجر ، فان

المناخ السياسى والوعى السياسى لم ينضجا بعد فيما يبدو لتقبل مثل هذا الحل ، والأمر يحتاج الى فكرة جديدة تماما. وسيكون على مصر الواقعية أن تفكر فى حلول محلية بحتة - على الأقل فى المدى القريب .

وأول هذه الحلول المحلية هو زيادة حجم الدخل القومى ، أى التنمية الاقتصادية . ومن المهم أن نؤكد هنا أن الانتاج الاقتصادى ليس معطيات صماء من الطبيعة ، بل هو أساسا حاصل ضرب الموارد الطبيعية فى المهارة الانسانية . وتعبير الموارد الطبيعية نفسها غير دقيق ، فما هى الا تقييمات حضارية كما يقول كارل ساور. وبمعنى آخر : ليس ثمة موارد طبيعية resources ثمة أساسا مواهب انسانية resourcefulness وعلى أبناء مصر أن يسخروا كل مواهبهم حتى تسخر مصر لهم كل مواردها .

ومن هذا المنطلق ، نجد سجلا مشرقا لمصر الثورة . ففى مجال الأرض الزراعية ، بعد أن كنا لنصف قرن لاتزيد المساحة المزروعة الا بضعة آلاف من الافدنة على الأكثر كل سنة ، قطع توسع السد العالى من قبل شوطا طيبا . والمشروع يحول ٧و. مليون فدان من زراعة الحياض الى الزراعة الدائمة فى الصعيد ، ويستصلح للزراعة ١ر٣ مليون فدان فى برارى الدلتا . والمقدر بعامة ان المساحة الزراعية سترتفع من نحو ٦ ملايين فدان الى ١ر٧ مليون ، وبالتالى ترتفع المساحة المحصولية من ٤ر١٠ الى ٣و١٣ مليون فدان . بل يقدر البعض أن المساحة الزراعية قد تصل فى النهاية الى ٩ ملايين فدان ، أى بزيادة ٥٠٪ عن المساحة الحالية لتكون ثورة زراعية جديدة حقا .

غير أن المقدر أن نمو السكان سيظل يلاحق مكاسب السد العالى . ففى ١٩٧٠ سينخفض متوسط نصيب الفرد من كل من المساحة المزروعة والمحصولية عما هو عليه الآن ! أى أن نمو السكان كما يبتلع الآن دخل القناة - أو ما يعادله - فى استيراد الغذاء ، فانه كفيل بأن يبتلع مكاسب السد العالى هو الآخر رغم ملحمته التاريخية . وهذا وحده دليل على أن التنمية الاقتصادية وحدها ليست الرد النهائى على زحف السكان الغامر .

ودرس آخر يعلمه لنا السد أن امكانيات التوسع الأفقى فى مصر محدودة فى النهاية بحكم طبيعة النمط البيئى . وبعد عقد واحد سنكون قد وصلنا الى « نهاية العالم » بالنسبة لنا والى أقصى آفاق بيتنا الجغرافى .

وستغلق بهذا آخر كوة أو طاقة أرضية تبقت لنا . قبل السد العالى كانت المشكلة المباشرة هى قلة المياه لا قلة الارض الصالحة للزراعة . بلغة الايكولوجيين : كانت المياه هى العامل المحدود limiting factor والارض العامل المسيطر master factor أما بعد السد فسندرك سريعا أن المشكلة النهائية لن تكون المياه بل الأرض ، ستكون المياه هذه المرة هى العامل المسيطر فى المدى المباشر ، والأرض العامل المحدد فى المدى الأخير . وهنا نرى أن أمل مصر الحقيقى والاخير لا يرقد فى التوسع الأفقى بقدر ما يكمن فى التوسع الرأسى . بل بعد هذا وأبعد من هذا ، سنرى أنه لا يكمن فى الزراعة ذاتها بقدر ما يكمن فى الصناعة . وهو فى الكل لا يتحدد بالكم بقدر ما يتحدد فى الكيف .

ومعنى هذا أن السد العالى على اعجازه - ليس آخر كلمة فى كياننا الزراعى. فهناك مجال لترشيد وتخطيط الانتاج حتى نصل الى الانتاج الأكثف والأمثل . فلابد بعد ثورة الرى من ثورة الصرف، فما دام ثمة رى صناعى فلابد من صرف صناعى كذلك . كذلك لابد من تثوير مركبنا المحصولى ضمانا لأقصى أربحية . فاذا كانت صيغة تطورنا الزراعى الحديث هى « من الحبوب الى الالياف from food to fibre » ، واذا كنا لم نعد نملك ولايمكن أن نملك الكفاية الذاتية

فى الغذاء ، وكان القطن لا يزال « ملكا » فان كلمة الدليل الى المستقبل قد تكون « من الألياف الى البساتين » ، بحيث تصبح مصر ، التى كانت مزرعة لانكشير ، حديقة افريقيا وكاليفورنيا أوربا كما يتخيل البعض .

الى هذا الحد اذن يمكن للموضع فى مصر أن يتكثف ويتعمق . ولكننا فى هذا قصرنا الحديث على الزراعة والوادى . غير ان لامكانياتنا ابعادا وأعماقا أخرى لاتقل خطورة . ان مصر لم تكن قط ولا يمكن أن تكون « دولة معادن » ، ولكن صحراءنا قد برزت وجودها أخيرا بفضل الكشف العلمى المخطط . فعدا أرصدة معقولة من الفوسفات والحديد وبعض الفحم ، يبدو أن مصر على أبواب ثورة بترولية مذكورة ، وأنها ستتحول من « دولة زراعة بلا بترول » الى دولة من « دول الزراعة والبترول » .

ومعنى هذا جميعا أننا بعد أن كنا نعتمد على موارد السطح وحدها ، أضفنا الموارد الباطنية ، أى بعد أن كنا نعيش على موارد الجغرافيا أضفنا موارد الجيولوجيا . وبذلك ازدوجت قاعدة بنائنا المادى وأصبحت « ذات طابقين » كما يقال .

هذا عمقا تحت الزراعة ، ولكن ارتفاعا فوقها يأتى طابق أو بعد ثالث وشاهق ليمنح كياننا صلابة لم يعرفها من قبل ويعطى سكاننا طاقة رحبه . انها الصناعة وقد سجلت الصناعة أعظم نمو شهده الاطار القومى المعاصر فمن ٧ر٨٪ من قيمة الدخل القومى فى ١٩٥٠ ، ارتفعت الصناعة الى ٣ر٢١٪ فى ١٩٦٠ — أى أكثر من تضاعفت فى عقد ، ولا زالت توالى صعودها . والخطة العشرية التى كانت تهدف أصلا الى مضاعفة الدخل القومى بين ١٩٦٠ — ١٩٧٠ ، تهدف داخليا الى أن تقلب الحصص النسبية لكل من الزراعة والصناعة فى الدخل القومى بحيث تكون ٥ر٢٤ ٪ للزراعة مقابل ٣ر٣١٪ فى الصناعة . فاذا تم هذا فلا مفر من أن نقول حينئذ ان مصر الزراعية قد تركت مكانها لمصر الصناعية نهائيا والى الابد .

على أننا الآن « دولة صناعية » بمعنى ما ، وان ظلت الزراعة الاساس . وقد تطور هيكل الصناعة جذريا ، فشملت معظم فروع الصناعة الخفيفة لا سيما النسيجيات حيث تصنع ثلث محصول القطن وصولا الى الهدف الكبير « من الالياف الى المنسوجات from fibre to fabric كذلك فقد اقتحمت مصر الصناعة الثقيلة ، وعرفت الاسواق الخارجية ، وان كانت تستهدف أساسا اشباع الاستهلاك المحلى . وطبيعى أن يظل دور الصناعة فى العمالة محدودا (٦ر١٠٪ فى ١٩٦٠) لأن الصناعة تكنيكيا — كثافة حيث الزراعة مساحة . والصناعة لا تحل مشكلة العمالة أساسا ولكنها بالتأكيد تحل كثيرا من مشكلة السكان بدخولها المرتفعة .

تلك هى الملامح الرئيسية والأركان فى تنميتنا الاقتصادية وامكانياتها . غير أن المتفق عليه أنها وحدها فى النهاية لن تحسم مشكلة السكان كلية ، اذ ان هذه ارث متراكم ، فضلا عن انها مشكلة دنياميكية لا تكف عن النمو مع كل حل تجابه به وقد أصبحت مشكلة السكان تحديا خطيرا لا لمواردنا الطبيعية فحسب بل ولمواهبنا البشرية كذلك . والتنمية الاقتصادية مطلب وضرورة أساسية ، وهى جديرة بأن تغير وجه مصر وشخصيتها فى المدى البعيد لتضعها فى المكان اللائق بها تحت الشمس . ولكن وجه مصر ومكانتها تتوقف كذلك على الحل الجذرى لمشكلة السكان التى لا مفر من أن نعترف أنها تكاد تشوه وتحرف شخصيتها . وهذا ما ينقلنا الى الحل الاخير ، ضبط النسل .

ولضبط النسل أعداء رومانتيكيون تقليديون ، يجمعون — للغرابة — ما بين أشد العناصر تطرفا فى الدين كالكاثوليك ، وبين أشد العناصر بعدا عنه وهم الماركسيون ! وفى مصر لم نعدم دعاة متحمسين لتكاثر السكان ، بل عرفت مصر — على تصغير ومتأخرا — مشادات كالمشادات الديموغرافية التى عرفتها أوربا منذ مالثوس . فالجدل المالثوسى تكرر فى مصر فى الثمانينات الماضية بين روسى بك داعية التكاثر المتفائل على مذهب جودوين ، وبين كولوتشى باشا Colocci «مالثوس مصر» كما سمى . وفيما قبل الحرب الاخيرة كان كليلاند — أول داعية للمالثوسية الحديثة — هو برادلاو مصر ، وكما حوكم برادلاو حورب كليلاند . ولكن المالثوسية الحديثة وجدت مدرسة كاملة من الانصار بين العلماء والمثقفين المصريين . غير أن نكسة المالثوسية البادية خلال « القرن العجيب » — القرن التاسع عشر —

انعكست على مصر ببعض دعوات الى نمو السكان . فرأينا من يدعو مصر قبل الحرب الثانية الى النمو حتى ٣٠ مليونا ، بل حتى ٥٠ مليونا ! (٣٩) ومثل هذه الدعوات رجعة ساذجة الى «كامرالية» القرن الثامن عشر التى كانت ترى ثروة الأمم فى السكان .

غير ان مثل هذه الدعوات غير المسئولة اختفت اليوم مع خطورة الموقف وجديته . وصحيح أن كل طفل يولد بفم واحد ولكن بذراعين اثنتين ، وصحيح أن على كل جيل أن يحل مشكلته ويترك المستقبل آملا أن تحله الأجيال القادمة بعلمها الاكثر تطورا (٤٠) ، ولكن من الصحيح ايضا أن كل فم يولد «يعمل» طويلا قبل أن تعمل ذراعاه ، وأن جيلنا ورث مشكلة الأجيال السابقة ، ونحن بالتأكيد نسيىء الى الأجيال القادمة اذا تركنا لهم المشكلة مضاعفة وصحيح كذلك أن هناك « ضوابط النسل الاجتماعية » التى تتمثل فى التعليم ورفع مستوى المعيشة والتطور الحضارى والاجتماعى وغيرها من العوامل غير المباشرة ، أو كما قال كليلاند « علم أنت الفتاة المصرية ، وسيرعى معدل المواليد نفسه بنفسه » ، (٤١) وهناك بالفعل دلائل على تباطؤ وانخفاض نسبى فى الخصوبة الحقيقية للمرأة المصرية ، كل هذا صحيح ، ولكن هذه ضوابط بطيئة الحركة والمفعول . والمشكلة تسبقها دائما ، بل ان هذه الحلول أصبحت هى نفسها شبه معطلة أو مشلولة بسبب فداحة المشكلة فى ذاتها . وقد رأينا مثلا كيف ان التمدين لم يخفض معدل مواليد المهاجرين من الريف .

لا مفر اذن من « ضوابط النسل البيولوجية » لأنها وحدها السلاح الحاسم السريع . وهو اذا كان يصطدم بالتقاليد والأمية ، الا أن الشائع هو أن الدين مشكلته . وهنا وجه الخطأ والغرابة معا . فثابت أن الاسلام لا يمنع ضبط النسل اذا لزم ، بل قد يحث عليه حينذاك . ولسنا بحاجة هنا أن نكرر كل ما أفتت ورخصت به الهيئات الدينية الاسلامية المختلفة مرارا . ولعله ليس من الصدفة أن واحدة من أولى الدعوات الى ضبط النسل فى الاسلام ـ كلمة عمرو المعروفة مصر بالذات ! كذلك قد لا يعرف البعض أن أوروبا لم تعرف أدوات منع الحمل الأولية ـ الجراب Sheath and Pessary الا من العرب وعن طريق العرب ! (٤٢) .

وليس على مصر أن تخشى آثار ضبط النسل. فهناك فائض محقق لا سبيل الى ازالته فورا ، ولا بديل سوى تصفيته بالتدريج . ولن تعرف مصر يوما خطر تناقص السكان على غرار المثل الفرنسى ، فان أشد المختصين تفاؤلا لا يرى أن حصيلة ضبط النسل فى يوم ما ستنقص بالسكان عما وصلوا اليه الآن من حجم ، وقصارى أملهم أن تتناقص الزيادة المضافة لا أكثر . وصحيح أن ضغط السكان كما قال هربرت سبنسر من حوافز الحضارة الضاغطة ، ولكن من الصحيح كذلك أنه اذا زاد عن الحد يمكن أن يكون من عوائق الحضارة الساحقة والوائدة . كذلك لا وجه للخوف على قوة مصر العسكرية من ضبط النسل ، فلا علاقة حقيقية بين «الأنسب العسكرى » « وأنسب السكان » ، ولم تعد الحرب الحديثة ـ والعدو الاسرائيلى أقرب دليل ـ بالكاثر ، والا لما خلقت هذه الاسرائيل نفسها ! وانها لتكون سخرية حقا اذا عارض أحد ضبط النسل بزعم أنه يهدد ثلاثين مليونا فى مواجهة مليونين ! ونحن نكرر أن ليس بين الموضوعين أدنى علاقة فى حالتنا نحن بالتحديد. وأخيرا فانه يبدو من الغريب أن يدعو أحد الى سياسة « دعه يمر » فى السكان ، فى الوقت الذى يأخذ المجتمع والدولة بالتخطيط الاشتراكى فى كل مجالات الحياة. والمجتمع كله فى المركب البيئى وحدة واحدة من وجهة التوازن الايكولوجى ، وكل تغيير فى أى عنصر مهما تضاءل تستتبعه حتما تغيرات فى المركب كله ، وكل مولود جديد هو « تغيير » فى المركب يمكن أن يؤثر عليه وعلى توازنه . وليس من الاشتراكية فى شىء أن يترك معدل المواليد ظاهرة فردية بحتة ، وأن يترك لأى فرد حرية تهديد كيان المجتمع كله . وايكولوجية مجتمع السكان كله أشبه بايكولوجية ماء النهر نفسه : كل مضخة ماصة هنا هى بمثابة مضخة كابسة هناك ، وكل زيادة فى عدد السكان هى بمثابة نقص وانكماش فى مساحة البيئة . وليس سليما ولا منطقيا أن نمارس ضبط النيل ولا نمارس ضبط النسل ، فما هذا الا الوجه الآخر لذاك فى الحقيقة والمكافىء الموضوعى له . ولهذا فنحن وان كنا ندرك أن تخطيط النسل ـ

ككل التخطيط – ينبغي أن يعتمد أساسا على « التخطيط بالاقناع Persuasive Planning فربما استدعى الحال هنا أكثر من الاقناع ففى هذا المجال الخطير بالذات قد تلزم الروادع كاحتياطى أخير الى جانب الحوافز ٠

وبعد ، ان مناط القوة ومحك الحضارة اليوم انما هو الكيف لا الكم ، مستوى المعيشة لا حجم السكان ٠ ولن يخلص لمصر وجهها الحقيقى ولن تنطلق لتحقيق شخصيتها الكامنة الكاملة الا اذا تحررت من عبء الافراط السكانى الذى يشل حركتها ويثقل خطاها ٠ ولتكن ضبط النسل هى كلمة المستقبل ومفتاح الحل ٠ لتكن الحياة الجيدة» قبل « الحياة الجديدة » هى شعارنا الاجتماعى – البيولوجى منذ الآن ٠ واذا كنا قد رأينا أوجه تشابه سكانى بين مصر من ناحية وبين كل من بريطانيا واليابان من ناحية أخرى ، وأنهم يقعون فى النهاية على منحنى سكانى واحد شبه حتمى وان اختلفت مواقعهم منه تاريخيا ، فينبغى أن تكون تجربتهما ، وخاصة تجربة اليابان وهى لم تزل ماثلة للعيان ، درسا لنا ٠ فاليابان لم تجد حلا لمشكلتها السكانية سوى ضبط النسل، ولكن بعد أن مرت بأزمات خطيرة ، ما أغنانا نحن عن مثلها اليوم وان نحن أدركنا حتمية التاريخ وكان لنا من البصيرة ما نستبقها به ٠

(١) John A. Wilson, in before philosophy, Pelican, 1949, p. 40.

(٢) A.M. Carr-Saunders, World Population, Lond. 1930.

(٣) G. Hamdan, Studies in Egyptian Urbanism, Cairo, 1959, p. 5.

(٤) A.E. Crouchley, « A Century of Econ. Development », Egypte Contemporaine, 1939, p. 135.

(٥) A.B., lot By, Aperçu général sur l'Egypte, Paris, 1840, t. I, p. 170.

(٦) Rossi Bey, La Population et les Finances, Question égyptienne, Paris, 1878, p. 10.

(٧) جمال حمدان ، نمو وتوزيع السكان فى مصر ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ١٥ ٠

(٨) Krichewski, « Croissance de la Pop », Egypte Contemporaine, 1925, pp. 332-4 ; H. Azmi, « A Statistical Study of the Pop. of Egypt », Egypte Contemporaine, 1933, pp. 637-650.

(٩) Raymond Pearl, Growth of Population, Geneva Pop. Conference, 1927 ; Natural Hist. of Pop., Lond., 1939.

(١٠) G. Udny Yule, « Growth of Pop. and Factors which Control it », Jour. Roy. Statistical Soc., 1925, p. 7.

(١١) Sheppard and Richards, « Egyptian Cemeteries », Egypte Contemporaine, 1923, p. 123.

(١٢) M. Amer, Some Problems of Pop. of Egypt, Cairo, 1928, p. 21.

(١٣) Land and Poverty in Middle East, p. 46.

(١٤) مصطفى فهمى ، مجلة الاتحاد الطبى المصرى ، ١٩٣٧ ص ٩٩ ٠

(١٥) محمد على علوبه ، مبادىء السياسة المصرية – ١٩٤٢ ص ١٩ ٠

(١٦) A. Grittly, Structure of Modern Industry in Egypt, 1949, p. 576.

(١٧) اللجنة المركزية للاحصاء – الاتجاهات السكانية فى ج٠ع٠م – القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٦٩ وما بعدها ٠

(١٨) I. Bowman, Pioneer Fringe, N.Y., 1931, pp. 77-8.

(١٩) W. Cleland, Population Problems in Egypt, 1936, pp. 104-6.

(٢٠) A. Sauvy, « Progrès techniqu et répartition professionnelle de la Pop », Population, 1949, p. 322.

(٢١) « A Century of Econ. Development », loc. cit., p. 151.

(٢٢) L. Jungfleisch, « L'Agriculture égyptienne à la fin du XVIII siècle », Egypte Contep., Fb., 1919, pp. 135-6.

(٢٣) كروتشلى – السابق ٠

(٢٤) L'Egypte est-elle surpeuplé ?, Egypte Contemp., 1942, p. 768.

(٢٥) « A Population Plan for Egypt », Egypte Contemp., 1939, pp. 741 ff.

(٢٦) Charles Issawi, Egypt, A Social and Econ. Survey, p. 195.

(٢٧) Shiroghi Nasu, in Population, Lectures on Harris Foundation, Chicago, 1930, pp. 170-3.

(٢٨) Josué de Castro, Geog. of Hunger, 1952, p. 181.

(٢٩) L. James, « Population Problem in Egypt », Econ. Geog., April 1947, p. 104.

(٣٠) E. Hyams, Soil and Civiliation, 1952, p. 46.

(٣١) L. Robbins, Optimus Theory of Population, in London Essays in Econ., Lond., 1927.

(٣٢) J. Beaujeu-Garnier, Géog. de la Population, Paris, 1956, t. I.

(٣٣) Irene Taeuber ; Beal, in Demographic Studies of Selected Areas, Milbank Memorial Fund., pp. 5-7.

(٣٤) G. Hamdan, Population of Nile Mid-Delta, Thesis, Rading Univ., 1953, Vol. II, p. 337.

(٣٥) Pierre George, Intro. à l'étude géographique de la Population, Paris, 1951, pp. 70-5 A. Sauvy « Le Faux Problème de la Pop. mondiale », Population, No. 3, 1949, p. 454.

(٣٦) De Castro, op. cit., p. 25 ; F. Le Gros Clark, Four Thousand Million Months, Lond., 1951, p. 24.

(٣٧) وارينر – ص ٥١ ٠

(٣٨) Julius Isaacs, Economics of Migration, Lond., 1947, pp. 104-145.

(٣٩) كليلاند – ١٩٣٦ – ص ١٠٩ – فيليب شدياق ص ١٨٠ – عبد الواحد الوكيل ص ٢٣٣ – مجلة الجمعية الطبية المصرية – ١٩٣٧ ٠

(٤٠) Kenneth Smith, « Some Observations on Modern Malthusianism », Pop. Studies, July 1952, pp. 100-5.

(٤١) ١٩٣٦ – ص ١٠٩ ٠

(٤٢) Lewis Mumford, Technics and Civilization, Lond., 1946, p. 260.

مسح للقصة العربية

بقلم : عبدالحميد ابراهيم محمد

[٢] فى العصر الأموى

رأينا – فى البحث السابق(١) – ولع عرب الجاهلية بالقصة ، فقد عرفوا ألوانا عديدة منها ، فمن قصص تحكى حول الجان وما شابهه، ومن حكايات تحاك حول الأمثال ، ومن أخبار تنسج عن الأيام ٠

ونزل القرآن الكريم فاتخذ القصة قالبا لبث أفكاره ، وتبليغ أغراضه ، وانبثت فيه ألوان من القصص ٠ فمن قصص تقص حول الأنبياء والمرسلين ، ومن قصص يحكيها الهدهد والنمل ، ومن قصص تحكى عن أخبار الماضين كأصحاب الكهف ويأجوج ومأجوج ٠٠٠ الخ ٠

ويبدو أن النبى عليه السلام كان مولعا بالقصص ، فيروى أنه كان يجلس الى تميم الدارى ويسأله عن خبر الجساسة والدجال فيقصه عليه (٢) ٠

وكان يصاحب الدعوة المحمدية الكثير من القصص التى ترغب فى الاسلام وتنفر من عبادة الأصنام ، أو التى تحث على الجهاد وتقص ما أعده الله للشهداء ، كتلك القصة التى يقصها رجل من أهل نجران من بنى الحارث ابن كعب عن سبب اسلامه (٣) ، أو كتلك القصة التى ذكرها صاحب «مصارع العشاق» وقص فيها خبر أبى بكر بن أنس بن مالك مع صاحبته العيناء ، تحت عنوان « باب مصارع عشاق الحور العين » (٤) ٠

ثم كان العصر الأموى – وهو عصر ملىء بالأحداث والمفاجآت – فازدهرت فيه القصة ازدهارا كبيرا ، تفوقت فيه على ما كانت عليه فى العصر الجاهلى ، وفى صدر الاسلام ٠

وقد كانت هناك أسباب لهذا الازدهار وذلك التفوق :

(أ) فالحكام والقادة الأمويون كانوا **ذوى اتجاهات جاهلية ونزعات عربية** ، فقد كانوا يتشوقون الى أحوال آبائهم الجاهليين ، روى أن الحجاج قال للفرزوق وجرير وهو فى قصره بجزيرة البصرة « ائتيا فى لباس آبائكما فى الجاهلية ، فجاء الفرزدق وقد لبس الديباج والخز وقعد فى جبة ، وشاور جرير دعاة بنى يربوع ، فقالوا : ما لباس آبائنا الا الحديد » (٥) ويدل على شيوع الروح الجاهلى

فى هذا العصر ، أن من كان يتثقف ثقـافة جاهلية يشـيع ذكره بين الناس ، فحذيفة ابن شداد بن كعب ، كانت له ابنة قد شـاع فى العرب ذكرها بالحسن والفصاحة وحفـظ أيام العرب وانسابها وأشعارها ، وقد رآها توبة بن الحمير فافتتن بها (٦) ٠

ومن هنا أبدأ فاقول : ان شيوع القصة فى العصر الأموى ، كان امتدادا لشيوعهـا فى العصر الجاهلى ، وان الأمويين قد حافظوا — فى هذه الناحية — على تراث أجدادهم الجاهليين ٠

(ب) ثم كانت **القصص فى القرآن** ، وفيهـا اشارات مجملة عن ناقة صالح ، وعن هـدهد سليمان ، وعن معجزات موسى ، وعن أحوال عيسى وزكريا ويحيى ، وعن أخبار أهل الكهف ٠٠٠ الخ ٠

وكان لا بد أن تخترع القصص والحكايات ، لترضى هذه الحاجة الناشئة ، وأن تلتمس هذه القصص أحيانا من أخبار أهل الكتاب ، وأحيانا من الخيال المحض ، يحكى السيوطى فى حديثه عن العلوم المستنبطة من القرآن قول بى الفضل المرسى فى تفسيره :

« وتلمحت طائفة ما فيه من قصص القرون السالفة ، والأيام الخالية ، ونقلوا أخبارهم ، ودونوا آثارهم ووقائعهـم ، حتى ذكروا بدء الدنيا ، وأول الأشياء ، وسموا ذلك بالتاريخ أو القصص » (٧) ٠

واشتهر العصر الأموى بأسماء قصـاص حاولوا أن يشبعوا هذه النزعة الجديدة ٠ مثل كعب الأحبار ، وهو يهودى من اليمن ، وينسب اليه كتاب فى حديث ذى الـكفل (٨) ٠ وعن كعب هذا أخذ عبد الله بن عباس ، وهـذا يعلل ما فى تفسيره من اسرائيليات وعبيد ابن شرية الجرهمى ، وله من الكتب كتاب الامثال وكتاب الملوك وأخبار الماضيين (٩) ٠ **ووهب ابن منبه** ، وكانت له معرفة بأخبار الأوائل وقيام الدنيا وأحوال الأنبياء وسير الملوك (١٠) وقال فيه السخاوى انه كثر الخرافات (١١) ، وله كتاب الاسرائيليات وله كتاب قصـص الأنبياء (١٢) ٠

(جـ) ونجىء الى منبع آخر من منابع ازدهار القصة ٠٠ وهو **الحـديث الشريف** ، وذلك لأن الخصومات السياسية بين على ومعاوية ، وبين الحسين ويزيد ، وبين ابن الزبير وعبد الملك وبين المختار الثقفى ، مرة مع الأمويين ، ومرة مع الزبيريين — هذه الخصومات دعت البعـض الى أن يضع حكايات يؤيد بها وجهة نظره ، أو يدحض بها وجهة نظر مخالفه ، ثم رأى أن يكسب حكاياته قوة فينسبها الى النبى عليه السلام ! وما حديث المهدى الذى اخترعـه الشيعيون ، وحديث السفيانى الذى اختلقـه الأمويون ، وما يحدث بينهما من قتال الا مثالان لهذا النوع من الحكايات ٠

(د) ثم كانت **غزوات الرسول** مجالا خصـبا لافتتان المفتنين ، وخيال المتخيلين فالعرب فى جاهليتها كان يستهويهم حديث الأيام ، ومايحاك حول أبطالها من قصص ، وما ينشد فيهـا من أشعار ، وما يكون فيها من خلق يعبر عن المثل الأعلى عند العرب ، فلما جاء الاسـلام نهى عن العصبية والقبلية ووحد العرب ، فوجـد العرب فى مغازى الرسول فرجة يعيدون فيها الحديث الذى يشبه حديث أيام العرب ، ولو رجعت الى الأيام فى **الجزء الثانى من العقد الفريد** مثلا ، والى المغازى فى الجـزء الأول والثانى من تاريخ الطبرى مثلا ، لوجدت بينهما تشابها ، فالرسول هو البطل الذى تدور حوله الاحداث ، كما كانت تدور حول أشـخاص أيام العرب ، والأشعار تطرح فى المغازى كما تطرح فى الأيام ، والخلق العربى كالشهـامة والتضحية والشجاعة ٠٠ ظاهر فى المغـازى كما هو ظاهر فى الأيام ٠

وفى العصر الأموى لمعت أسماء تقص أخبار المغازى وتؤلف فيهـا ، فخالد بن عبد الله القسرى طلب من **محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى** أن يكتب السيرة له (١٣) ، ونسب اليه السخاوى كتابا يسمى « مشاهد النبى » رواه عنه يونس بن يزيد ، وقد روى عنـه المغازى **حجاج بن أبى منيع** (١٤) ٠

واذا أخذنا برأى الاستاذ فيك **Vick** من أن كتاب محمد بن اسحاق (توفى سنة ١٥٠ هـ) الذى رواه عنه ابن هشام ، لم يؤلفه فى بغداد أو الحيرة أو بأمر من الخليفة المنصور ، بل ألفه فى المدينة قبل اقامته لدى العباسيين ، بدليل

أن فيه بعض الاحداث التى لا يرضى عنهـــا العباسيون ، كاشتراك العباس فى بدر الى جانب الكفار ، وأسر المسلمين له (١٥) ــ اذا أخذنا بهذا الرأى فاننا نعتبر الكتـــاب من التراث القصصى فى العصر الأموى · وعروة بن الزبير كان يحكى الكثير من هذه الغزوات ، ممـــا نستطيع أن تلتمسه فى ابن اسحاق والواقدى والطبرى ، وقد روى عنه المغازى أبو الأسود والزهرى (١٦)) ، وكان يسارع الى ارضـــاء حاجة السائلين « حدثنا هشام بن عروة عن عروة أنه كتب الى عبد الملك بن مروان فانك كتبت الى فى أبى سفيان ومخرجه ، تسألنى كيف كان شأنه ؟ كان من شأنه ·· » (١٧) ·

وكان المسلمون يحرصون على أحاديث المغازى ويقربون العارفين بها ، فعن سعيد بن المسيب قال ، بينما نحن عند مروان بن الحكم ، اذ دخل عليه حاجبه ، فقال : هـــذا أبو خالد ابن حزام · قال : ائذن له ، فلما دخل حكيم ابن حزام قال : مرحبا بك ، يا أبا خالد ، أدن فحال له مروان عن صدر المجلس حتى كان بينه وبين الوسادة · ثم اســـتقبله مروان فقال : حدثنا حديث بدر » (١٨) ·

(هـ) وربمـــا كانت طبيعـــة المفاخرة لدى الأمويين ، والمسلمون من ورائهم ، أدت الى ازدهار هذا النوع من القصص التى كانت تدور حول شخصية النبى عليه السلام ،فأهل الكتاب حين أسلموا أكثروا عن أنبيائهم « وقد تتبعنا فى تفسير ابن جرير كثيرا من الآيات التى وردت عن بنى اسرائيل ، فاذا بطل الرواية فيهـــا وهب بن منبه ، وقد ذكرنا من قبل أنه كان من يهود اليمن وأسلم ، فكان يقص ما جاء فى كتب اليهود من غير تحر دقيق ··· كما تتبعنا كثيرا من الآيات التى وردت عن النصارى فاذا كثير مما يرويه الطبرى عن ابن جريج ·· ويقـــول عنه الذهبى فى تذكرة الحفاظ :

« انه من أصل رومى ، فهو نصرانى الأصل ويقول عنه بعض العلماء : انه كان يضع الحديث وأنه تزوج تسعين امرأة زواج متعة ·· » (١٩) وازاء هذا الطوفان من مبالغـــات اليهـــود والنصارى ، اندفع بعض المسلمين الى الحديث عن نبيهم أيضا حديثا فيه الكثير من القصص والوضع ، فاذا أطنب ابن منبه فى الحديث عن موسى ، وأسرف ابن جريج فى الكلام عن عيسى، لم يبق أمام قصاص المسلمين الا أن يكثروا من الحديث عن محمد ، ليعارضوا أهـــل الكتاب بهذا · عقد السيوطى فصلا لأكاذيب العرب ، ختمه بهذه العبارة :

« وحدثنى التوزى قال : سألت أبا عبيـــدة عن مثل هذه الاخبار من أخبار العرب ، فقال : ان العجم تكذب أيضا فتقول كان رجل نصفه من نحاس ونصفه من رصاص ، فتعـــارضها العرب بهذا وما أشبه » (٢٠) ·

وعلى هذا فالقصص التى وردت عن أنبيـــاء وشخصيات سابقة على الاسلام ، وتنبىء بظهور الدعوة المحمدية والترقب لها موضوعه لتمجيد الســـيرة النبوية والتنويه بهـــا كقصة الحارث ابن مضاض الجرهمى التى يقول فيها لرفيقه :

« يا بنى هل ولد فى بنى مضر مولود اسمه محمد : قلت له : لا · قال : ان ولد ، والا فسيولد ويأتى حينه ويعلو دينه · » (٢١) ·

واعتقد أن كتاب « التظافر والتناصر » الذى نسبه المؤرخون الى **دغفل النســـابة البكرى** ، ما هو الا كتاب موضوع على هيئة مجـــالس وأسمار ، يقصد بها تمجيد السيرة النبوية ، وتعظيم الدعوة المحمدية التى تنبأ بها وتوقعها كثير من العرب قبل شروقها · ويتضح هـــذا من المجلس الثامن عشر الذى سأل فيه معاوية دغفلا :

« من أبلغ العرب فى ثنائه ؟ فقال دغفل : ذاك النابغة الذبيانى حين دخل على الحـــارث ابن أبى شمر ، يطلب اليه فى أسارى قومه » فقد جاء فى خاتمة كلام النابغـــة للحارث :

« فانك من سروات قحطان ، وأنا من سروات عدنان وستجيب نبيا شامخ البنيان ، عظيم الشان ، واضح البرهان ، يقال له محمـــد صاحب البيوت والاركان ، وجدناه فى كتب موسى وعيسى عن الأحبار والرهبان ، وأنت تعرف قولى يا سيد الكهول والشبان » (٢٢)

اذ يبدو لى أن هذا الكلام بما فيه من سجع متكلف ، وبما فيه من لغة ساذجة ، بعيـــدة عن الجزالة والفحولة ، لا يمكن أن يكون من أسلوب النابغة صـــاحب المعلقة ، ولا يمكن أن تنسب لشـــاعر من العصر الجاهلى ، ومن ناحية ثانية ، فان النابغة لم يتنبأ بظهـــور

محمد عليه السلام ، وحتى على فرض نبوءته فانها لم تصح ، لأن الحارث لم يجب صاحب البيوت والأركان .

(و) وتؤثر طبيعة المفاخرة فى نوع آخر من القصص ، وهى تلك القصص التى حكاها عبيد بن شرية الجرهمى أمام معاوية
وأعتقد أن عبيدا كان يخلق الاحداث التى تمجد ملوك قحطان أو على الأقل يبرز تلك الأحداث ، ويفيض فيها ، ويلفت النظر اليها ، ليفتخر بامجاد ملوك اليمن وحضارتهم الغابرة أمام أمجاد قريش وحضارتها الطارئة ، بل انه يرجع أمجاد العدنانيين الى يعرب ابن قحطان ، فهو أول من تكلم العربية ، ولنترك عبيدا يكمل افتخاره :

« .. حتى كان اسماعيل .. ونقله ابراهيم (ص) من بلاده فأنزله بمكة ، فكنا نحن جرهم أهل البلد الحرام ، فمشى اسماعيل فينا وتكلم بكلام العربية ، وتزوج منا فجميع ولد اسماعيل من بنت مضاض بن عمرو الجرهمى واسماعيل وأبوه منا ، وأنتم يا قريش منا ، والعرب بعضها من بعض .. »

وقد تنبه معاوية لهذه النبرة فقال : « كانك تحدث عن حديث الجاهلية »

فيستدرك عبيد ويقول : « لك فى الاسلام ما يغنيك عن ذلك فقد محق الاسلام ما كان قبله كما محق الشمس ضوء القمر » (٢٣) .

بل ان معاوية ليثور أمام تلك اللهجة من عبيد ، وذلك بعد قول عبيد لمعاوية :

« انك لتكلفنى أقوال قوم قد ذهبوا .. كانوا ملوكا فاذا قالوا صغروا غيرهم لقدرتهم وعظمتهم » .

فيرد معاوية : « ان تكن حمير كما ذكرت فقد أورثنا الله ذلك من ملكهم فهو لنا اليوم .. فانتزعه الله لنبيه محمد (ص) وهو منا فنحن أسرته وخير الناس بعده ، ولولاه لم تكن شيئا وجعل حمير لنا ، والحمد لله الذى أكرمنا بنبيه وأورثنا أرض أعدائه الجبابرة العتاة»(٢٤)

وهاك نموذجا من أخبار عبيد تشتم فيه رائحة الفخر والتمجيد ، يتحدث عبيد عن « ناشر النعم بن عمرو بن يعفر بن عمرو » فيقول :

« اجتمعت عليه اليمن ، وبعث الجيوش الى كل من ناواه ، ووطىء البلاد التى كان آباؤه يطؤونها واشتد سلطانه فسماه قومه ناشر النعم ، قال معاوية : ولم سماه قومه بهذا الاسم ؟ قال عبيد : يا معاوية .. أنعم عليهم فيما ارتجم من ملكهم وجمع الأمر لهم . قال ثم سار بنفسه غازيا نحو المغرب فدوخها ، ووطئها حتى بلغ وادى الرمل ، لم يبلغ ذلك الوادى ولا تلك الارض من أهل بيته غيره فلما أتى الى الوادى الذى يسيل رملا ، لم يجد مخرجا ولا مجازا ، حتى جاء يوم السبت فلا يجرى فلم يجده ، وأمر رجلا من أهل بيته يعبر الوادى ، وكان يقال له عمرو بن زيد بأصحابه فلم يرجع منهم أحد فلما رأى ذلك ناشر النعم، كف عن العبور ، وأمر عند ذلك بصنم من نحاس . فنصب على صخرة ثم كتب على صدر ذلك الصنم بكتاب المسند وهو كتاب الحميرى، أبياتا من شعر كتابا ابتدعته حمير لأن لا يكتبه غيرهم ، يذكر فيه صفتهم وما بلغوا . قال معاوية : وما الكتاب الذى كتبوا والشعر ؟ قال عبيد : كتب فيه « صنع هذا الصنم الملك الحميرى ناشر النعم اليعفرى ، ليس وراء هذا مذهب ، فلا يتكلف أحد المضى فيه فيعطب » فأما الشعر فأبيات كتبها فى الصنم يقول فيها :

أنا الصنم الذى هيا مكانى
تبوءة المقاول والهبول
نصبت ، فلم ازل صنما مقيما
لحمير للشباب وللكهول
فما أحد يجاوزنى فيحيا
الى الجبل المطل على السهول
ليعلم من أتانى من أمامى
فليس له ورائى من سبيل

قال معاوية : انك لتخبرنا عجبا . قال : يا أمير المؤمنين : **ان أمر حمير كان أعجب من** ذلك فى مسيرها البلاد واستخدامها العباد .. » (٢٥)

(ز) ثم ان الحياة فى العصر الأموى تعقدت من نواحيها السياسية والاجتماعية ، فالمسلمون قد أسقطوا دولة فارس ، وقضوا على جزء كبير من دولة الروم ، فرأوا حضارات جديدة لم يعهدوها من قبل فى صحرائهم ، فمن حكمة للهند ، الى فلسفة لليونان ، الى آداب للفرس .

حقيقة أن الترجمة لم تنشط في هـــذا العصر ، كما نشطت في العصر العباسي الأول، ولكن هذا لا يمنع أن القائمين على هذه الدولة ، قد راعتهم الأمور الجديدة والطريفة في الممالك فشرعوا يتتبعون أخبار هذه الممالك ،ويبحثون عن سير هؤلاء الملوك ، عسى أن يجدوا فيهـــا حلا لمشكلاتهم الجديدة ، التى نشأت بســـبب تعقد الحياة وتشابكها • فيحكون أن معـــاوية كان « يستمر الى ثلث الليل فى أخبار العرب وأيامها ، والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها وسائر ملوك الأمم وحروبها ومكايدهــــا ، وسياستها لرعيتها ، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة •• ثم يدخل فينـــام ثلث الليل ثـــم يقوم ، فيقعد ، فيحضر الدفاتر فيهـــا ســـير الملوك وأخبارهـــا ، والحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبـــون ، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبـــار والســـير والآثار وأنـــواع السياسات » (٢٦) •

ولست أدرى على أى أساس بنى الدكتور عبد الرزاق حميدة شكه فى هذا النص ، فهو يعلق على قوله « ويستمر الى ثلث الليل فى أخبار العرب وأيامها وملوكهـــا وسياستهـــا لرعيتها وسائر ملوك الأمم وحروبها ومكايدها» ـ يعلق على هذا بقوله « فكم مرة كان ذلك فى تاريخ معاوية ؟ لا ندرى » • ولكننا ندرى من بقية النص كما أورده المسعودى انه كان يفعل ذلك كل يوم ، ثم يعلق على الخبر بقوله :

« والظاهر أن الخبر بعيد عن التصديق ، فقد أورده المسعودى على صورة فيها مبالغة ، فقالوا : انه يجلس لأصحاب الأخبار كل ليلة بعد العشاء الى ثلث الليل ، ثم ينـــام الثلث الثانى ، ثم يأتى أولئك الغلماء فيقرءون عليه ما فى تلك الكتب ، وهذا قد يحدث مرة أو مرات ولكنه لا يمكن أن يكون كل ليلة » (٢٧)

ولا أعتقد أن فى الخبر مبالغة ، فقـــد ذكر المسعودى فى هذا النص نفســـه أن لمعاوية أوقاتا للراحة اذا خلا فيها فى منزله لا يطمع فيه طامع ، وأن هذا يكون بعد رفع الغداء مرة ويكون بعد صلاة العصر مرة ثانية • على أن معاوية من الرجـــال الأفذاذ مؤسسى الدول الذين يجوز أن يفعلوا مالا يفعله الانســـان العادى « وقد كان هم باخلاقه جماعة بعـده مثل عبد الملك بن مروان وغيره فلم يدركوا خلقه ولا اتقانه للسياسة » (٢٨) •

وربما كان نتيجة للحضارة وتعقدهـــا أن تخصص بعض الناس فى حكايات معينـــة ، فالقاضرى وأشعب تخصصـــا فى خلق النوادر والحكايات الغريبة لاضحـــاك أهل المدينـــة وتسليتهم (٢٩) • ويبدو أن محمد بن بشير الخارجى تخصـــــص فى الحكايات التى تتعلق بالصـــيد • فالجاحظ يذكر أن نسوة أردن أن يختلين بسليمان بن عبد الله الأسلمى وابن أخ له فارسلن اليهما « انما خرج أزواجنا للصيد وقد بلغنا أن لكم صاحبا يعرف من طلب الصيد مالا يعرفه غيره ، فلو طرح لهما شيئا من ذكره لأسرعوا اليه وتخلفتم وتحدثتم ما شئتم يعنين به محمد بن بشير » قال محمد : « فصرت اليهم وذكرت لهم الصيد فخرجوا معى ، فما زلت أحدثهم بالصدق حتى **أخذت فى الكذب مما يضارع الصدق حتى أفنيتـــه ، فأقمت معهم ثلاثة أيام ولياليهـــا** ثم انصرفوا من غـــير أن اصطدنا شيئا • فقلت فى ذلك :

انى انطلقت معى قوم ذوو حســـب
ما فى خلائقهم زهـــو ولا حمـــق
انى لأعجب منهم كيف أخدعهم
أم كيف آفك قوما ما بهم رهـــق
أظل فى الأرض ألهيهـــم وأخبرهم
أخبار قوم وما كانوا ولا خلقوا (٣٠)

❊ ❊ ❊

(ح) ويبـــدو أن الخلفـــاء الأمويين كانوا يميلون الى السمر والمنادمة • والى القصـــص والحكايات فحين ولى معاوية بن أبى ســـفيان الخلافة ، وانتظمت اليه الأمور ، اســـتحضر ليلة خواص أصحابه ، وذاكرهم وقائع أيام صفين (٣١) ، وكان من أخلاقه أنه اذا صـلى الفجر يجلس للقاص حتى يفرغ من قصصه(٣٢) وكان أفضل لذاته فى آخر عمره المســـامرة وأحاديث من مضى ، ومن أجل ذلك اســـتدعى عبيد بن شرية الجرهمى ، واتخذه سميره يقص عليه وقائع العرب وأخبارها وأشعارهـــا ، وأمر أهل ديوانه وكتابه أن يوقعوه ويدونوه فى الكتب (٣٣) •

وعبد الملك بن مروان قبل أن تفضى اليـــه

الخلافة كان يجلس فى ظل الكعبة أيام الموسم مع قبيصة بن ذويب ، وعروة بن الزبير ومالك بن عمارة اللخمى ، فلما أفضت اليه الخلافة جعل يحادث مالك بن عمارة عشرين ليلة يسأله مرة عن العراق ، وأخرى عن الحجاز (٣٤) ، « ولما افضى الأمر الى عبد الملك تاقت نفسه الى محادثة الرجال والأشراف فى أخبار الناس ، فلم يجد من يصلح لمنادمته غير الشعبى » (٣٥) ، وكان جليسه ومضحكه روح بن زنباع (٣٦) ، وقد رأى منه روح مرة اعراضا ، فشكى حاله لابنه الوليد ، فقال له: « احتل له فى حديث تضحكه به ، كما احتال مرزبان نديم سابور ملك فارس » ، وأخبره أمر مرزبان ، اذ ظهرت له من سابور جفوة ، فتعلم نباح الكلب ، وعى الذئب ، ونهيق الحمير ، وزقاء الديوك ، وشحيج البغل وصهيل الخيل ، حتى استطاع أن يضحك الملك ضحكا شديدا وأن يرضى عنه فى النهاية • وقد عمل روح بنصيحة الوليد ، واخترع قصة عن ابن عمر وابن أبى عتيق، « فضحك عبد الملك حتى فحص برجله ، وقال له : قاتلك الله ، ما أطيب حديثك •• ثم عاد الى أحسن حالاته » (٣٧) •

وسليمان لا يجد لذة تعدل لذة القصص والحكايات ، والمنادمة والمسامرة ، فيقول : « قد أكلنا الطيب ، ولبسنا اللين وركبنا الفاره ، ولم يبق لذة الا صديق ، اطرح معى فيما بينى وبينه مؤنة التحفظ » (٣٨) • « وقيل **للوليد بن يزيد** : ما بقى من لذاتك ؟ قال : محادثة الاخوان فى الليالى القمر ، على الكثبان العفر • وبلغ الوليد عن شراعة بن الزيدورود ، حسن عشرة ، وحلاوة مجالسة، فبعث فى احضاره » (٣٩) • وحين ضاق بفعل ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك الذى نازعه الخلافة ، استدعى رجلا فقال له : « أتحسن المسامرة للخلفاء ، فقال : نعم ، يا أمير المؤمنين ، فقال له الوليد : ان كنت تحسنها فأخبرها ما هى ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، المسامرة اخبار لمنصت ، وانصات لمخبر ، ومفاوضة فيما يعجب ويليق ، فقال له الوليد : ••• فقل ، اسمع لقولك ، فقال الكهل : نعم ••• ولكن المسامرة صنفان ••

أحدهما الاخبار بما يوافق خبرا مسموعا ، والثانى الاخبار بما وافق غرضا من أغراض صاحب المجلس ، وانى لم أسمع بحضرة أمير المؤمنين طريقة فانحو نحوها •• فقال له الوليد : ها نحن نقترح عليك ما تقصه • قد بلغنا أن رجلا من رعيتنا سعى فى ضرر ملكنا ، فتأثر سعيه وشق ذلك علينا ، فهل سمعت بذلك ؟ » فجعل الرجل يقص عليه قصة توافق غرض الوليد ، فقص عليه قصة عبد الملك مع عمرو بن سعيد بن العاص ، وقصة الثعلب المسمى « مفوضا » مع ثعلب آخر يسمى « ظالما » (٤٠) • ومروان ابن محمد الجعدى – مع ما كان فيه من فتن بين النزارية واليمنية ، ومن تصدع فى البيت الأموى – كان « يديم قراءة سير الملوك ، وأخبار حروبها ، من الفرس وغيرها من ملوك الأمم » (٤١) •

وسار القادة والرؤساء على الدرب نفسه ، فخالد بن عبد الله **القسرى** كان يبحث عمن يحدثه حديثا يستريح اليه قلبه ، فانبرى له قاص ، جعل يقص أخبار بنى عذرة (٤٢) • وقد اتخذ الحجاج له سميرا وهو سيرة بن الجعد، فلم يك يطلب شيئا من الحديث الا وجد عنده منه علما (٤٣) : وأرق ذات ليلة ، فبعث الى ابن القرية فقال : « انى أرقت ، فحدثنى حديثا يقصر على طول ليلى ، وليكن من مكر النساء وفعالهن » ، فقص عليه قصة مشوقة ذكرها الجاحظ ، وعقب عليها الحجاج بقوله : « لله درها ما أحسن ما احتالت لاستخراج حقها » (٤٤) •

وهكذا نجد الحضارة ، وطبيعة الترف والملك ، يدفعان بالقصة والحكايات الى منافسة الشعر لدى الخلفاء والقواد • وكل هذا وغيره يدل على مدى أثر الحضارة ، واشتباك الأمور، وتعقد الأشياء فى المسامرة ، وأنواعها ، وما يقصد منها ، وما يتبع المسامرة عادة من حكايات وأقاصيص ، قد يراد منها مرة تعرف ما عليه الملوك الأخر من عادات وسياسات ، كما كان حال معاوية مع غلمانه، وقد يراد منها ثانية مجرد الاضحاك والتسلية كما فعل روح مع عبد الملك ، وقد يراد منها ثالثة العبرة والعظة والاقتداء بأحوال الغير

كتلك القصة التى قصها مسامر الوليد بن يزيد ·

* * *

(ط) ثم ان الأمويين كانوا على جانب كبير من المكر والدهاء السياسى ، فحين وجدوا أن القصص تروج لدى العامة ، ويقبلون عليها ، رأوا أن يستغلوا هذه الناحية فى تثبيت أركانهم وتدعيم سلطانهم، فقد روى أن معاوية حين بلغه أن عليا قنت ، فدعا على قوم من أهل حربه أمر رجلا يقص بعد الصبح ، وبعد المغرب ، يدعو له ولأهل الشام ، قال يزيد وكان ذلك أول القصص (٤٥) ، بل ان معاوية لبعد نظره جعل ذلك من المناصب الرسمية المهمة التى تضاهى القضاء ، « ثم ولى سليم ابن عنز التجيبى على القضاء فى أيام معاوية ابن أبى سفيان ، وجعل اليه القص والقضاء جميعا ، وكان يقص على الناس ، وهو قائم ·· وهو من العباد المجتهدين ، وكان يختم القرآن فى الليل مرات » (٤٦) ·

ولعل ابن عمر يعنى هذا الجانب الرسمى فى القصص حين قال :

« لم يقص فى زمن رسول الله ، ولا أبى بكر ولا عمر ، ولا عثمان ، وانما كانت القصص فى زمن معاوية » (٤٧) ، وربما كانت رواية ابن عمر ، أو رواية يزيد بن حبيب هى التى جعلت الرافعى يعمم فيقول :

« ولم يكن القصص فى زمن النبى (ص) ، ولا فى زمن أبى بكر وعمر ، لاجتماع كلمة المسلمين ·· وانما أحدثت القصص فى زمن معاوية ، حين كانت الفتنة بين الصحابة »(٤٨)

ولهذا حين ترد مثل تلك العبارة « مثل الاسلام والسلطان مثل العمود والفسطاط ، فالفسطاط الاسلام والعمود السلطان، والأوتاد الناس ، ولا يصلح بعضها الا ببعض» (٤٩) · أعتقد أن مثل هذه العبارة ، لا تصدر عن نية خالصة لارشاد الناس ، خاصة اذا عرفنا أن قائلها كعب الاحبار ، وهو يهودى (٥٠) لا يهمه اصلاح الاسلام ولا السلطان ولا الناس ، وانما الذى يهمه الزلفى والتقرب الى السلطان فحسب ·

هذه هى أهم الأسباب التى أدت الى ازدهار القصة ــ بوجه عام ــ فى العصر الأموى ·

* * *

بقى أن أتحدث الآن عن أنواع القصة فى العصر الأموى :

بعض قصص هذا العصر امتداد لقصص العصر الجاهلى مع تحوير يسير يناسب الظروف ·· وبعضها امتداد لحركة قصصية جاهلية ، ولكنها فى العصر الأموى لبست ثوبا جديدا وتركزت حول موضوع جديد ··· وبعضها كان له أصل فى العصر الجاهلى ، ولكن فى هذا العصر تشعبت فروعه ، وتنوعت أفانينه ·

وسأتحدث بالتفصيل عن كل نوع من هذه الأنواع ·

١ ــ فمن القصص التى كانت موجودة فى العصر الجاهلى ، ثم استمرت فى العصر الأموى مع تحوير يسير فى بعضها يناسب الظروف ــ **القصص التى كانت تحاك حول الأمثال ·**

فهذا النوع كان معروفا فى العصر الجاهلى، كما سبق أن ذكرت ، وفى هذا العصر استغله الحكام والقواد الامويون فى خطبهم ، وحوروه تحويرا يناسب الظروف · فمن ذلك القصة التى اكتنفت المثل « كيف أعاودك وهذا أثر فأسك » الذى يضرب لمن لا يفى بالعهد ، فقد ذكر الميدانى « أصل هذا المثل على ما حكته العرب فى لسان الحية أن أخوين كانا فى ابل لهما ، وكان بالقرب منهما واد خصيب ، وفيه حية تحميه من كل أحد ، فقال أحدهما للآخر : يا فلان ، لو أنى أتيت هذا الوادى المكلىء ، فرعيت فيه ابلى وأصلحتها ! فقال له أخوه : انى أخاف عليك الحية ، ألا ان أحدا لا يهبط ذلك الوادى الا أهلكته · قال : فوالله لأفعلن ، فهبط الوادى · ورعى به ابله زمانا ، ثم ان الحية نهشته فقتلته ، فقال أخوه : فوالله ما فى الحياة بعد أخى خير ، فلأطلبن الحية ولأقتلنها ، أو لأتبعن أخى · فهبط ذلك الوادى ، وطلب الحية ليقتلها ، فقالت الحية له : ألست ترى أنى قتلت أخاك ، فهل لك فى الصلح ، فادعك بهذا الوادى تكون فيه ، وأعطيك كل يوم دينارا ؟ فكثر ماله حتى صار من أحسن الناس حالا ، ثم انه

ذكر أخاه فقال : كيف ينفعني العيش وأنا أنظر الى قاتل أخي ، فعمد الى فأس فأخذها ، ثم قعد لها فمرت به ، فتبعها ، فضربها ، فأخطأها ، ودخلت الجحر ، ووقع الفأس بالجبل فوق جحرها ، فأثرت فيه ، فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار • فخاف الرجل شرها وندم • فقال لها : هل لك أن نتواثق ونعود الى ما كنا عليه ؟ فقالت : كيف أعاودك وهذا أثر فأسك ؟ يضرب لمن لا يفي بالعهد ، وهذا من مشاهير أمثال العرب • قال نابغة ابن ذبيان :

وانى لألقى من ذوى الغى منهمو
وما أصبحت تشكو من الشجو ساهره
كما لقيت ذات الصفا من حليفها
وكانت تريه المال غبا وظاهره
فلما رأى أن ثمر الله ماله
وأثل موجودا وسد مفاقره
أكب الى فأس يحد غرابها
مذكرة من المعاول باتره
فقام لها من فوق حجر مشيد
ليقتلها ، أو تخطىء الكف بادره
فلما وقاها الله ضربة فأسه
وللشر عين لا تغمض ناظره
فقال : تعالى نجعل الله بيننا
على مالنا ، أو تنجزى لى آخره
فقالت : يمين الله أفعل ، اننى
رأيتك مشئوما ، يمينك فاجره
أبى لى قبر لا يزال مقابلى
وضربة فأس فوق رأس فاقره (٥١)

هذا أصل المثل على ما حكته العرب ،وأدخله النابغة فى شعره ، ولكن المسعودى يذكر هذا الخبر : « حج عبد الملك فى بعض أعوامه ، فأمر للناس بالعطاء ، فخرجت بدرة مكتوب عليها من الصدقة فأبى أهل المدينة قبولها ، وقالوا : انما كان عطاؤنا من الفىء • فقال عبد الملك وهو على المنبر :

مثلنا ومثلكم أن أخوين فى الجاهلية ، خرجا مسافرين ، فنزلا فى ظل شجرة تحت صفاة ، فلما دنا الرواح خرجت اليهما من تحت الصفاة حية تحمل دينارا فالقته اليهما ، فقالا : ان هذا لمن كنز ، فأقاما عليها ثلاثة أيام ، كل يوم تخرج اليهما دينارا ، فقال أحدهما لصاحبه : الى متى ننتظر هذه الحية ؟ ألا نقتلها ؟ ونحفر هذا الكنز فنأخذه ، فنهاه أخوه وقال : ما تدرى ، لعلك تعطب ، ولا تدرك المال ، فأبى عليه • وأخذ فأسا معه ورصد الحية حتى خرجت ، فضربها ضربة جرحت رأسها ولم تقتلها ، فثارت الحية فقتلته ورجعت الى جحرها فقام أخوه فدفنه ، وأقام حتى اذا كان من الغد خرجت الحية معصوبا رأسها ليس معها شىء فقال : يا هذه انى والله ما رضيت ما أصابك ، ولقد نهيت أخى عن ذلك ، فهل لك أن نجعل الله بيننا ألا تضربى ولا أضربك وترجعين الى ما كنت عليه • فقالت الحية : لا • قال : ولم ذلك ؟ قالت : انى أعلم أن نفسك لا تطيب لى أبدا وأنت ترى قبر أخيك ، ونفسى لا تطيب لك أبدا وأنا أذكر هذه الشجه ، وأنشدهم شعر النابغة :

قالت أرى قبرا تراه مقابلى
وضربة فاس فوق رأس فاغرة

يا معشر قريش : وليكم عمر بن الخطاب فكان فظا غليظا مضيقا عليكم ، فسمعتم له وأطعتم • ثم وليكم عثمان فكان سهلا فعدوتم عليه فقتلتموه ، وبعثنا عليكم مسلما يوم الحرة فقتلناكم ، فنحن نعلم يا معشر قريش أنكم لا تحبوننا أبدا وأنتم تذكرون يوم الحرة ، ونحن لا نحبكم أبدا ونحن نذكر قتل عثمان » (٥٢) •

فالميدانى يذكر أصل ما حكته العرب فى الجاهلية ، ولهذا ترى فى حكايته الجو الجاهلى ، فالحية كانت فى واد خصيب تحميه ، كما هى عادة أهل البطش من الجاهلية ، ثم ان الحية تنهشه وتقتله بدون ما جريرة الا أنه هبط ذلك الوادى المكلىء •

أما عبد الملك فانه يطوع الحكاية لظروفه وظروف مخاطبيه ، فالحية لم تكن فى واد تحميه ثم اقتحمه الرجل ، بل ان الرجلين نزلا فى ظل شجرة يستريحان ، مما يتفق مع ما فى الحضارة من ظل وراحة ، والأخ عبد الملك ــ وهو يمثل الحجازيين ــ يعتدى على الحية بدون ذنب ترتكبه ، بل انها كانت

تقدم لهما كل يوم دينارا ودافعه الى ذلك الطمع فى الكنز ، كما هـو دافع معشر قريش فى ثورتهم على الأمويين • والحية عنـد عبد الملك - وهى تمثل بنى أمية - كريمة سخية تلقى الى الأخوين كل يوم دينارا وهى حين تثـور على الرجل لم يكن دافعها الظلم والتعدى - بل الحرص على حياتها والدفـاع عن نفسهـا • وأسلوب عبد الملك يتناسب مع ظروف التهديد والوعيد ، كقول الأخ لأخيه « ما تدرى لعلك تعطب ولا تدرك المال ؟ » •

وكان عبد الملك يوجه هذا القول الى أهـل المدينة « لعلكم تعطبون ولا تدركون آمالكم »• والأخ هنا يمثل تخاذل أهل المدينة ؟ فهـو يطلب الصـلح مع الحيـة التى قتلت أخاه • والحية - وكأنها تنطق بلسان الحزم الأموى - تأبى الصلح كأن ما فى النفوس لا يذهب ، فى حين أننا فى الحالة الاولى نجد الحية هى التى ترجو الصلح من الأخ على أن تعطيه كل يوم دينارا ، فتم الصلح بينهما •

ويبدو أن الخطباء فى العصر الأموى كانـوا ميالين الى تصوير أفكارهم بهذا الاسلوب الطريف الذى يجسم الحالة على ألسنة الحيوانات ، وفى العقد الفريد « كتاب الجوهرة فى الأمثـال » أمثلة لهذه الخطب ، كتلك الخطبة التى خطبها النعمان بن بشير فى أهل الكوفة وشـبه حالتهم وحاله بالثعلب والضبع وقد أتيا الضب ليحكم بينهما (٥٣) •

٢ - ومن القصص التى كانت موجودة فى العصر الجاهلى ثم استمرت فى العصر الاموى « قصص الحيوان » • ففى العصر الجاهلى وجدت حكايات تحاك حول قنزعة الهدهد ، أو حول مشـية الغراب ، أو حول فرخ نوح (٥٤) واستمر هذا اللون فى العصر الاموى ، وكان القصاص يلجئون اليه أحيانا للتعبير عن معنى خلقى كهذه الحكاية التى ساقها وهب بن منبه للرياء :

« نصب رجل من بنى اسرائيل فخـا • فجاءت عصفورة فنزلت عليه ، فقالت : مالى أراك منحنيا ؟ قال : لكثرة صلاتى انحنيت •

قالت : فمالى أراك بادية عظامك ؟ قال : لكثرة صيامى بدت عظامى •

قالت : فمالى أرى هذا الصوف عليك ؟ قال: لزهادى فى الدنيا لبست الصوف •

قالت : فما لهذه العصا عندك ؟ قال : أتوكأ عليها واقضى حوائجى • قالت : فما هذه الحبة فى يدك ؟ قربان ان مر بى مسـكين ناولته اياها •

قالت : فانى مسكينة • قال : فخذيها • فدنت فقبضت على الحبـة ، فـاذا الفخ فى عنقها ، فجعلت تقول : قعى قعى • تفسـيره لا غرنى ناسك مراء بعدك أبدا » (٥٥) •

٣ - ومن القصص التى كانت موجودة فى العصر الجاهلى ، ثم لبست ثوبا جـديدا فى العصر الأموى « أيام العرب » ، فقد دارت فى العصر الأموى **حول الحـروب الاسـلامية** ، واتخذت من مغازى النبى عليه السلام مسرحا لها ، وانظر سيرة ابن هشـام ، أو تاريخ الطبرى ، أو غيرهما ، فسـتجد أنهم كانوا يحيطون هذه الغزوات بكثير من القصـص البطولية ، والأساطير المبالغ فيها ، وهـاك نموذجا من كلام ابن عباس :

« حدثنى رجل من بنى غفار قال : أقبلت أنا وابن عم لى ، حتى أصعدنا فى جبل يشرف بنا على بدر ، ونحن مشركان ، ننتظر الوقعة على من تكون الدبرة ، فننتهب مع من ينتهب •• فبينا نحن فى الجبل اذ دنت منا سحابة ، فسمعنا فيها حمحمة الخيل ، فسـمعت قائلا يقول : أقدم حيزوم •• فأما ابن عمى فقـد انكشف قناع قلبه فمات فى مكانه ، وأما أنا فكدت أهلك ، ثم تماسكت » (٥٦) •

٤ - ومن تلك القصـص **الأساطير التى نسجت حول شـخصيات** فى العصر الأموى ، للنيل منها أو لتمجيدها ، فيزعمون أن الحجاج ابن يوسف ولد « مشوها •• وأبى أن يقبـل ثدى أمه وغيرها ، فأعياهم أمره ، فيقال ان الشيطان تصور لهم فى صـورة الحرث بن كلدة (وكان زوجها لأم الحجاج فطلقها ، ثم تزوجها من بعده أبو الحجاج يوسف بن عقيل الثقفى) فقال : ما خبركم ؟ فقـالوا بنى ولد ليوسف من الفارعة ، وكان اسمها ، وقد أبى أن يقبل ثدى أمه فقال : اذبحوا جديا أسود وأولغوه دمه ، فاذا كان فى اليوم الثانى ، فافعلوا به كذلك ، فاذا كان فى اليوم الثالث فاذبحوا له

تيسا أسود وأولغوه دمه ، ثم اذبحوا له أسود سالخا فاولغوه دمه وأطلوا به وجهه ، فانه يقبل الثدى فى اليوم الرابع • قال : ففعلوا به ذلك ، فكان بعد لا يصبر عن سفك الدماء لما كان منه فى بدء أمره» (٥٧) •

وحين قتل الحجاج سعيد بن جبير «لم يعش بعده الا خمس عشرة ليلة حتى وقعت فى جوفه الأكلة ، فمات من ذلك ، ويروى أنه كان يقول بعد قتل سعيد ! ياقوم ، مالى ولسعيد بن جبير ، كلما عزمت على النوم أخذ بحلقى»(٥٨)

ويحكون عن يسر بن أرطاة العامرى الذى قتل عبد الرحمن وقثما ، ابنى عبيد الله من العباس أنه خرف « حتى ذهل عقله ، واشتهر بالسيف ، فكان لا يفارقه ، فجعل له سيف من خشب ، وجعل فى يديه زق منفوخ ، كلما تخرق أبدل ، فلم يزل يضرب ذلك الزق بذلك السيف ، حتى مات ذاهل العقل»(٥٩) •

وشبيب الخارجى مشهور بالشجاعة ، وقد دوخ الحجاج ، ولما مات شق الحجاج بطنه ، واستخرج قلبه « فاذا هو كالحجر ، اذا ضربت به الأرض فبا عنها ، فشق فاذا فى داخله قلب صغير كالكرة ، فشق فأصيب علقة الدم فى داخله(٦٠) » •

ولعل السر فى انتشار هذه الاساطير ، انها كانت « كأحلام اليقظة » تعكس رغبات الشعب ومكنوناته ، فقد منى بشرذمة من الطغاة ، وقد عجز عن ان ينتقم منهم فى واقعه ، فلا أقل من أن ينتقم منهم فى خياله وأحلامه • ومن أن يمجد الشجعان الذين خرجوا عليهم ، فالحجاج مصاص دماء ، وبسر يتحول الى صورة شبيهة بصورة « دون كيشوت » فى رواية «سرفانتيس » يلاعب طواحين الهواء •• وشبيب بطل عملاق قلبه من حجر •••

وهناك شخصية حيكت حولها الاساطير ، فبدت كتلك القصص التى نسمعها عن مصارعى روما وعمالقتها ، كهرقل وشمشون • فقد روى أبو الفرج الاصبهانى خوارق عن هلال بن الاسعر(٦١)من شعراء الدولة الأموية فيحكى هلال عن نفسه : « جعت مرة ومعى بعيرى فنحرته ، وأكلته الا ما حملت منه على ظهرى » • وحدث عنه ابن العلاء أنه « لم ير أطول منه » • وقد مر به رجلان ، وكانا أشد تميميين بطشا ، وهو مضطجع ، فدنا أحدهما منه وأهوى على عجزه بالسوط ، فتناول هلال يده ، فاجتذبه اليه ورماه تحت فخذه ، ثم تناول الآخر ورماه تحت فخذه الاخرى ، ثم أخذ برقابهما فجعل يصك برءوسهما •

وقتل مرة جلانيا كان قد استجار بمعاذ ، ثم هرب • فتبعه معاذ واخوته التسعة وابن عمتهم وكانوا أمثال الجبال ، ومعهم عشرة غلمان أقوياء ، وجعلوا يرمونه بالحجارة ويضربونه بالعصى ، فما استطاعوا أن يأخذوه، حتى كسروا من احدى يديه ثلاث أصابع ، ومن الاخرى أصبعين ، ودقوا ضلعين من أضلاعه وأكثروا الشجاج فى رأسه، ثم أخذوه ووضعوا فى رجله أدهم ، ثم دفعوه الى الجلانيين ، فانطلقوا به الى بلادهم ، ولكنه فى الطريق تبرز هلال كما يصنع وفى رجله الأدهم كأنه يقضى حاجة ووضع كساءه على عصاه فى ليلة ظلماء ، ثم اعتمد على الأدهم فحطمه ، ثم طار تحت ليلته على رجليه وفر الى اليمن •

٥ ـ أما القصص التى كانت موجودة فى العصر الجاهلى ، ولكنها فى العصر الاموى تنوعت ودخلت فيها موضوعات جديدة لم تعرف فى العصر الجاهلى ، وبعض هذه الموضوعات كان بسبب الدعوة الاسلامية الجديدة ـ فمنها تلك **القصص الدينية** التى دارت حول الانبياء والشخصيات المقدسة •

فقد عرفت الجزيرة العربية قصصا أشاعها أهل الكتاب ، من اليهود والنصارى • ثم نزل القرآن وفيه اشارات عن موسى وعيسى ••الخ

وحين أراد المفسرون أن يرضوا حاجة المستمعين الى القصص ، وتفصيل الاشارات المجملة ، لجأ فريق منهم الى الاسرائيليات ، والى ما أشاعه أهل الكتاب من قصص وحكايات • ويذكر ابن خلدون أن العرب كانوا اذا تشوقوا الى معرفة شىء مما تتشوق اليه النفوس البشرية ، فانما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ، وهم أهل الكتاب من اليهود ، ومن تبع دينهم من النصارى • وأهل التوراة الذين بين العرب بادية مثلهم ، ولا يعرفون من ذلك الا ما يعرفه العامة من أهل الكتاب ،

ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية، فلما أسلموا أبقوا على ما كان عندهم ، مما لا تعلق له بالاحكام الشرعية التي يحتاطون لها (٦٢) ..

ولم يكن يراد بهذه القصص الحقائق ، اذ فيها من المبالغات والخوارق مالا يستطيع العقل أن يتصور وقوعه ،ولعل هؤلاء القصاص كانوا يقصدون جذب قلوب العامة الذين أصبحوا يتطلعون الى مزيد من تفصيلات القصص القرآني . وقد أحس ابن جرير بهذا ، فتبرأ من العهدة ، وقال في مقدمة كتابه :

« فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين ، مما يستنكره قارئه ، أو يستشنعه سامعه ، من أجل انه لم يعرف وجها في الصحة ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت ذلك من قبلنا ، وانما أتى من قبل بعض ناقليه الينا ، وانما أدينا ذلك على نحو ما أدى الينا (٦٣) ».

ولعل الدكتور **أحمد** أمين يقصد هذا النوع من القصص - الذي تأثر في كثير منه بالقرآن - حين يرى أن القصص استحدثت في صدر الاسلام « روى عن ابن شهاب أن أول من قص في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تميم الداري ، استأذن عمر أن يذكر الناس فأبى عليه ، حتى كان آخر ولايته فأذن له أن يذكر الناس في يوم الجمعة قبل أن يخرج عمر ، فاستأذن تميم عثمان بن عفان ، فأذن له أن يذكر يومين في الجمعة ، فكان تميم يفعل ذلك » .

وفي رواية أخرى عن الحسن أنه سئل : متى احداث القصص ؟ قال : في خلافة عثمان. فسئل : ومن أول من قص ؟ قال : تميم الداري (٦٤) »

وكان أكبر فرسان هذا الميدان : كعب الاحبار ، ووهب بن منبه ، وعبيد بن شرية الجرهمي . وسأتعرض لهؤلاء الفرسان الثلاثة ، وسأضرب أمثلة من قصصهم ، وأبين مناهجهم ، وسنرى من كل ذلك انهم لم يكونوا يقصدون الحقيقة والتاريخ ، بقدر ما يقصدون التفنن والتشويق .

أما كعب الاحبار : فهاك نموذجا صغيرا لبيان أسلوبه القصصي .

قال : « ذكرت الملائكة أعمال بني آدم ، وما يأتون من الذنوب . فقيل لهم : اختاروا منكم اثنين .. فاختاروا هاروت وماروت ، فقيل لهما : اني أرسل الى بني آدم رسلا ، وليس بيني وبينكم رسول ، انزلا ، لا تشركا بي شيئا ، ولا تزنيا ، ولا تشربا الخمر ، قال كعب : فوالله ما استكملا يومهما الذى أنزلا فيه حتى عملا ما حرم الله عليهما (٦٥) .

ولا تعقيب لي على نموذج كعب القصصي ، الا أن أستعير قول ابن كثير : « فهذا أظنه من وضع الاسرائيليين ، وان كان قد أخرجه كعب الاحبار ، وتلقاه عنه طائفة من السلف ، فذكروه على سبيل الحكاية ، والتحدث عن بني اسرائيل » . وقال أيضا : « واذا أحسنا الظن قلنا هذه من أخبار بني اسرائيل كما تقدم من رواية ابن عمر عن كعب الاحبار ، ويكون من خرافاتهم التي لا يعول عليها (٦٦)

وأما وهب بن منبه ، فقد كان ذا قدرة قصصية عجيبة ، يمده ذلك الفيض من كتب الأولين التي قرأها ، فقد روى انه قرأ اثنين وسبعين كتابا من كتب الله تعالى ، ويرفعها بعضهم الى ثلاثة وتسعين كتابا مما أنزل على الأنبياء (٦٧) . وكانت أكثر قصصه تدور حول اليهود (٦٨) ، فقد كان من يهود اليمن وكان مصدره الاول هو التوراة ، أنظر اليه يحكي قصة آدم والحية التي أغوته :

« لما أسكن الله تعالى آدم وزوجته الجنة ، ونهاه عن الشجرة ، وكانت شجرة غصونها متشعب بعضها في بعض ، وكان لها ثمر تأكله الملائكة فيخلدهم ، وهي الثمرة التي نهى عنها آدم وزوجته ، فلما أراد ابليس أن ينزلهما دخل في جوف الحية ، وكان للحية أربعة قوائم ، كأنها بختية من أحسن دابة خلقها الله فلما دخلت الجنة خرج من جوفها ابليس ، فأخذ من الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته ، وجاء بها الى حواء فقال : انظرى الى هذه الشجرة ، ما أطيب ريحها ، وأطيب طعمها ، وأحسن لونها ! فأكل منها آدم ، فبدت لهما سوءاتهما ، فدخل آدم في جوف

الشجرة فناداه ربه : يا آدم ، أين أنت؟ قال : أنا هنـــا يارب • قال : ألا تخرج ؟ قال : استحى منك يارب • قال : ملعونة الارض التى خلقت منهـا لعنة حتى تتـحول ثمارها شوكا •• ثم قال : ياحواء ! أنت التى غررت عبدى ، فانك لا تحملين حملا الا حملته كرها، فاذا أردت أن تضعى ما فى بطنـك ، أشرفت على المــوت مرارا • وقال للحية : أنت التى دخل الملعون فى بطنك حتى غر عبدى، ملعونة أنت لعنــة حتى تتـحول قوائمك فى بطنك ولا يكن لـك رزق الا التراب • أنت عــدوة بنى آدم ، وهم أعــداؤك ، حيث لقيت أحدا منهم أخــذت بعقبه ، وحيث لقيــك شدخ رأسك (٦٩) » •

وأما عبيد بن شرية ، فهــو الذى وصفه عمرو بن العاص لمعــاوية ، لما رأى شوقه الى المسامرة ، فقال له :

« لــو بعثت الى الجرهمى الذى بالرقة من بقايا من مضى ، فانه أدرك ملوك الجـاهلية ، وهو أعلم من بقى اليــوم فى أحاديث العرب وأنسابها ، وأوصفه لما مر عليه من تصاريف الدهر ، فبعث اليه معــاوية •• فاذا هو « شيخ كبـير السن ، صحيح البدن ، ثابت العقــل ، منتبــه ، ذرب اللســان كأنه الجدع » • وقد أصــاب فى قلب معــاويه شيئا ، فكان يرتاح اليه ، ويبدى اعجـابه • فمرة يقــول له : « زادك الله علما وفهما ، وزادنا بك رغبة ، وعليك حرصا، فانا لاتخفى أياديك ، فزادك الله فضلا الى فضل ، وهدى الى هدى ••• » وأخرى يقول له : « يا عبيد انك لتــحدثنى عجبا ، ما شفانى عنهم وعن أخبـارهم ، وما كان منهم ، أحد غيرك •• »

ومنهج عبيد فى قصصه متزن الى حد ما ، فهو لا يشطح مع الخيال كمــا يفعل وهب ، وهو لا يحابى معاوية فى قصصه • وقد صرح بمنهجه قبل أن يبدأ فى القص أمام معــاوية وخاصته ، اذ قال لمعاوية :

« يا أمير المؤمنين ، لك فى غير هذا الحديث ما يقصر ليلك ، وتلذ به فى نهارك ، فان فيه ما تهوى ، وما لا تهــوى ، ومغضبة وشغفا للملوك ، ونعش المودة » ولكن معاوية أصر على الحديث وأعطاه هو وخاصته الامانة ••

ولعله من الطريف أن نقــارن بين تيجان وهب ، وأخبار عبيد ــ وقد جمعهما الناشر فى مجلد واحد ــ فالكتابان يعالجان موضوعا واحدا ، اذ التيجان فى ملوك حمير ، والاخبار فى اليمن •

وأدنى تصفح للكتابين يلفتنا الى أن عبيدا لم يكن مجنح الخيال ولا غريب الاخبار ، كما هو الشأن عند صاحبه وهب • ولعل السبب فى هذا أن عبيــدا كان فى ادراكه انه يقص أمام معاوية وخاصته ، ومعاوية ــ كما عرفنا ــ كان عالما بسير العرب وأخبارها ، وأكثر من مرة كان يحاور عبيدا فى أخباره ويسأله •

وهاك نموذجا من أســلوب عبيد ، تحت عنوان « **حديث هلاك عاد** » يتبين فيه منهجه فى التؤدة والاستدلال على كلامه ، ويتبين فيه محاورة معاوية ومراجعته له :

« وكانت عاد عشر قبائل ، وكانوا عربا ، وكانت مساكنهم الاحقاف ، وهى الرمال التى بين حضرموت وبحر عدن وذلك قول الله تعالى: « واذكر أخا عاد اذ أنذر قومه بالاحقاف » • وكانوا قد كثروا وانتشروا فى البلاد من أرض اليمن كلها وما قاربها من البلاد ، وقسوا فى البــلاد ، وكان الله قد أعطـاهم بسطة فى الجسم، وقوة فى الابدان ، وسعة فى الارزاق، ومهلا فى الاعمار ، لم يعطه أحدا فى الخلق من بعد قــوم نوح ، وذلك قول الله عز وجل : « وزادكم فى الخلق بسطة » وقال سبحانه : « أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون » فكفروا بربهم وطغوا بمافضلوا به على غيرهم فأفسدوا فى الارض وعتوا عتوا كبيرا ، واغتروا بجهلهم وقالوا لنبيهم : ان هــذا الا خلق الاولين • وقال الله عز وجل : «وأما عاد فاستكبروا فى الارض بغير الحق ، وقالوا : من أشد منا قوة» الآية •

فلمــا كثر عتوهم وكفرهم وظهرت فيهم المعاصى بعث الله بينهم هودا صلى الله عليه وسلم حجة عليهم لينــذرهم ، وبعثه اليهم ، وكان من أوسطهم بيتا وأكرمهم حسبا وأعزهم رهطا ليمنع من سفاهتهم ، حتى يبلغ رسالات الله •

قال : صدقت يا أخا جرهم ، فهل تعرف أحدا من شعراء العرب ، ذكر هودا فى شعره

وان فى كتاب الله لشفاء من العمى وبيانا من الجهالة ونحب أن تزداد ، فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

ان من الشعر لحكمة .

قال عبيد : يا معاوية ، قال فيه حسان بن ثابت الانصارى .. الخ (٧٠)

هؤلاء هم أشهر المفسرين الذين نزعوا نزعة قصصية ، وأمثال هؤلاء المفسرين هم الذين وصف **ابن خلدون** كتبهم ومنقولاتهم بأنها تشتمل على الغث والسمين ، والمقبول والمردود لأنهم رجعوا فيها الى أهل الكتاب الذين كانوا يسكنون البادية ، ولا يعرفون من ذلك الا ما تعرفه العامة ، ولم يتحرج المفسرون فى الأخذ عنهم لأنها أمور لا تعلق لها بالأحكام الشرعية التى يحتاطون لها ، مثل : أخبار بدء الخليقة ، وما يرجع الى الحدثان والملاحم .. الخ (٧١) . فالأمر لا يعدو ناحية قصصية يراد بها الوعظ والتذكير .

قال داود بن أبى هند للفضل بن عيسى الرقاشى : « لولا أنك تفسر القرآن برأيك ، لأتيناك فى مجلسك ! قال : فهل ترانى أحرم حلالا وأحل حراما ؟ وانما كان يتلو الآية التى فيها ذكر النار والجنة والحشر والموت وأشباه ذلك » (٧٢) .

وهذا القصص الدينى ارتبط بالوعظ ، لدرجة أن المؤلفين بعد ذلك كانوا يعنونون للوعظ والقصص بعنوان واحد ،يقول الحصرى: « فقر من كلام المتصوفة والزهاد والقصاص » (٧٣) .

ويبدو من كلام بعض المؤلفين أن كلمة « قصة » قد أصبحت ترادف عندهم كلمة « وعظ » . « قص قاص فقال : اذا مات العبد وهو سكران ، دفن وهو سكران ، وحشر وهو سكران » (٧٤) . والفضل هو الذى يقول فى قصصه : سل الأرض ، فقل . من شق أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك فان لم تجبك حوارا لاجابتك اعتبارا » (٧٥) .

فمن هذين النموذجين نرى أن كلمة « قاص » تعنى كلمة « واعظ » وأن كلمة « قصصه » تعنى « وعظه » ، ولهذا لم يبعد **الدكتور شوقى ضيف** حين جعل هذا النوع من القصص يدخل فى الخطابة الدينية ، فقد تكلم عن أنواع الخطابة فى العصر الاموى ، وأن نوعا منها يسمى « الخطابة الدينية » ،وتعتمد على القصص والوعظ ، وأخذت فى الظهور منذ عهد عثمان ، اذ كان تميم الدارى يجلس فى المسجد الجامع فيحاضر الناس بهذا اللون من القصص والوعظ (٧٦) .

وانتشرت قصص الوعظ فى العصر الأموى انتشارا واسعا ، فتحت عنوان «ذكر القصاص» يورد الجاحظ أسماء كثيرة ، ألاحظ فيها كثرة الأعلام التى وجدت فى العصر الأموى مثل : **الأسود بن سريع** ، وهو الذى قال :

فان تنج منها تنج من ذى عظيمة
والا ، فانى لا اخالك ناجيا

والحسن ، وسعيد بن أبى الحسن ، وجعفر ابن الحسن ، وهو أول من اتخذ فى مسجد البصرة حلقة واقرأ القرآن فى مسجد البصرة، وابراهيم التيمىوقد جلس اليه عبد اللهبنعمر وقد أقرته كذلك عائشة ولم تنكر عليه ، ثم من هذيل مسلم بن جندب وكان قاص مسجد النبى بالمدينة ، وكان أمامهم وقارئهم ، وفيه يقول عمر بن عبد العزيز :

« من سره أن يسمع القرآن غضا ، فليسمع قراءة مسلم بن جندب » (٧٧) .

وهناك أسر اشتهرت بهذا النوع منالقصص كالأسرة الفضيلية التى تنسب الى الفضل بن عيسى الرقاشى ، وقد قال عنهم أبو عبيدة :

« وكان أبوهم خطيبا ، وكذلك جدهم ، وكانوا خطباء الأكاسرة ، فلما سبوا وولد لهم الاولاد فى بلاد الاسلام ، نزعهم ذلك العرق (٧٨)

والدكتور شوقى ضيف يرى أن الخطابة الدينية التى تعتمد على القصص والوعظ ، نمت فى هذا العصر ، ولكن لا فى المدينة ، وانما فى العراق والشام « أما العراق فتجد فيه الحسن البصرى ومعبدا وواصل بن عطاء ، ويزيد بن أبان الرقاشى ، **وابن أخيه الفضل** ابن عيسى ، وأما الشام فاشتهر فيها غيلان والأوزاعى » . ثم يرى أن العراق اشتهر بهذا النوع أكثر من الشام الذى « قلما عنى بالوعظ الدينى ، وقد قتل هناك غيلان الواعظ ولم يخلف تلاميذ ولاحركة تشبه حركةالبصرى نظيره فى العراق » . ويعلل لاشتهار

العراق بذلك الجانب ، بأن الناس فيه « يائسون من حياتهم لكثرة حروبهم ، وهم يائسون من أملهم في الملك والخلافة ، وهم يأس أعد لارتفاع هذه النغمة الواعظة الزاهدة » (٧٩) .

على أنا اذا اتخذنا اليأس من الحياة ومن الأمل مقياسا ! فان المدينة أحرى بان تعانى هذه النغمة الواعظة الزاهدة ، فهى أشد يأسا من العراق ـ الذى انتشرت فيه الاحزاب السياسية المعارضة ـ فقد كانت مركز الحكم الاسلامى ثم انتزعته منها الشام قهرا واستبدادا، واستعمل معها الأمويون أفانين العذاب والاضطهاد والقتل . والحجاز (مكة والمدينة) مربع أهل البيت ، الذين يرون لانفسهم الحق فى قيادة المسلمين ، وقد أخذ منهم هذا الحق . وبالفعل عرف الحجاز ـ بالنسبة لتلك الظروف ـ اليأس ، وانتشرت فيه النغمة الواعظة الزاهدة . وقد ذكر هذا أيضا الدكتور شوقى فى نهاية كتاب آخر له هو « الشعر الغنائى فى الأمصار الاسلامية » (٨٠) . على أنه اذا كان قد عدد أسماء القصاص والوعاظ فى اقليم العراق ، فاننى من جانبى أذكر بعض أسماء القصاص والوعاظ فى اقليم الحجاز . مثل : عبيد بن عمير الليثى الذى جلس اليه ابن عمر ، وأقرته عائشة ، ومسلم بن جندب وكان يلقى فى مسجد النبى عليه السلام ، وقد أخذ عنه طاووس بن كيسان التابعى ، وهو من الأبناء ، وتوفى سنة ١٠٦ هـ وروت الرواية عنه ابنه عبد الله (٨١) .

على أن بعض القصاص انحرف بهذا اللون من الوعظ ، استهواء لقلوب العامة ، فقد كانوا يفصلون فى القصص التى تثيرهم وتستهويهم كقصة داود الذى أحب امرأة أوريا فبعثه الى القتال ، حتى قتل وتزوج امرأته . وكان القصاصون يذكرونها حين الحديث عن الآية « ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة، ولى نعجة واحدة » (٨٢) . ويروون عن الأعمش المحدث (توفى سنة ١٤٨ هـ) أنه كان يلجأ الى الغرائب ليجذب قلوب العامة . فكان يقلب الفرو ويلبسه حتى يكون صوفه الى خارج ، ويطرح على عاتقه منديل الخوان مكان الرداء ، وسأله رجل مرة عن اسناد حديث ، فاخذ بحلقه وأسنده الى الحائط وقال : هذا اسناده .. والأعمش هو القائل فيمن كانوا يسمعون منه : والله لا يأتون أحدا الا حملوه على الكذب (٨٣) .

وبعض هؤلاء القصاص كان يتخذ هذه القصص وسيلة للكسب ، يشبهون ما كنا نراه من عهد قريب فى ريفنا المصرى ، فقد كنا نرى المداحين يطوفون حول البيت ، يستجدون الناس ، ويحدثونهم عن معارك « أبو زيد الهلالى » وبطولة « الزناتى خليفة » .. الخ .. وقد سخر الجاحظ من هؤلاء القصاصين تحت عنوان « باب أن يقول كل انسان على قدر طبعه وخلقه » فقد قال : وقيل لطفيلى : كم اثنين فى اثنين ؟ قال : أربعة أرغفة . وقال **الفلاس القصاص : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ثلثمائة وستين درهما »** .

وقد تتابع القصاصون ـ بعد ذلك ـ الذين كانوا يعمدون الى الكذب والاختلاق ، فغير بعيد أن « أبو على الأسوارى » كان يلجأ الى مخيلته ، لأنه ـ كما يقول الجاحظ ـ كان بفسر آية واحدة فى عدة أسابيع ، ولن يستطيع هذا الا اذا كان ذا خيال واسع . وحين دخل سفيان بن حبيب البصرة ، وتوارى عند مرحوم عطار « من أصحاب الحديث ، وكان فى أواخر القرن الثانى) ـ « قال له مرحوم : هل لك أن تأتى قاصا عندنا ، فتتفرج بالخروج والنظر الى الناس والاستماع منه ، فأتاه على كره كأنه ظنه كبعض من يبلغه شأنه . فلما أتاه وسمع منطقه ، وسمع تلاوته للقرآن ، وسمعه يقول : حدثنا سعيد عن قتادة ، وحدثنا قتادة عن الحسن ـ رأى بيانا لم يحتسبه ، ومذهبا لم يكن يدانيه ، فأقبل سفيان على مرحوم ، فقال : « هذا ليس قاصا هذا نذير » (٨٤) .

بعد هذا أستطيع أن أفرق بين نوعين من القصص : قصص العامة ، وقصص الخاصة . ومن الروايات السابقة يمكننى أن أقول : ان قصص العامة هى ذلك النوع الذى كان يراد به استهواء قلوب العامة ، وكان يتخذ وسيلة للكسب ، فكثر فيه الحديث عن الغائب ، والأمور التى تجذب أفئدة العامة ، وخاصة

ما يتصل بحديث الحب والقلب ، كحب داود لامرأة أوريا ، ولم يكن القاص فيه يتقيد باسناد أو حقيقة ، بل كان همه ارضاء العامة، والتأثير عليهم ،والعامة - كما يقول المسعودى- « لا تراهم الدهر الا مرقلين الى قائد دب ، وضارب بدف على سياسة قرد ، ومتشوقين الى اللهو واللعب ، أو مختلفين الى مشعبذ منمس مخرف ، أو مجتمعين الى قاص كذاب»(٨٥)

« وقال الليث بن سعد : هما قصصان ، قصص العامة وقصص الخاصة ، فأما قصص العامة فهو الذى يجتمع اليه النفر من الناس يعظهم ويذكرهم ، فذلك مكروه لمن سمعه ولمن استمعه • وأما قصص الخاصة فهو الذى جعله معاوية ، ولى رجلا على القصص ، فاذا سلم من صلاة الصبح ، جلس وذكر الله عز وجل وحمده ومجده ، صلى الله عليه وسلم ، ودعا للخليفة ولأهل ولايته وحشمه وجنوده ، ودعا على أهل حربه وعلى المشركين كافة » (٨٦) •

وقد نفر الخاصة من هذا النوع ، يذكرون أن عليا كرم الله وجهه دخل مسجد البصرة ، يتعرف ماذا يقول القصاص ، فلما جاء الى حلقة « حسن البصرى » أعجب به وأجاز له أن يتحدث ، وأقصى عن المسجد من لم يره أهلا للقص على الناس (٨٧) •

ويعلق صاحب الكشاف على قصص العامة وعلى ما يروى من شان داود مع امرأة أو ريا - بقوله : « فهذا ونحوه مما يقبح أن يحدث به بعض المتسمين بالصلاح من أفناء المسلمين ، فضلا عن بعض أعلام الأنبياء • وعن سعيد بن المسيب والحرث الأعور أن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القاص ، جلدته مائة وستين • وهو حد الفرية على الأنبياء » (٨٨) •

٦ - ومن القصص التى كانت موجودة فى العصر الجاهلى ! ولكنها تنوعت ودخلت فيها عناصر جديدة - **قصص الحب والعشق** •

فقد عرفت هذه القصص ، فى العصر الأموى - ولظروف اجتماعية واقتصادية واقتصادية وسياسية - تنوعت وملأت الحجاز حواضره وبواديه •

وفى هذا العصر اشتهر كثير من القصاص يقصون قصص الحب ، ويرجع اليهم الناس فى أخبار العشاق ، وحكايات المحبين •

فعمر بن أبى ربيعة كان قصاصا ، كما يبدو فى ديوانه ، وفى مذهبه الشعرى الذى اتخذه فى قصائده ، وكما يتضح من الحلقات التى كان يجلس اليها يقص أخبار العذريين (٨٩) ، ومن القصص التى كان يرسلها دعاية لفنه وترويجا لشعره (٩٠)•

وجميل يسأله عبد الملك أن يحدثه أحاديث عذرة ، فانهم أصحاب أدب وغزل ، فيقص عليه قصة عذرية (٩١) •

والفرزدق كان ذا نزعة قصصية فى أدبه وراوية للقصص ، ويبدو ذلك فى شعره وفى الحكايات التى كان يرويها ، كحكاية يوم الغدير التى قص فيها على نسوة حديث داره جلجل (٩٢) ، وكحكايته عن بنت الضحاك مع عمرو (٩٣) •

وشهاب بن حرقة السعدى يقص على الحجاج قصة عاشق يسكن الصحراء بعيدا عن الناس، فيعفو عنه الحجاج وكان قد أزمع على قتله لخروجه عليه (٩٤) •

وعروة بن الزبير يسأل رجلا من بنى عذرة أن يحدثه أحاديث عذرة لأن فيهم رقة وغزلا (٩٥) •

للبحث بقية

(١) المجلة (أبريل سنة ١٩٦٧) •
(٢) الاصابة ١٩١/١
(٣)التيجان ٢٣٠ - ٢٠٩
(٤) مصارع العشاق ص ٩٥
(٥)طبقات الشعراء ص ١٥٧
(٦) تزيين الأسواق ١١٥/١
(٧) الاتقان ٢١٥/٢
(٨) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢٥٢/١
(٩) معجم الأدباء ٧٨/١٢
(١٠) وفيات الأعيان ٨٨/٥
(١١)الاعلام بالتوبيخ ص ٤٨
(١٢) بروكلمان ٢٥٢/١
(١٣) الاغانى ١٩/١٩ (ساسى)
(١٤) الاعلام بالتوبيخ ص ٨٨
(١٥) نشأة التدوين التاريخى ص ٤٨
(١٦)الاعلام بالتوبيخ ص ٨٨
(١٧) تاريخ الطبرى ٢٦٧/١
(١٨) المرجع السابق ٢٧٨/٢

(١٩) فجر الاسلام ص ٢٤٢
(٢٠) المزهر ٢/ ٣١٤
(٢١) التيجان ص ١٨٧
(٢٢) التحفه البهية ص ٣٨
(٢٣) أخبار عبيد ص ٣١٤
(٢٤) المرجع السابق ص ٤٧٢
(٢٥) المرجع السابق ص ٤٢٥
(٢٦) مروج الذهب ٢/٧٢
(٢٧) قصص الحيوان ص ١١٣
(٢٨) مروج الذهب ٢/٧٢
(٢٩) العقد الفريد ٣/٣٤٧
(٣٠) المحاسن والأضداد ص ٢٠٢
(٣١) التحفه البهية ص ١٧٩
(٣٢) مروج الذهب ٢/٧١
(٣٣) أخبار عبيد ص ١٣٢
(٣٤) التحفة البهية ص ١٨٩
(٣٥) مروج الذهب ٢/١٠٩
(٣٦) ثمرات الأوراق ص ٧٦
(٣٧) التاج للجاحظ ص ١٣٠
(٣٨) مروج الذهب ٢/١٦٣
(٣٩) المرجع السابق ٢/١٨٦
(٤٠) ثمرات الأوراق ص ٧٦
(٤١) مروج الذهب ٢/٢٠٢
(٤٢) أخبار النساء ص ٧٢
(٤٣) مروج الذهب ٢/١٣٨
(٤٤) المحاسن والاضداد ص ١٧٥
(٤٥) خطط المقريزى ٢/٢٥٣
(٤٦) حسن المحاضرة ٢/٩٦
(٤٧) خطط المقريزى ٢/٢٥٥
(٤٨) تاريخ آداب العرب ١/ ٣٩٧
(٤٩) العقد الفريد ١/٤
(٥٠) المقدمة ص ٤٣٩
(٥١) أمثال الميدانى ٢/٦١
(٥٢) مروج الذهب ٢/١٢٩
(٥٣) العقد الفريد ١/٢٤٨
(٥٤) بلوغ الأرب ٢/٣٦٤
(٥٥) العقد الفريد ١/٢٤٩
(٥٦) تاريخ الطبرى ٢/٢٨٣
(٥٧) مروج الذهب ٢/١٣١
(٥٨) المرجع السابق ٢/١٥٦
(٥٩) المرجع السابق ٢/١٥٥
(٦٠) المرجع السابق ٢/١٤١
(٦١) الأغانى ٣/٥٤ – ٧٠ (دار الكتب)
(٦٢) المقدمة ص ٤٣٩
(٦٣) المقدمة ص ٤٣٩
(٦٤) فجر الاسلام ص ١٨٧
(٦٥) تفسير الطبرى ١/٤٢٩
(٦٦) تاريخ ابن كثير ١/٨٧
(٦٧) وفيات الأعيان ٥/٨٨
(٦٨) تفسير الطبرى ١/٢٠٩ – ٢٥٧
(٦٩) تاريخ الطبرى ١/٥٤
(٧٠) أخبار عبيد ٣١٤ – ٤٨١
(٧١) المقدمة ص ٤٣٩
(٧٢) البيان والتبين ١/١٦٠
(٧٣) زهر الآداب ٣/١١٣
(٧٤) أخبار الظراف ص ٩٠
(٧٥) البيان والتبين ١/١٦٧
(٧٦) الفن ومذاهبه ص ٢٢
(٧٧) البيان والتبين ١/١٩٥
(٧٨) المرجع السابق ١/١٦٧
(٧٩) الفن ومذاهبه ص ٢٢ – ٢٣
(٨٠) الشعر الغنائى ١/٣٠٦
(٨١) البيان والتبين ١/١٩٥
(٨٢) سورة ص ، آية / ٢٣
(٨٣) تاريخ آداب العرب للرافعى ١/٣٩٥
(٨٤) البيان والتبين ٢/٨٩ – ١٩٧
(٨٥) مروج الذهب ٢/٧٤
(٨٦) خطط المقريزى ٢/٢٥٣
(٨٧) احياء الغزالى ١/٣١
(٨٨) تفسير الكشاف ٢/٢٤٧
(٨٩) العقد الفريد ٦/٤٥٦
(٩٠) المحاسن والاضداد ص ٢٢٢
(٩١) أخبار النساء ص ٣٤
(٩٢) الأغانى ١٩/ص (ساسى)
(٩٣) الزهرة ص ١٦١
(٩٤) المحاسن والأضداد ص ٧١
(٩٥) أخبار النساء ص ٣٥

حفنة من كلام

دكتور نعيم عطية

تفاؤل

مضى الضفدع يقفز عبر الجداول والحقول والطرق الوعرة والسهول ، غير آبه بسخرية الساخرين • ولا بنصح الناصحين ، قاصدا روما ليضحى مغنيا ، رغم أن روما مليئة بالمغنين •

قبل أن أرحل

قبل أن أرحل
أردت أن أخط اسمى
على أرض راسخة
حتى أعود
على الرمال
عند الشط
كتبته
ورحلت •

الاناء

ينظر ابنى الى السمكة الحمراء
تسبح •
فى الاناء الزجاجى ••
ويضحك
عندما
تلصق وجهها
بالجدار ••
واربت
على كتفه الصغير
واجيل البصر
من حولى
محدقا •
ترى
هل
ينظر
الينا
بدورنا
من خلال
انائنا
هذا الكبير ؟
ترى
من
خلف الجدار
يرقبنا ويضحك ؟
وانحنى
واحملق
مع ابنى الصغير
فى السمكة ••
ياالهى ، تلك النظرة
المذعورة
الغبية •• كم هى انسانية !

المنزل القديم

الحوائط بيضاء .. بيضاء
عالية
لا نوافذ
الغرفة فسيحة .. فسيحة
كأنها بلا حوائط
جرداء
لا نوافذ

وسطها
وسط الغرفة البيضاء
على الأرض
مصباح أصفر
وكتاب مفتوح
واريج يفوح
من وردة صامتة
حمراء
في الاناء
ذابلة

أشكال متداخلة

عروس ميتة
طرحة متربة
بشرة صفراء باهتة
عينان مفعمتان بأطياف المعاناة وبذكريات متع غابرة .

حبيبة حالمة
قلبها لا يخفق
تمشى الهوينى .. على ايقاعات الدفوف الصاخبة .. وتنزل الدرجات الرمادية وحيدة بخطى ثابتة
مخيفة .

ثم تغلق النوافذ
وتسدل الستائر
فهذه ليلة عرسها
ليلة العناق
ليلة العذاب
ليلة القبل
ليلة اللقاء بالحبيب
والفناء .

الصخر

ليوم غلبني الموج . أخضعني له . ركبني ، وأذلني .
لكن
غدا
سيهدأ الريح ، ويفتر الغضب .
وعندئذ
سيركع ذلك العنيف .. الموج .. عند قدمي .. مثل قط أليف .
واذا هب الريح ، بعد غد ،لايهم ، فايام الهزيمة تنقضى ، ويأتى الانتصار ، .تعلو هامتى ، فالصخر يصفح ، ولا يلين .



الآله والإنسان في هيبوليتوس

بقلم : كمال ممدوح حمدى

كان المثـــل الذى عرضته « ميديا » لامرأة أعمت عاطفتها – ربما فى نزق فى البداية – عقلها فتحولت الى شيطان يستمد وجوده من الدم المسفوك ، تربد عاطفة الحب وتعربد فى اغوارها – عندما تدرك ما وقع عليها من ظلم – ثم تطفو الى السطح بغضاء قاتمة السواد ، أما المسرحية التالية – هيبوليتوس – فتعرض مثلا آخر لامرأة يجرفها الحب أيضـا فى قســوة متناهية ولكنها تظل طاهرة نقية الى النهاية ، امرأة طاهرة نقية ولكنها أيضا – فى تعبيرنا الحديث – متأججة الانوثة (١) .

عرضت مسرحية هيبوليتوس (٤٢٨ ق.م) بعد ميديا بثلاث سنوات ، وفازت بالجـائزة الاولى من جانب الحكام الرسميين ، وقد بلغت من الروعة حدا جعلها تدعم مكانتها وترسخ فى قمة اعجاب الاجيال التـالية ، فألهمت سنكا وراسين أروع عمل لكل منهما (٢) .

وموضوع هـذه المسرحية مستلهم من قصة قديمـة عرفت فى مصر ، وترددت فى اسفار موسى الخمسة . كان ثسيوس – ليس فى هذه المرة ذلك الديموقراطى الذى يتربع على عرش أثينا ، وانمـا البطل المغوار الذى اتخذه الشعراء رمزا للشجاعة والاقـدام ، كان هذا البطـل قد قهر قوما حاربهم وسبى مليكتهم العذراء ، ثم ماتت الملكة وتركت ابنا جميلا حمـل اسـمها « هيبوليتوس » (٣) وتزوج

❋ تنشر هذا المقال استكمالا للبحث الذى نشرت أجزاء منه بعنـوان «يوربيديس وعصره» فى «المجلة» الاعداد ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ . ويقدم هذا الجزء مثلا آخر – بعد ميديا – لمرحلة النضوج فى فكر يوربيديس المأساوى . وربما كانت هيبوليتوس هى نقطة التحـول فى فكر يوربيديس وانتقاله من مرحلة النضوج الى مرحلة أكثر نضوجا يمكن أن نسميها مرحلة الاكتمال أو اكتمال التعبير .

ثسيوس بفيدرا ابنة مينوس ملك كريت التى انتقلت مع زوجها من أثينا بعد ذلك لتعيش فى ترويزن حيث يقيم الامير الشاب هيبوليتوس ·

تبدأ المسرحية بمشهد أمام منزل ثسيوس ـ ملك أثينا ـ في ترويزن ، حيث تقف الالهة أفروديتا لتلقى أشعار المقدمة التى تعرض فيها تشكواها من أن هيبوليتوس بن ثسيوس يزدريها فى حين يعلى الالهة العذراء أرتميس ربة الصيد ويحترمها ، ولهذا فهى عاقدة عزمها على القصاص لتثبت لهذا المتمرد العاصى أن للحب قوة وجبروتا دونهما أى قوة ، وخطتها أن تضرم فى قلب فيدرا نيران حب آثم يجعلها تهيم بهيبوليتوس ، وفى تصورها أن ثسيوس الزوج عندما يعلم بأمر هذا الحب سيذيق الردى فى سورة من الغضب لهذا الابن الفاسق · ويدخل الامير فى رفقة لفيف من صحابه عائدين من رحلة صيد فينحنى فى اجلال واكبار أمام تمثال الربة ارتميس ثم يخلع عليها تاجا من أكاليل الغار ويتوجه اليها بصلاة ودعاء جميل دون أن يلقى بالا الى أفروديتا · ثم تدخل الجوقة مكونة من نساء ترويزن ، أتين يسألن عن فيدرا الحزينة · وتدخل فيدرا فى صحبة وصيفتها التى تحاول أن تثلج صدرها وأن تكبح جماح رغبتها فى ارتياد مناطق صيد الوحوش ، ومن حديث الوصيفة مع سيدتها تتبين أن فؤادها يكتوى بحب هيبوليتوس · وتهدأ السيدة قليلا ثم تدفعها الرغبة فى القاء بعض أرزاء قلبها عن كاهلها الى التعبير عن صراعها بين الرغبة والكبت ، ·· « عندما تتمنع على المرء المآرب ، وتطوى أطياف السراب أحلام الظفر ، يقهر أمل الخلاص بالموت كل نداء للرغبة فى الحياة» ولهذا أضربت فيدرا عن الطعام · وتسرع الوصيفة الى اسداء النصح ·· لماذا تغالب فيدرا نداء غرائزها ، ان الآلهة أنفسهم قد أخطأوا وحملوا الأوزار وهم يخوضون تجارب الحب ، والحب داء دواؤه الاستسلام · وتثور ثائرة فيدرا فتنهر وصيفتها فتنشر الاخيرة بعض الغموض حول حديثها السابق مدعية

انها لم تكن تعنى بالضبط ما قالت ، ثم تتغنى الجوقة بسطوة الحب التى لا تقهر · وتسمع الملكة ـ فى وقفتها الى جوار الباب ـ هيبوليتوس يحاول أن يستطلع من الوصيفة أسرار حب الملكة فينتابها الذعر وتدرك أن لا أمل لها الا الموت · ويدخل هيبوليتوس مهددا متوعدا فى هياج وجنون أن يطوح بوعده للوصيفة بأن يتكتم خبر هذا الحب ، معلنا أنه سيذيع السر « فلقد أقسم اللسان ، ولم يقسم الجنان

Hê glôssa omômoche hê de phrên anômotos.

(٦١٢) ، ويصب جام غضبه على النساء جميعا ولكنه فى النهاية يؤكد أنه سيحفظ الوعد الذى قطعه على نفسه · أما فيدرا فتعلن انها لن تكون مصدر خزى لأسرتها وغاية ما ترجوه من نساء الجوقة أن يحفظن هذا السر بعد أن تقضى نحبها ، ثم تخرج بعد أن تتوعد هيبوليتوس ـ فى مواربة ـ بسوء المصير · وتعرب نساء الجوقة عن أمانيهن فى أن يتحررن من هذا العالم الملىء بالآثام والآلام ، مرددات أن مصدر هذه الآلام لعنة ولا شك أتت بها فيدرا من منزلها فى كريت ، « بلد الحب الفظيع » · وها هى تدور عليها وتشد عنقها الجميل المترفه الى حبل المشنقة · ويدخل رسول ليعلن أن الملكة قد شنقت نفسها ، ويعود ثسيوس فيفجعه نبأ موت زوجته ثم يلقى نظرة على يدها فيجد خطابا فى قبضتها ، وعندما يفضه ينتابه الذعر فيطلق صرخة مخيفة يعلن أن هيبوليتوس قد خان أباه ، وانتهك حرمة الرباط المقدس بينه وبين زوجته فيدرا ، ويستصرخ أباه الاله بوسيدون ـ الذى كان قد وعده أن يحقق له ثلاث أمانى ـ أن يهلك الخائن هيبوليتوس ، ثم يعود الامير من الخارج فتنهال عليه اتهامات أبيه دون أن يملك لها دفعا بارا بوعده ، فيستدير للخلف ويخرج تشيعه لعنات أبيه بينما تبدى الجوقة عجبها من تصرفات السماء الغريبة · وبعد أن ينتهى نشيد الجوقة يعود أحد رفاق هيبوليتوس ليعلن للملك أن ابنه فى سكرة الموت ، فقد أرسل الاله بوسيدون ثورا فظيعا خرج من البحر فافزع جياد هيبوليتوس فالقت به تحت

حوافرها ، ويتهلل وجه ثسيوس وترسم البشاعة التى يرحى بها وصف هذه الحادثة ابتسامة نصر رتشف على شفتيه ، لكن الالهة أرتميس تظهر فجأة لتبرىء ساحة صديقها وتكشف عن الحقيقة فيكاد الالم يعتصر قلب الأب المفجوع ويطوى روحه بين براثنه ، ثم يدخل هيبولينوس محمولا على الاكتاف ينعى حظه العاثر وقدره القاسى الذى ساقه الى هذا المصير دون اثم أو ذنب ، «كانت روحى عذرية طاهرة» سطر (١٠٠٦)

Parthenon psychên echôn.

وكانت فيدرا « امرأة عاطفتها آثمة ولكنها ظلت طاهرة الروح ، وقد كنت نقيا فانظر الى أى مصير نساق » (سطر ١٠٣٤ ومابعده) .
وتختفى ارتميس ويتبادل الاب والابن حديثا بالغ التأثير يلفظ بعده الابن آخر انفاس الحياة بين أحضان أبيه(٤) .

***

تختلف هذه المسرحية عن « ميديا » فى نواح كثيرة(٥) ، فهى تتميز ببساطة بنائها العادى المألوف ، وبالتالى فهى تخلو من الشخصيات المقحمة التى لا يخضع وجودها لمبدأ الضرورة والاحتمال *To eikos ê anankaion* والتى كان يلجأ اليها يوربيديس عندما تتعقد الاحداث فلا يجد لها حلا كمروز ايجيوس فى « ميديا » وكظهور العربة السحرية كنوع من « الاله من الآله *Deus ex machina* » فى نهاية المسرحية ، وتتميز هيبوليتوس بالبساطة كذلك فى رسم الشخصيات مما أتاح الفرصة لشاعرها أن يقدم فى فيدرا مثلا للشخصية المأساوية ربما لم يتحقق له فى مسرحية أخرى من مسرحياته الباقية .

فعندما تطل علينا فيدرا فى بداية المسرحية نكاد نعتقد ــ لولا معرفتنا المسبقة ــ أنها مثل من ابداع سوفوكليس زج به على تلك الدرجة من التميز لينبهنا الى أننا بصدد عمل سوفوكلى ، ونكاد نرى أن المأساة فى هذه المسرحية هى مأساة فرد لما نراه من تصارع يجرى فى نفس تلك الشخصية بين الرغبة والرهبة ، أو بين الرذيلة والفضيلة ، بين الحب غير المشروع والرغبة فى صون العرض وكرامة الزوج ، غير أننا سرعان ما نتبين ــ من خلال الطريقة التى صاغ بها يوربيديس تصارع فيدرا بين عاطفتها وبين تطلعها الى الفضيلة والمثالية ــ أننا ازاء نمط من الابداع شديد الانتماء ، بمميزاته ، الى صاحبه .

عند سوفوكليس المأساة هى مأساة شخصية نبيلة تقع بين براثن الظروف فتسقط (الكترا يدفعها ولاؤها لابيها الى التآمر على أمها، أو انتيجونا يسوقها الولاء لاخيها الى العصيان والتمرد ، والايمان بقانون السماء يحضها على الاطاحة بالقانون الوضعى) والشخصية شديدة الادراك لموقفها مما يلهب الصراع فى نفسها بما يجلى أمامنا الموقف الدرامى فى وضوح ، وهى لا تلبث أن تحدثنا عن الظروف التى تكتنفها لتزيد الموقف الدرامى وضوحا . عند سوفوكليس نعرف الموقف الدرامى من خلال حدقة الشخصية نفسها وبالتالى فالمواقف تخضع للشخصيات .

وعند أيسخيلوس المأساة هى مأساة مواقف تخضع لها الشخصيات ويبقى اهتمام الشاعر بالشخصية رهن القدر الذى يتطلبه الموقف ، « والعنصر المأساوى » عنده « لاينهض من التصارع داخل العقل أو العاطفة ، وانما يأتى من أن أناسا يصدع التهور والعنف نفوسهم ، آثمين يقدمون على مزيد من الاثم بما يجلب عليهم مزيدا من الدمار » وكل ما يعنينا أن نرى الشخصيات على درجة من التهور والعنف بحيث يتناسبوا مع الموقف ، أما ما يدور بعقلهم وما يجرى فى وجدانهم ، فهو مسألة جانبية لاتعنينا كثيرا ، ولهذا لاينبغى مع أيسخيلوس أن نترك أنفسنا تتوه فى مسارب شخصية من الشخصيات وانما أن ننظر الى الموقف ككل (٦) .

أما عند يوربيديس فالامر يمضى على نحو آخر ، فالمأساة عنده ليست مأساة الفرد أو مأساة الموقف كما قد يبدو لاول وهلة ، وانما تتحول عنده الشخصيات والمواقف الى رموز لمعان كلية تنطوى عليها فكرة معينة ،لايعرضها الشاعر صراحة وانما تلوح من وراء الرموز ــ كما تبين لنا فى استعراض مسرحية « ميديا » ، وكما سنرى فى هذه المأساة « هيبوليتوس » ،

ولقد سبق الاشارة الى أن المسرحيات من ميديا الى هيراكليس تمثل مرحلة النضج فى فكر يوربيديس غير أنه ينبغى ألا نتوقع نتيجة لهذا النضج افصاحا عن أفكاره بل اخفاء لها ، وبقدر النجاح الذى يحققه يوربيديس فى اخفاء تلك الافكار وراء الرموز الظاهرة يحتسب المدى الذى وصل اليه فى مسيرته على طريق النضج واكتمال الفكر .

والحقيقة أن يوربيديس مدين بهذا الاكتمال لعصره الذى لم يسمح له بالحرية المطلقة فى التعبير عن أفكاره ـ بسبب العصبيات العقائدية التى نزهت ميثولوجيا العصر عن التطاول بالبحث أو المناقشة ـ مما ألجأ شاعرنا الى المواربة وتغليف الافكار بالرموز ، حين يطرح أفكاره عن الدين والآلهة .

ولا يعنى هذا أن أثينا القرن الخامس ق.م الحرية ووهبتها لهم بسخاء ثم حرمت عليهم قد ضنت بالحرية على بنيها . لقد هيأت الانطلاق معها هذه الحرية الى غايتها ، فحدث فى نفوسهم من شهوة الاندفاع المحموم مع اغراءات تلك الحرية بأن نصبت الى جوار الحرية سيدا على رقاب الجميع هو القانون الذى قدسوه كنعمة غالية تميزهم عن سائر الاجانب ـ والاجانب جميعا فى نظرهم قوم همج (٧) ، كما كانوا يسمونهم ، ومن Barbaroi الولاء للآلهة التى نزهها القانون ونزه سائر أمور الدين عن المناقشة ورفعها فوق كل فهم وادراك ،ونشأ عن هذا التقديس للقانون والدين حساسية فى النفوس مكنت الاعداء والحاقدين وذوى النفوس الضعيفة من الكيد لدعاة التحرر الفكرى الجرىء ، فكان من السهل أن يدين آثينى انسانا يكرهه وينال منه ، بمجرد أن يدعى أنه يثير الجدل حول الآلهة، أو يتطاول عليها بعدم الامتثال لاحكامها، أو أنه يؤمن ببعضها فيزجى لها بالصلاة ويقدم القرابين فى حين يهمل بعضها الآخر . وقد سمعنا عن كثيرين دفعوا حياتهم ثمنا لمحاولة مخلصة من هذا النوع ، أو ثمنا لادعاء ملفق فى أغلب الاحيان . ورأينا عددا غير قليل من المسرحيات التى يقوم الصراع فيها على رغبة الآلهة عندما تتعارض مع مصالح الانسان ، لعل اكثرها وضوحا مسرحية « انتيجونا » التى ظل خط الصراع فيها مشدودا ممددا من أول المسرحية الى آخرها ، قائما على تعارض قانون السماء مع القانون الوضعى ، وعلى أن الولاء لاحدهما امتهان للآخر . كانت هناك حرية غامرة الى جوارها عصبية متزمتة .

لهذا ينبغى أن نتابع مآسى يوربيديس وفى أذهاننا أن الافكار الاساسية التى يقدمها لنا الشاعر فى مسرحياته ليست هى تلك التى تتحدد أبعادها بحوار الممثلين ، وأن ثمة

مسرحية أخرى تجرى خلف المناظر والمشاهد وتطرح قضايا فكرية غاية فى الخطورة فاذا تهيأت أذهاننا لقبول هذه الحقيقة فلا ينبغى ان يصرفنا التمثيل والحوار المسموع والمشاهد المرئية وما تتطلبه مقتضيات الدراما من صراع ينمو ويتطور مع تطور الحدث ، ثم عقدة وتحول وتعرف ، أو تعرف وتحول وتطهير وسواه ، لا ينبغى أن تصرفنا هذه المقتضيات التقليدية عن متابعة الدراما الحقيقية التى تجرى خلف المشاهد المعروضة علينا ، وماتنطوى عليه هذه الدراما من أفكار وماتفجر من قضايا •

ولنحاول تجربة ذلك مع « هيبوليتوس » ، فلا يخدعنا مظهر فيدرا السوفوكلى الذى يشى به ما يتنازعها من صراع عنيف حاد ، ولا تلهينا الروعة التى حققها يوربيبيس بدقته واخلاصه فى تصوير هذا الصراع عن استشفاف مايجرى خلف هذه المسرحية •

السؤال الذى يراودنا أولا هو : لماذا قدم لنا يوربيديس بطله « هيبوليتوس » بالغ الفتور حتى أننا نكاد نحس بأن هذا البطل لايصلح مادة درامية ، فهو لا يصبح شخصية درامية الا كرد فعل للأثر الواقع عليه من « فيدرا » ، أو قل انه ليس شخصية درامية الا بقدر ما هو موضوع لاثر خارج عنه يأتيه من « فيدرا » ؟ •

فى الجزء الاول من المسرحية يبدو هذا الفتور مناسبا ، ويبدو الجو الرومانسى الذى وضعه فيه يوربيديس عقب عودته من رحلة الصيد ضروريا وبالغ الاهمية لتنشيط الحركة الدرامية ولتطوير الحدث فيما بعد ، غير أن هيبوليتوس فى الجزء الاخير من المسرحية يبدو بسلبيته البالغة شخصية مخيبة للامل ،لايفعل شيئا الا أن يدافع عن طهارته الغابرة كثيرا فحسب (سطر ١٠٠٦) •

ونتساءل أيضا : لماذا تختفى « فيدرا » فى الجزء الاخير من المسرحية وقد كانت شخصية قوية متفردة متسلطة فى بادىء الامر ؟

لو أنها ظهرت فى نهاية المسرحية لافادت المقابلة بينها وبين « هيبوليتوس » فى تجسيد مأساة كل منهما وتأصيل الأثر الذى تطبعه المسرحية مى نفوسنا عندما نشهد مأساة فرد خاصة تطوى معها ضحية بريئة ، وعندما نرى القوتين مجسدتين فى «فيدرا» و«هيبوليتوس»، الاولى فى محاولتها المستميتة للايقاع بفريستها ،والاخير فى محاولته اليائسة للافلات من الشرك ، وكان بمقدور الشاعر آنذاك أن يفيد من المواجهة بين « فيدرا »و«هيبوليتوس» فى تجسيد الصلة بين مأساتها ومأساته ، غير أننا نجد أن «فيدرا» قد اختفت فى الجزء الاخير ، واختفت معها المقابلة الدرامية بينها وبين « هيبوليتوس » ، بل اننا لا نكاد نشعر بأثر لتلك الشخصية يشير اليها بعد اختفائها فلا يتردد اسمها عندما كان يتحتم وجودهما ليوحى بحضوريتها وقوة تأثيرها ، ولا يطبع موتها أثرا فى عقل «هيبوليتوس» ، فلا نراه يشفق عليها ، ولا يحس ازاء موتها بأى نوع من وخز الضمير ، بل انه لا يحقد عليها أو يبغضها أو يلقى عليها ولو بلوم خفيف ٠٠ « كانت امرأة آثمة العاطفة لكن روحها طاهرة ٠٠٠ (سطر ١٠٣٤) » ٠٠ وكفى •

ان اختفاء هذه المقابلة بين الشخصيتين الرئيستين فى المسرحية يكاد يبتر الصلة بينهما لولا الحيلة الآلية التى لجأ اليها يوربيديس عندما جعل « فيدرا » تمسك فى يدها بخطاب تقول فيه ما كان ينبغى أن تقوله فى حضرة « هيبوليتوس » ، وهذا الخطاب هو الذى قام بدور حلقة الوصل بين مأساة « فيدرا » ومأساة « هيبوليتوس » •

ويثير اختفاء فيدرا فى النهاية ، وسلبية « هيبوليتوس » تساؤلنا من جديد : اذا كانت « فيدرا » شخصية زاخرة بكل هذه الطاقة المأساوية كما بدت فى أول المسرحية فلماذا لم يشد يوربيديس كل المسرحية على تلك الطاقة ، فيجعلها تدور كلها حول مأساة هذه الشخصية، ويهتم بتصوير التصارع الذى يجرى فى نفسها بين الرغبة والكبت ، ثم يصور ما تلقاه - بسبب ذلك الصراع - من دمار وفناء ، دون

ان يشتت بواعث الاثر الانفعالى بين « فيدرا » و « هيبوليتوس » ، خاصه وأن سلبيه الاخير لاتخدم هذا الاثر ؟

ان هذه التساؤلات لاتزعم أن المسرحيه قد انتفت فيها الوحدة والترابط ، وان كانت لاتتردد فى اعلان ملاحظة أشد خطرا ، نرى من خلالها أن ايقاع المسرحية قدضل سواء السبيل، وتوجه الى طريق خاطىء عندما تحول عن « فيدرا » بطاقاتها الدرامية الهائلة ، وانصرف الى استحلاب نغمة جانبية يمثلها «هيبوليتوس» الذى لاتقدم حياته الخالية من الصراع - الا فى بعض اللحظات - مادة درامية ذات قيمة ، ومن العجيب حقا أن يهمل (يوربيديس) الكورس فى الجزء الاخير من المسرحية ، فلا ينطقه بكلمة واحدة عن (فيدرا) ولو فعل لاخفى ما قد يبدو من انقسام الوحدة الدرامية ، ولجمع شتات الاثر الانفعالى المبعثر ، وسدده نحو مأساة تلك السيدة ٠

وسؤال أخير : ما هو دور الالهات ٠٠٠ ؟ هل تكبد « يوربيديس » كل هذا العناء ليقول فى النهاية للآثينيين ان «أفرديتا» و «أرتميس» لا تستحقان العبادة ؟

الواضح أن يوربيديس لم يكن ينتوى أن يقيم مسرحيته على مأساة الفرد، أو أن يستنهض العنصر المأساوى فى تلك المسرحية من التقابل بين هيبوليتوس وفيدرا ، ولو كان ذلك قصده للجأ الى حبكة الموضوع الدقيقة التى تستمد عناصرتماسكها من منطقة الاحداث وتسلسلها، ومن حتمية النتائج ، وللجأ الى مباشرة المعالجة واستغنى عن الرموز ،وعن الغموض الذى نشره حول العمل كله ، وعن الالهات التى وقفت خلف أقنعة الشخصيات ، ولعل تساؤلنا عن سلبية هيبوليوس قد انطوى على كثير من التعسف ، وكذلك الحكم على الأبعاد الدرامية لتلك الشخصية ٠ انها شخصية ناجحة موفقة طالما أن هذه المسرحية هى دراما ضحايا مأساوية وليست دراما ممثلين مأساوين - على الأقل فيما يتعلق بهيبوليتوس - ومن ثم لم يحاول يوربيديس أن يغرق نفسه فى متاهات مأساة بطله وانما هو يستخدم مأساة هذا البطل كعنصر داخل فى نسيج مأساة أشمل (٨) ، مسرحية من داخل مسرحية ، وفى هذه المرة لا يترك هذه المأساة الشاملة صعبة الادراك ، أو تحتاج الى عربة سحرية تشير اليها أو تعتمد كلية على الاثر الانفعالى فى ادراكها وانما يعرض يوربيديس هذه المأساة الشاملة فى وضوح حتى لكأننا نرى فى وقت واحد مسرحيتين ، الاولى يجرى تمثيلها أمام عيوننا ، والثانية تجرى أحداثها وراء المشاهد ويختفى كل ممثل فيها وراء ممثل من الدراما التى نشهدها ، ولا يعنى هذا أن يوربيديس قد حمل الموقف الدرامى أكثر مما يحتمل وانما قدم لنا تجسيدا دراميا - مكتملا فى ذاته - لفكرته المأساوية الحقيقية ، فليس ما يجرى أمامنا على المسرح هو المأساة الحقيقية وانما ما وراءه ، وما نشهده ليس الا أقنعه نطل بها علينا الفكرة المأساوية الحقيقية ، أو هو - كما قلنا - التجسيد الدرامى لتلك الفكرة٠ فى « ميديا » نستطيع أن نستدل على هذه المأساة الحقيقية من أسلوب المعالجة ، خاصة من النهاية اللامعقولة ، حيث لا تعدو العربة أن تكون رمزا لفكرة مأساوية معينة ، ولكنها فى ذاتها ليست هى تلك الفكرة ٠ فالعربة كما بدت فى نسيج المسرحية لم تكن اهدارا لأمانى « ميديا » ، وانما تحقيقا لتلك الامانى ، فقد كانت غاية ما ترجوه « ميديا » هو الافلات من غضبة أعدائها وأقاربهم ، بعد أن تنفذ انتقامها منهم ، وكانت العربة هى الوسيلة التى أعانتها على الفرار ٠ غير أن معنى العربة فى الفكرة ، أو قل وظيفتها فى المضمون الذى تقدمه المسرحية كان شيئا آخر مخالفا لدورها فى نسيج الدراما كما سبق أن تبين لنا من تحليل تلك المسرحية ٠ فعندما يدخل«ياسون» ويعلم أن ميديا قد ذبحت ولديه يصيح فى وجهها : « كيف ستواجهين الشمس وتنظرين الى الارض بعد أن ارتكبت حماقتك وجرؤت على أفظع الآثام ٠٠ » ولقد دنست جرائمها الارض والشمس ، ثم رأينا بعد ذلك أن اله الشمس قد أمد هذه المجرمة القاتلة بعربة مجنحة تهرب عليها ٠ لقد أراد يوربيديس بهذه العربة - ودعك من القول بأنها مجرد نوع من

ال « ديوس اكس ماكينة » أو « اله ينزل من الآلة » عندما تتعقد الأحداث ، فان يوربيدس لم يكن أسيرا لتقاليد فنه يستكمل أجزاءه اعتباطا — أراد يوربيديس آن يرسم بهذه العربة علامة استفهام كبيرة : لماذا تساعد الآلهة المخطئين وسفاكي الدماء ؟! وهذا التساؤل ولا شك ينطوي على تشكيك وعداء شديدين لثيولوجيا العصر ، ما كان يوربيديس لينجو من تبعتهما لولا أنه — ببراعة فائقة — فصل أفكاره — ظاهريا في الدراما المنظورة — عن الدين والآلهة ، وألصقها بدراما الانسانية •

ولا تبدو العلاقة وثيقة بين الفكر المأساوي وتجسيده الدرامي على المسرح في نهاية « ميديا » فحسب ، وانما تظل هذه العلاقة قائمة لا تنقطع من أول المسرحية الى آخرها — ولكن بصورة أقل وضوحا وفي نطاق لايخرج عن فرد واحد (ميديا) ، ونستطيع أن نلمس تلك العلاقة لو تساءلنا : لقد ارتكبت ميديا أبشع الجرائم بقتلها من تجري في عروقهم دماؤها ، فلماذا أفلتت دون أن تحمل تبعة أعمالها ؟ وأين الدمار To Phthartikon الذي يحيق بالبطل بسبب السقطة « همارتيا hamartia التي يتردى فيها وها هي قد أفلحت في الفرار ؟ • وسؤال آخر : كانت ميديا في البداية — سيدة طيبة ، أحبت وكانت شديدة الاخلاص لذلك الحب ، فهل تستحق جزاء لهذا الاخلاص أن تساق الى سلسلة بشعة من الجرائم تنتهي بها الى الضياع ؟ •

واذا حاولنا الاجابة عن هذين السؤالين ، فسيتبين لنا أن « ميديا » التي قدمها لنا يوربيديس كانت بمثابة قناع أخفى وراءه فكرة مأساوية خاصة يؤمن بها ، أو كانت رمزا لقوة من تلك القوى المتسلطة على الطبيعة البشرية — سنرى نمطا آخر منها في ذروته في « عابدات باكخوس » — وقعت هي نفسها ضحية لها مثلما وقعت « جلوكي » و «كريون» والولدان •

لقد كان يوربيديس يؤمن بنظرية أستاذه السفسطائي « أناكساجوراس » عن العقل — « نوس » الذي يحكم الوجود ، وكان يرى أنه الى جانب ذلك العقل ثمة قوى أخرى تتسلط على طبيعة البشر — والا فلماذا يحاول انسان ما أن يشبع رغبته في جمع المال عن طريق حلال ويحاول آخر عن طريق حرام ، ولماذا نشعر بالرغبة في أن نحب وفي أن نكره ؟ •• الخ ، « وميديا » في تلك المسرحية تجسيد لقوة من تلك القوى المتسلطة هي الرغبة ، وقد نشرت هذه القوة الدمار بين عدد من الضحايا ، ومن بين هؤلاء الضحايا « ميديا » نفسها ، أو قل ، دمرت « ميديا » نفسها بنفسها ، دمرت «ميديا — الرمز» ، أو « ميديا الرغبة» دمرت تمثالها «ميديا» الانسانة الطيبة المغلوب على أمرها ، التي نشهدها في المسرحية الممثلة أمامنا ، ولهذا قال يوربيديس ان مأساة تلك السيدة تتمثل في أن « عواطفها أرجح في ميزان القوة من تدابير عقلها (سطر ١٠٧٩) » ومن بين الضحايا أيضا كان كل الذين قتلتهم تلك القوة متنكرة في شكل «ميديا» على المسرح، ولأن « ميديا » نفسها كانت ضحية لتلك القوة فلا بأس ان هربت فوق العربة دون عقاب على جرائمها رمزا لانتصار تلك القوة المتسلطة على ضحاياها (٩) •

كانت « ميديا » هي المسرحية الاولى التي صاغها يوربيديس في بداية مرحلة النضج في فكره المأساوي ، ولهذا حصر تمثيل هذا الفكر المأساوي في فرد واحد وحدث واحد ، ومع ذلك — ولنفس السبب — كانت العلاقة بين فكره المأساوي وبين تجسيد هذا الفكر ، أو بين المضمون والشكل — وثيقة ما في ذلك شك — وان كانت غير واضحة بما فيه الكفاية •

أما في « هيبوليتوس » فالأمر يمضي على نحو مخالف •• فالتمايز بين الفكرة المأساوية والتجسيد الدرامي لتلك الفكرة شديد الوضوح• والفكرة المأساوية فيهذه المسرحية تكشف عن « أفروديتا » وسيطا مأساويا تمت من خلاله الفجيعة ، وهي هنا ليست ذلكالكائن الأسطوريالذي يحاول يوربيديس

أن يشكك في وجوده ، وليست تلك العبادة التي يكفر بها ويحاول أن يصرف الناس عنها ، وانما هي - في نظره - قوة من تلك القوى المتسلطة ، وكذلك « أرتميس » ، ينبغي أن نقدرهما - في نطاق هذا الفهم فحسب - ونوفيهما حقهما ، ونحسب لهما كل حساب ولن يشفع للمرء في اهمال احداهما أن يعلي الأخرى ، « فأفروديتا » تعلن صراحة أنها لا تبغض هيبوليتوس وانما « أقضي على الذين يتعالون علي » ، و « أرتميس » تؤكد أنها لن تستطيع أن تدرأ الأذى عن صديقها «هيبوليتوس» أو أن تثني «أفروديتا» عن عزمها ، وانما كل ما يمكن أن تفعله هو أن تدمر - انتقاما له - واحدا من أصدقاء أفروديتا ، وعلى هذا لا يطل علينا « هيبوليتوس » كممثل مأساوي ، أو كشخصية مأساوية أرسطوطالية تصدعها زلة أو نقيصة تجلب على صاحبها الدمار ، وانما يظهر كشخص مأساوي ، أو قل ، ضحية مأساوية ، أو ان شئت فقل - تجاوزا - هو شخصية مأساوية ولكن من زاوية واحدة ، خطيئته نصف خطيئة ، فقد عبد وأجل « أرتميس » وأبى واستعصى على أفروديتا .

عند أيسخيلوس لا تقبل السماء « النصف ايمان » ، مأما يوربيديس - وان كان يؤمن بنفس هذه الفكرة عن الكمال ، فان يفصلها عن الأخلاق والدين ويضمها الى جانب « السيكولوجيا » ليقول ان للطبيعة قوانينها الصارمة التي يجب أن تطاع مثلما للأخلاق قوانينها ، وهو يمثل لهذه الفكرة هذه المرة من خلال أكثر من بطل وأكثر من حدث - على خلاف « ميديا » ، ولنر كيف تم ذلك .

***

لن يستحثنا الشوق على استطلاع الخطوات التالية ، ولن تطير بنا الرغبة في المعرفة على التكهن بالأحداث القادمة ، ولن يحدونا المنطق في محاولة استجلاء نتائج ما نشهده ، فكل شيء واضح منذ البداية ، وها هي «أفروديتا» ترسم الاطار الذي ستمضي داخله الأحداث كاملة بما يلغي في نفوسنا جانب التوقع لمفاجأة درامية أو لحدث لم يكن في الحسبان:

ستضرم نيران حب مميتة في قلب « فيدرا » لا تخمد الا بعد أن تنطفىء في جسدها اشراقة الحياة ، وسيكون في موتها هلاك ودمار لهيبوليتوس ، وبهذا ترسم الربة «أفروديتا» خطة المسرحية وتحدد الاطار التراجيدي الذي سنرى فيه هذين البطلين ، ضحيتين مأساويتين مسوقين الى مصير محتوم أكثر منهما شخصيتين مأساويتين تقليديتين ، لن يكون بيدها الامر - كأبطال سوفوكليس ، يتخيرون حياتهم بأنفسهم ويحددون مصائرهم بأيديهم مختارين، ولن يكون دمار شخصيتي يوربيديس بسبب اعوجاج سلوكهما ، أو لنقص في شخصيتيهما ، وانما سيأتي دمارهما من وضعهما في المسرحية كضحيتين فحسب .

فالصراع الذي يتنازع « فيدرا » يظهرها لنا ضحية مأساوية ، فهي ليست عاشقة عاهرة ، وليست « ميديا » اخرى ... الرغبه في نفسها أقوى من ارادة عقلها بحيث تسوقها الى الهلاك ، وانما هي سيدة فاضلة ، لا يشعل الصراع في نفسها أنها راغبة استحال عليها اشباع رغبتها فالتهب في نفسها التكالب على تحقيق تلك الرغبة مهما كانت الوسيلة ، وانما ينهض الصراع في نفسها من محاولتها التصدي لرغبة آثمة تلطخ بالعار صفحة روحها الطاهرة، وكلما تعالى في نفسها نداء الرغبة التي أثارتها فيها أفروديتا - ولا ذنب لها في ذلك - لتنتقم عن طريقها من هيبوليتوس ، قوى جهادها في كبح جماح تلك الرغبة . كانت « فيدرا » وسيلة أجرت من خلالها أفروديتا عقابها لهيبوليتوس ، وهي التي أشعلت في قلبها هذا الحب دون تدخل من « فيدرا » أو سعي منها اليه ، بل ان احساسها ازاء هذا الحب أنه ليس الا لعنة ورثتها عن أمها وأختها، ولو لم تكن « فيدرا » هكذا - ضحية مأساوية أكثر منها بطلة تقليدية - لأصبح الموضوع غير ما كان يفكر فيه يوربيديس ، ولتغير المضمون الفكري كله لتلك المسرحية ، لقد أراد شاعرنا أن يقول ان العقل الذي لا يقومه الاتزان ، وكذلك المزاج - كما هو الحال مع هيبوليتوس - لا يسلم من الكوارث ، فلا ينبغي على الانسان في غمار محاولته الحفاظ

على طهارة روحه أن ينسى حاجة نفسه الطبيعية الى الحب ، وانما عليه أن يعلى هذا الحب فى ظل الطهارة والنقاء . و « هيبوليتوس » ان ازدرى « أفروديتا — الحب » فلن تشفع له « أرتميس — الطهارة » أمام ثورة قوة معادلة، فها هى فى النهاية لا تملك أن تعد (١٤٢٠ — ١٤٢٢) بشىء الا بأن تسقط ضحية من عشاق أفروديتا بدورها، وفيدرا امرأة فاضلة، ولولا هذا لما قامت المقابلة بينها وبين هيبوليتوس ولاختفت الفكرة الهادفة الى اظهار أفروديتا قوة طبيعية عابسة فى وجوه البشر ينبغى أن نخطب ودها ، ولو أن فيدرا كانت من اتباع أفروديتا المخلصين فحسب لتحولت الى عاشقة عاهرة ، أو الى ميديا أخرى ، ولأصبح هيبوليتوس آنذاك ضحية لها وليس ضحية لأفروديتا ، أو بمعنى آخر لأصبح خاليا من الرمز ، ولأصبح ضحية لشيطان امرأة لعوب ، وليس ضحية لتلك القوة الطبيعية التى ترمز اليها أفروديتا ، وربما كان هذا هو موضوع « هيبوليتوس » الأولى « هيبوليتوس المقنع » حيث كانت فيدرا — كميديا — قوة طائشة فى ذاتها ، لا تتورع أن تقدم على عمل من أى نوع لتشبع عاطفتها ، هى رمز مباشر لقوة الشطط الانسانى الرهيبة ، وكان هيبوليتوس ضحيتها مثلما كانت جلوكى ضحية لميديا (١٠) وعندما تحولت فيدرا هنا الى امرأة فاضلة ، لم يكن ذلك لأن يوربيدس أراد أن يعيد صياغة مسرحيته الأولى ليجلى عنها ما فيها من رذائل ونقائص ، وانما كان هذا التغيير حتميا يفرضه اختلاف نظرة الشاعر عن ذى قبل ، وانتقاله من المرحلة المبكرة فى تجربة الكتابة الى مرحلة النضج فى فكره .

واذا لا ينبغى أن نعد اختفاء فيدرا تشتيتا للوحدة الدرامية بالانتقال من مأساتها فى البداية الى مأساة « هيبوليتوس » فى النهاية، لأن هذه الوحدة لا تتعلق بمصيرها وحدها ومن ثم يتحتم أن تظل المعالجة دائرة حول استكشاف المزالق التى تهوى اليها كفرد ، وانما تقوم هذه الوحدة الدرامية هنا على ما تفعله أفروديتا ومن ثم يصبح الانتقال من فيدرا الى هيبوليتوس هو انتقال من ضحية الى أخرى تقعان معا فريسة لهذه القوة الطاحنة، وعلى ذلك ليس لنا أن نتوقع أن نجد امتدادا لعاطفة فيدرا ولموتها فى عقل هيبوليتوس ، وتبقى بعد ذلك منطقية الحبكة ووحدة الحدث قائمتين فى الفكرة وليس فى أذهاننا أى من فيدرا وهيبوليتوس كشخص مأساوى، ويكتفى يوربيديس بالتنبيه الى وجود ذلك العالم الخلفى بمشهد هيبوليتوس أمام أفروديتا وأرتميس فى بداية المسرحية .

وهنا نلمح فرقا جوهريا بيننا بين يوربيديس وبين سوفوكليس ، فعلى الرغم من أن فيدرا على المسرح تبدو سوفوكلية فى مظهرها ، فاننا نتبين من خلفها شبحا أو ظلا هو أفروديتا لا نلمحه خلف الكترا سوفوكليس أو أوديبه أو غيرهما ، ذلك أن سوفوكليس كان يغوص داخل ابطاله ويكرس كل جهده فى استخراج أغوارهم والكشف عنها امامنا مع تجسيد العنصر المأساوى فى حياتهم ، ومن ثم كان يتحتم عليه أن يحفظ الأحداث دائرة فى فلك الشخصية الرئيسية لتحقق الوحدة الدرامية ، أما يوربيديس فالشخصيات عنده رموز تنقل الى المسرح تجسيدا دراميا لمأساة تجرى أحداثها خلف المشاهد المنظورة، وبالتالى علينا أن نبحث عن الوحدة الدرامية فى المأساة الخلفية ، وعندئذ سنجد أنها قائمة طالما أن أفروديتا لا تغيب عن أذهاننا ، وسنجد أن اختفاء «فيدرا» يعادل موت جلوكى ، وموت هيبوليتس يعادل موت ولدى « ياسون » ، لأن كلا من هؤلاء ضحية تزيد من وزن خطايا القوة الغاشمة المتسلطة ، ولا شك أننا واجدون أيضا أن الأثر الانفعالى الأخير الذى يبعثه موت « فيدرا » و « هيبوليتوس » — ضحايا أفروديتا —هو نفسه— أو يكاد — الذى ينهض من وصف موت « جلوكى » و « كريون » والولدين — ضحايا « ميديا » — ولا يزيد الا بقدر ما تطور فكر يوربيديس خلال هذه الفترة الزمنية الوجيزة ، وبقدر ما استفاد من تمرسه فى الكتابة للمسرح .

غير أننا نجد فى المسرحية التى بين أيدينا

أن يوربيديس قد جعل « فيدرا » ضحية لأفروديتا تنفذ من خلالها ارادتها ، وأداة تجرى بها عقابها – جعلها هكذا فى خطة المضمون الفكرى للمأساة الحقيقية فى ذهنه، فى حين أننا نجد فى الدراما التى تجرى على المسرح والتى تجسد ، أو تحمل فى داخلها، أو ترمز الى المأساة الحقيقية ، فى هذه الدراما (التمثيليه) نجد ان فيدرا تسقط على عاطفتها تفسيرا ماساويا جديدا اخر ، فترى فيها لعنة موروثة عن امها واختها (سطر ٣٧٧–٤٢) (١١) • وقد يبدو هذا متناقضا مع ذلك ولكن الحقيقة أنهما نفس الشيء ، التفسير الثانى هو الصورة التى تعرضها الدراما التمثيلية للأصل فى المأساة الحقيقية ، فاذا ربطنا بين الصورة وأصلها أوصلنا ذلك الى فهم يوربيديس لافروديتا – انها ليست احدى الهات البنثايون اللاتى لا يؤمن بهن وانما هى قوة طاحنة تكمن فى طبيعتنا ، ولم يكن بمقدوره أن يخرج على جمهوره بهذه الفكرة فقد دفع سقراط حياته ذات مرة ثمنا لها ، وبسبب هذا الفهم – أن أفروديتا قوة كامنة فى طبيعتنا وليست قوة خارجة عنا – تصبح مسرحية هيبوليتوس مأساة حقيقية بمعنى المأساة (١٢) •

ولعل أبلغ الاحساسات التى تبتعثها فى النفس هذه المسرحية الرائعة وأعمقها ، هو ذلك الشعور بالجمال والتألق الذى ينهض من غمار ما يحيق بالحيوات من دمار تسوقه اليها العواطف والغرائز الانسانية ، أو من معاناة عالم بأسره يعذبه الاعتقاد بآلهة يتوق كبرياؤها وارادتها وجبروتها الى العقاب والقصاص فلا تذر أو تغتفر • وربما كان من المستحيل أن نجد قصيدة تضارع أشعارها أشعار هذه المسرحية فيما يفوح منها من عبيق سحر الحياة الذى لا يخمد بريقه وتألقه ، والاحساس بقيمة تلك الحياة التى لا تضارعها قيمة ، فالحياة لا يشوه روعتها أنها تعج بالخطيئة والالم ، وانما تصبح الحياة كئيبة فظيعة عندما تمضى الى مسارب الغموض ، ولكنها طالما لا يند على المرأ فهمها فانها تبقى بالنسبة له – وهو الذى يشيد أفراحه ومباهجه على ادراكه وتصوراته للاشياء ، تبقى بالنسبة له شيئا جميلا يستأثر بحبه ، وهذا هو السبب الوحيد – وكفاه من سبب – نى أن الدراما المأساوية شيء جميل (١٣)

ويتردد وصف جمال الطبيعة وسحر الحياة على لسان فيدرا ، وهيبوليتوس وتسيوس والكورس ، وارتميس ، الالهة العذراء التى لم يطرق الحب قلبها تتحدث عن سحر الحياة الخالد الذى قهر الموت بأن طبع روعته على بقايا الذكرى فبقى – ما بقيت الذكرى – أبديا خالدا (١٤٢٣ – ١٤٣٠) ، ولا يكاد يغيب عنا وصف جمال الحياة الذى تخالطه المرارة لحظة كلما انتقلنا مع سطور المسرحية ، ولو أن الشاعرية فى الموضوع كانت تختفى أحيانا وتختفى روح الشعر فيكاد النظم لا يفترق عن النثر على الرغم من المهارة والحذق اللذين جبل عليهما يوربيديس فى صياغة كل ما يكتب ، وكانت هذه الظاهرة – اختفاء الشاعرية – خطوة تقرب مابينه وبين صديقه سوفوكليس •

لم يسع يوربيديس الى لقاء صديقه فى أسلوب التعبير فحسب وانما حاول أن يلقاه – من احدى الزوايا – على صعيد الثيولوجيا أيضا • فقد تعارف الناس قديما على أن ساكنى الأوليمبوس فى العصور السالفة كانوا أشخاصا لهم من القوة والسطوة مثل ماتنسبه اليهم عقيدتهم القائمة ، وكان سوفوكليس لا يختلف عن بنى جيله فى نظرته الى الآلهة بل كان يحاول دائما أن يفسر تلك العقيدة ، أما يوربيديس ، الملحد الكافر بتلك العقيدة ، فيحاول فى هذه المسرحية أن يؤكد نظرة زميله وعقيدة جيله ، ولكنه يحاول ذلك بطريقته الخاصة ويصل فى النهاية الى نتائج مذهلة • رأى يوربيديس – الذى كثيرا ما انكر وجود الآلهة على الاطلاق – أن الانسب له هنا أن يقر وجودها – الى حين – ثم يصور الحياة كما كانت فى ظل سلطان مثل هذه الآلهة: بمقدور البشر أن يستطلعوا الجمال فى الحياة وأن يخلقوه ان أرادوا ، ولكن الآلهة لن تمهلهم

فسرعان ما تلقى بهم الى البؤس والشـقاء ، انهم مخلوقات مجنونه غبية تقضى الابد كله فى تدبير أقدار الناس وليس هذا الكون وجودا فى ظلهم وانما هو فوضى طاحنة .

والحدث يتطور خلال المسرحية كلهـا فى نطاق من علاقات المصائر الانسـانيه بعضها ببعض ومن علاقاتها مع الآلهة نفسها ، وتطرح النهاية التى تؤول اليها هذه المصائر سؤالا على جانب من الاهمية : هل كانت مشاكل أبطال المسرحية تسـتوجب تدخل « أشـخاص » الأوليمبوس المؤذية المنغصة ؟ ان الثلاثة الذين أعتصرهم الألم فى هذه المسرحية ملومون قبل كل شىء ولكل منهم حظه فى المشاركة فى نسج الخطيئة « الهمارتيا » التى كانت سـببا فيما فاجأتهم به اقدارهم من دمار ، فهيبوليتوس قد أخطأ فى البـداية - فى نظر اليـونانيين المعاصرين ليوربيديس - بتصديه لعاطفة الحب وبعجرفته التى يعلن بهـا عصيانه لسلطان الحب وكان حديثه البـالغ الطول عن هـذا التصدى للحب (٦١٦- ٦٦٨) يفجر فى النفس الحنق والقنوط حتى انه يبدو فى نهاية هذه المقطوعة التى تتحول الى اشـعار فى عبادة الذات ، يبـدو وكانه يستمتع بالانصات الى صوت نفسه . ولا شك ان هذه العجرفة هى التى أثارت فيدرا واوحت اليها بفكرة الانتقام . اما تسيوس ، فعلى الرغـم من عميـائه التى تستدر الاشفاق عندما يرجع بؤسه الى خطيئة قديمة اقترفها اسلافه فانه هو المصدر الاول لتلك المصائب ، فهيبوليتوس هو ثمرة لرغبة آثمة هوجاء اسـتبدت بتسيوس فى شبابه عندما سـبى أمه ، ثم كان زواجه من فتاة شابة فى مقتبل العمر تمهيدا ونذيرا لاقامة عدالة المثل بالمثل فقد أتاح تسيوس بجمعه زوجة شابة متفجرة الى جوار شاب فى مقتبل العمر ، سنها من سنه ، تحت سقف واحد ، أتاح بذلك فرصة للعدالة تحصل فيها ثمن ارتمائه فى أحضان المتعة أيام شبابه . أما فيدرا فلا حاجة بنا الى ارجاع عاطفتها الآثمة الى الهة الحب ، فالرذيلة تجرى فى دمهـا منحدرة اليها من اسرتها(٣٣٧ - ٣٤١)فكانت أمها خاطئة آثمة ، باسيفاى التى هامت حبا بثور زوجها مينوس وانجبت منه المينوتوروس وقد طوت الخطيئة أختها أريادنى التى وشت بأبيها وساعدت تسيوس فى الخروج من قصر اللابيرنث ثم هجرها تسيوس وتزوج باختها فيدرا ، واسم كريت - بلدها ، «جزيرة الحب البشع» - كما يسميها مورى - لا تكاد تخلو منه فقرة من المسرحية . ولا شك أن الكثيرين من معاصرى يوربيديس - كالحال معنا اليوم - قد أدانوا فيدرا على هـذا الاستعداد الطبيعى للدنس والخطيئة وهتـك العفة ، أما الشاعر نفسه فلايلقى عليها لائمة وانما يتعاطف معها، ويرى أن خطيئتها فى انها كانت تلهو بالحب منذ البـداية عنـدما أقامت محرابا باسم هيبوليتوس لآلهة الحب (٢٩ - ٣٣) وعندما قبلت عن طواعية أن تأتى فى صحبة تسيوس الى ترويزن وفى أنهـا قررت أن تنتقم من هيبوليتوس على كبريائه وغطرسته الجارحة . كل من ضحايا هذه المأساة مخطىء أو وارث خطيئة ، وكل مسئول عن خطيئته أو عما ورث ولابد للمخطىء أو لحامل أرزائها أن يشرب من كأس خطيئته ، القانون الأزلى هو : « الدم بالدم والبادىء أظلم » ، وهنا يصبح تدخل الآلهة - أو قل أشخاص الأوليمبوس - لا يعنى تدخل أشـخاص أو قوى خارجة عن ذوات أبطالنا -حقيقة ان الآلهة قد استخدمت كرمز لتدخل قوى معينـة لتوجه مصـائر هؤلاء الأبطال ، ولكنها قوى نابعة من أعماقهم توجههم أو تسوقهم رغما عنهم الى مصير محتوم تقضى به ضرورة يفرضها قانون العدالة .

وربما بدا لنا أن توريه اسم الآلهة والصاق الخطيئة « بانوراته » ليس الا استبدال كلمة بأخرى للتعبير عن حقيقة واحدة ، غير ان يوربيديس كان يضع نصب عينيه ثيـولوجيا عصره . ولانه كان لا يغيب عنه أن دعـوى « الوراثة » (فيما يتعلق باللعنة) لا تقل فى صرامتها وحتميتها عن ارادة الآلهة فقد فصل الخطيئة عن ارادة الآلهة وأصر على انها مسألة سيكلوجية ، فان أردنا أن نفهم طبيعة الخطيئة وأن نحاربها ينبغى علينا أولا أن نتفهم الطبيعة

الانســـانية ، لاننــا اذا اعتبرنا أن أفروديتيا وارتميس وغيرهما « أشخاص » أو قوى خارجة عن ذواتنا ولها من السطوة والقدرة على التحكم فى مقدراتنا مالا قبل لنا به لفقدنا الامل فى الصلاح وفى أن تنزل بقلوبنا التوبة ،وما كان يوربيديس يعتقد أن الآلهة ــ تلك المخلوقات الغيبية ــ بقادرة على رسم مصائر البشر ، فالبشر أكثر منهم ذكاء وأشد تمســـكا بالفضيلة ، ولكننا اذا اعتبرنا الآلهة ، تلك القوى المخربة ــ أسماء ترمز الى قوى الطبيعة الانسانية ــ قوة الحب وقوة الفضيلة والرغبة وغيرها ــ ، داعبنا الامـــل الذى يشرق من خلال ضبط النفس ، فى أن نروضها ونسيطر عليها ٠

لكننا نجد باحثا مثل « هاثورن » (١٤) يضع لهذه المسرحية تفسيرا آخر ، فهو لا يرى أن أفروديتا رمز لقوة طبيعية لها سطوتها على حياة الانســـان هى قوة عاطفة الحب وحاجتها للاشباع ، وبالتالى يكون عصيان هيبوليتوس للالهة أفروديتا هو اهمال لجانب طبيعى فى تكوين الانسان ، ويكون سقوط هذا البطل « الهماريتا » سببه تلك المعصية (niaron

أو ذلك الكبر hybris الذى أعلنه هيبوليتوس فى وجه أفروديتا ، أو بغير رموز، الذى اعلنه تجاه حاجة عاطفة الحب فى نفسه الى الاشباع ، وكذلك الحال مع فيدرا تجاه ارتميس الطاهرة و «هاثورن» لا يرى ذلك لكنه منذ البداية يشير الى أن هناك طرفين متنازعين فى هذه المسرحية يقوم على التشـــاد بينهما الصراع والتوتر الدرامى ، الآلهـــة (بدون رمز) فى جانب والانسان فى جانب آخر ٠ ويمكننا أن نقول مباشرة فى غير تحفظ ان هذا التقسيم قائم على فهم خاطىء لطبيعة الدراما عند يوربيديس الذى جمع فى بؤرة الفـــرد الصراع الذى وزعه زميلاه قبل على عدد من الأفراد أو من الأفـــراد والآلهـــة ، ومع ذلك فلنتريث قليلا لنرى تفسيره للمسرحية كاملا يقول ان الصراع قائم على التحدى بين هذين الفريقين ، فأفروديتا تتوعد هيبوليتوس بانتقام بشع وتتنبأ لفيدرا بمصير بشع ، وبوسيدون قد ارســـل بوحش بحرى ليقتل بريئـــا

(هيبوليتوس) ، ويزعم أن المسرحية كلها بعد ذلك امتدادات وتطوير لهذه الفكرة ، وهو فى النهـــاية يلقى اللوم كله على الانســـان ، فهيبوليتوس مخطىء وال hybris عنده فى كبريائه ووعجرفته فى صد فيدرا ، وربما كان انتحار فيدرا حل مناسب لانقاذ شرفها لكن الخطاب الذى تركته تتهم فيه هيبوليتوس بما هو برىء منه جريمة سخيفة تستحق عليها الدمار وان ثسيوس ليبدو كريما عنما يكتفى بنفى هيبوليتوس ، لكن سرعان ما يتكشف مجرما عندما نعلم انه كان يدبر لمقتله فى الخفاء وهو لذلك يســـتحق الدمار ٠ وقـــد يبدو هيبوليتوس شـــابا بريئا ، لكن براءته قرينة للجهل ، واختياره كان عن ارادة ، لأن الناس لا يختارون مالا يعرفون ، ومن هنا تقترن الارادة بالمعرفة ،وقد كان اختيار هيبولتيوس قائم على الادراك والمعرفة وبالتالى قائم على الارادة وهو لذلك مسئول عن أخطائه ، فان حدث واختار الناس الخطأ بسبب جهلهم وعدم قدرتهم على التمييز بين الحق والباطل فلهم العذر لأنهم لا يعرفون لكنهم أيضا ملومون لأنهم لم يسعو الى المعرفة التى تجعلهم قادرين على التمييز بين الخير والشر ، وبالتالى فان هيبوليتوس ملوم سواء كان اختياره عن معرفة وارادة أو عن جهل وبراءة ٠

غير أن هذا التفسير قد قام على غير أساس، لأن فيدرا لم تترك الخطاب الا بعد أن قررت لانتحار وأصـــبحت بالفعل ــ قبل أن تموت بلحظات عندما كانت تكتب الخطاب ــ أصبحت فى عداد الموتى ولهذا لابد وأن يكون دمارها قد جاء نتيجة لسقطة وقعت فى أول حياتها ٠ وكذلك ليس ســـقوط ثسيوس بســـبب تدبيره لموت هيبوليتوس فى الخفاء ٠

اننا حقا نستطيع أن نحس ــ فى عنف ــ بضعف الانسان السافر فى هذه المسرحية بين أن وآخر ، فحديث العصيفة مثلا يجســـد الألم الذى يخالط الجمال ، ويعلن عن ضعف الانسان السافر :

حياة الانسان اكدار وأحزان
دون راحة أو خلاص
فان لاح لنا عالم آخر من بعيد
ارحم بالانسان من الحياة



لكنه يخضع لسلطان اله الظلام
وتكتنفه غيوم من فوقه ومن تحته
تعز علينا الحياة
ونتعلق فى دنيـــا الارض بذلك الشـــعاع الواهى
فنحن قد تكشفت لنا أسرار الحياة
واستغلقت علينا أسرار الآخرة السفلى
ونترك أنفسنا لتجرفنا أوهام الاساطير

وتســـدى الوصيفة نصـــحها لفيدرا بأن تستسلم للحب وتستمتع بالحياة ، فقد أحب قبلها الكثيرون منذ الازل ، وقد خاضت الآلهة تجارب حب عنيف فلمـــاذا يحرم البشر على أنفســـهم ما أحلته الآلهـــة ، ومن من البشر يستطيع أن يصمد أمام فيضان الحب الجارف ، وهل يستحق من احب أن يدفع حيـــاته ثمنا لهذا الحب ، ثم تسألها أن تخرج عن انطوائها وأن تحنى رأسها لأفروديتـــــا (الحب) لأنه لم يسلم من سلطانها مخلوق أو كائن فى الارض أو فى البحر أو فى السماء ، ألم ينتحب زيوس — كبير الآلهة — مرة من أجل سميلى ، وألم تحنى الهة النور رأسها مرة ونزلت من عالمها المتألق الرائع بســـبب الحب لتسرق كفـــاللوس الى جوارها فى السماء ؟ (١٥)

لكنه من خلال حديث الوصيفة يبدو الضعف الاخلاقى من صميم الدين ، (٤٧٤ وما بعده)

« لم أتحدث هكذا بغية الحض على الكفر ، وانما الكفر ليس الا أن نمنى النفس بأن نكون أفضل من الآلهة

lêxon dê hybrizousa ou gar allon plên hybris.
tade esti kreisso daimonôn einai thelein.

وتذوب فيـــدرا ألما عنـــــدما — الى جانب اعتقادها أن الآلهة ليستفى جانبها —يتكشف لها أن الانسان كائن عاجز عن الفهم والادراك • تقول لها الوصيفة : «صدقينى ، لانه لو لم تكن حياتك فى خطر ، وأنا أعرف انك سيدة فاضلة طاهرة ، لما حاولت أن أقودك الى طريق الحب» • فتجيب فيدرا : « لسوف أفعل ما تراه الآلهة وما يقره البشر حتى أصون كرامتى » •

لقد كان يوربيديس يعتقد أن محور الاخلاق فى الانسان نفسه ، وليس أمام فيـــدرا روحا تستند اليها غير روحها ، وبالتالى فان معركة الصراع المميت لا بد أن تدور فى داخلها بين نفسها الراغبة وروحها الكابتة ، ويمثل حديثها (٣٧٣ — ٤٣٠) الرائع عن تاريخها الروحى الذى تقصه دون تحفظ ودون اطراء ، يمثل لب المأساة ، فلا تلوح من بين سطوره اشارة بأن هنـــاك معين أو منقذ ، وانما على الروح الضحية أن تحارب وحدها أمام عالم يند على الادراك والفهم ، وقد وجد ايسخيلوس هـــذا المخلص فى زيوس (أجا ممنون ١٦٠ — ١٨٣) اما يوربيديس فكان يرى أن الانســـان أشد تمسكا بالفضيلة من الآلهة ، وفى هذا الصدد أيضا نلمح فكرة واضحة عن الضمير ، فعند

سوفوكليس كان الواجب (الواجب الاخوى فى انتيجونا أو الابوى فى الكترا) يحتضن الروح ويطير بها الى حياة بطولية أو الى الموت ، وعنده أن قداسة الواجب تكمن فى ارادة آلهة خارج الانسان أما عند يوربيديس ٠٠ الضمير وحده يكفى كأساس للسلوك الانسانى ٠

***

لا شك أن أثينا القرن الخامس ق٠م لم تكن عظمتها السياسية هى أروع ما حققته ، وانما كان مجدها يتمثل فيما تتمتع به من حرية ، ولعل المثل الذى ضربناه من قبل للحرية فيما رواه هيرودوتوس عن اكسركسيس واليونانيين لم يغب بعد عن ذاكرتنا ، حقيقة أن المفكر فى أثينا القديمة كان أكثر حظا فيما يتمتع به من حرية ، وأنه قد فاق فى ذلك المواطن اليونانى فى أى بلد آخر ، غير أن قانون الحساسية الدينية الأعمى كان أشد بطشا بالآثينى منه بأى مواطن آخر ، وقد ضربنا من قبل أمثلة كثيرة ترسم وجهة النظر التى أطلت منها الآلهة على الفكر ، وتوضح موقف ثيولوجيا العصر من الرغبة فى الاصلاح ٠ وقد كان يوربيديس مصلحا هادفا أراد أن يغير وجه الدين ، وكان يرى أن الاعتقاد بجماعة من المجانين ـ الآلهة ـ وصمة فى جبين عظمة أثينا الفكرية، ولكنه كان يعلم أيضا أنه بذلك يعهد بروحه الى شيطان اهوج يقامر بها ، وقد تعلم شاعرنا السفسطائى من تجاربه السابقة كيف يغلف الثورة الملتهبة بقشور من ثلج وكيف يدثر التمرد على العقيدة بالولاء للدين، وليست تجربته فى هيبوليتوس الا محاولة من هذا النوع فصل فيها الاله عن الانسان ، ثم صاغ كل أفكاره عن الآلهة وقال كل ماوسوست به نفسه اليه عنها فصور جنونها وتهورها وغبائها ـ ان كان لها وجود ـ ولكنه فصل كل هذا عنها وألصقه بالطبيعة الانسانية ٠ ترى العيون بشرا يتصارعون فى دراما حياتهم وعلاقات تلك الصوات بعضها ببعض ، وترى وتدرك العقول مسرحية أخرى تواكب الاولى هى التراجيديا الحقيقية وراء الاحداث الظاهرة وترى فيها آلهة أغبياء كما أراد لها يوربيديس٠

أو بمعنى آخر نرى ممثلين ونرى ظلالهم فى نفس الوقت تقوم بنفس حركات الأداء الدرامية ٠ والممثلون من البشر والاطياف آلهة قصد الشاعر الفنان أن يعرض حياة الظلال ـ الآلهة ففعل ولكنه أخفاها خلف أقنعة من الممثلين البشر ٠ والمحصلة الاخيرة لهذا العمل تتجلى فى حقيقتين ، الاولى هى أن الآلهة فكرة ساذجة وتصور بدائى لم يعد يليق بعظمة الفكر ونقائه ، والثانية هى أن ما يعانيه البشر من الآلام والاحزان وما تؤول اليه حياتهم من كوارث انما يرجع كله الى قوى طبيعية فى داخل الانسان نفسه ، وهذه القوى جامحة اذا تركها الانسان فى نفسه دون ترويض ودون أن يوجهها ويعليها قادته الى الدمار، فان كانت العقيدة تصر على أن ما تحدثه هذه القوى فى الطبيعة الانسانية بحياة الانسان هو من صنع آلهة فلن تكون هذه الآلهة الا مخلوقات طائشة صارمة قاسية متزمته لا لشىء الا لان هذه هى صفات القوى الطبيعية التى توجه حياة الانسان بالفعل ، والتى سحبت منها العقيدة آثارها على حياة الانسان ونسبتها الى تلك الآلهة ، وان ظل الانسان بعد ذلك ملتصقا الى عقيدته الغبية فلن تكون أمامه أمل فى الخلاص لان عقيدته تأبى عليه أن يتصدى لتلك القوى ـ الآلهة ـ أو أن يحول دون ارادتها وليس عليه الا أن يستسلم لقضائها ، ولكنه ان آمن بأن كوارثه انما ترجع الى قوى فى طبيعته الانسانية أصبح بيده أن يتصدى لتلك القوى وأن يحول دون نزول الكوارث بحياته طالما انها كامنة فى داخله وله السيطرة على نفسه٠ ولا شك ان هذه الدعوة الى التحرر من أوهاد العقيدة والى الاهتداء بالفكر الطليق كانت كفيلة بأن تورد صاحبها مورد الهلاك لولا براعته فى صياغة الشكل الذى قدم به هذا المضمون والتى بلغت حدا جعل الآثينتيين ـ على ذكائهم ـ لا يتبينون خطورة الدعوة التى ضمنها يوربيديس مسرحيته فمنحوه الجائزة الاولى ٠

وفى النهاية يتبادر الى أذهاننا هذا السؤال: لماذا انفردت هيبوليتوس بهذه الحدة والتحديد فى الشكل على خلاف المآسى الاخرى وفى التناقض الصارخ بين الدراما وسيمترية الشكل وتناسقه، سنترك المآسى التالية لتجيب على هذا السؤال ففيها يقدم يوربيديس ضحاياه فى مقابلة واضحة بين أقل ما يمكن من منطقة الفكرة وبين أبسط الاشكال ، ومن الآن فصاعدا ، وبعد أن يتحول يوربيديس عن التراجيديا الى الميلودراما والتراجيكوميدى سنلحظ أن يوربيديس قد اقلع عن تغليف الفكرة وسربلتها بأقنعة الرمز ويلجأ الى مباشرة التعبير ووضوحه ضاربا بذلك مثلا للفنان اليونانى «فلاشك أن عظمة الفن اليونانى(١٦) كله لا تكمن فى انه قادر على تحقيق جمال الشكل (وما كان ذلك أبدا هدفا لفنان عظيم) وانما فى أخلاصه الفريد للفكرة وعلينا أن ننتظر قرنا أو أكثر وسنرى حركة قيام « الكلاسيكية » من جديد .

---

* استخدمت النص اليونانى الذى نشره لويس مريديه :

Louis Méridier . Euripide. tomeII. Les Belles lettres. Paris 1927. pp. 29-85

وأرقام السطور التى وردت فى المقال تشير الى نفس هذه السطور بنفس الارقام فى هذه الطبعة .

(1) Rose, H.J., *A Handbook of Greek Lit.*, 3rd. ed., London, 1948, p. 182.

(2) Murray, G., *Euripides and his Age*, 2nd. ed., London 1947, p. 33.

(٣) بعض الاسماء اليونانية تذكر وتؤنث كالصفات من نهاياتها ، كما فى العربية مثل ، جميل وجميلة ، وحميد وحميدة ... الخ .

(4) Norwood, G., *Greek Tragedy*, (Methuen), 4th ed., London 1953, p. 205 ff.

(5) Kitto, H.D.F., *op. cit.*, p. 200.

(٦) أنظر «المجلة» العدد ١٢١ يناير ١٩٦٧ ، حول مأساة أجاممنون ص ٦٨ ومابعدها .

(٧) فى مسرحية «ميديا» تعدد ميديا خدماتها لياسون فتقول انها أنقذت حياته من موت أكيد ،وخانت أباها ووطنها وأهلها ، وذبحت أخاها ، وأخلصت له الحب ، فيرد عليها بأن خدماته لها مقابل هذا أعظم ، فقد أحضرها من بلد غريب «همجى» وجعلها تعيش فى ظل القانون .

(٨) أتفق فى هذا التفسير مع العلامة «كيتو» فى كتابه «المأساة اليونانية» . كذلك قد يفيد فى المزيد من الايضاح الفصل الطويل الذى كتبه «جلبرت نوروود» عن هذه المسرحية فى كتابه «مقالات عن الدراما عند يوربيديس» .

Norwood, G., *Essays on Euripidean Drama*, Cambr., 1954, p. 74 ff.

(٩) أنظر تحليل هذه المسرحية «المجلة» يوربيديس وعصره — ٣ — العدد ١٢٠ ديسمبر ١٩٦٦ ص ٧٦ .

(١٠) فى مسرحية «فيدرا» «لسنكا» — وهى مأخوذة عن مسرحية «هيبوليتوس» ليوربيديس — تبوح فيدرا بنفسها بحبها الى ابن زوجها هيبوليتوس ، وليس للمربية كما عند يوربيديس ، فى جو رومانسى وهى التى تشكوه عند زوجها لثيوس بشخصها ،وليس عن طريق خطاب ، كذلك هى (وليست الربة ارتميس كما عند يوربيديس) التى تكشف عن جريمتها فى النهاية وتعترف بها قبل أن تموت ، وعند راسين (فيدر سنة ١٦٧٧) تبرىء فيدر فى النهاية أيضا ساحة هيبوليتوس قبل أن تموت ، وتعترف بأنها هى التى أحبته .

(١١) اعتقد اليونانيون القدماء بفكرة توارث اللعنة ، والمعروف أن «باسيفاى» — أم فيدرا — هامت ذات مرة بحب ثور كان لزوجها مينوس حبا محموما جعلها تسلم له نفسها ، فانجبت منه «المينوتاوروس» ، مخلوق نصفه انسان والنصف الآخر ثور ، وورثت «أريادنى» عن أمها وزر هذا الحب الآثم ، فأحبت «ثسيوس» الذى دمر قصر أبيها (اللابيرنث) ، حبا آثما ، ثم انتقلت لعنة هذا الحب الى «فيدر» التى أحبت ابن زوجها (هيبوليتوس)

(12) Kitto, H.D.R., *op. cit.*, p. 204 (foot-note).

(13) Norwood, G., *Greek Tragedy*, p. 207.

(14) Richmond Y. Hathorn, The Classical Journal, Vol. 52, number 5, *Rationalism and Irrationalism in Euripides' Hippolytas*, p. 211 ff.

(١٥) افتتن راسين بهذا الحوار ، فانتفع به فى «فيدر» ولكن فى موقف آخر ، فهنا تحاول الوصيفة اقناع سيدتها بالاستسلام لسلطان الحب ، أما عند راسين فان فيدر مقرة بالحب منذ البداية ، لهذا نقل راسين منطق الوصيفة فى اقناع سيدتها الى موضع آخر ، فجعلها تحاول اقناعها بالحياة ، واذا كان ولابد من الموت فليكن ذلك الموت لهيبوليتوس حفاظا على سمعتها وشرفها . (الفصل الثالث من المسرحية) .

(16) Kitto, H.D.R., *op. cit.*, p. 208.

قصة بقلم : محمد روميش

النشيد من الأفق

.. ثم توارى الجحيم ..

.. كانت تصبه الشمس ، فتصنع الحقل .. حقل الوسية الواسع .. فرنا كبيرا ، يشوى ما به من ناس ..

ومن بعيد .. من حيث تلتقى السماء بحقل القطن .. اقبلت نسمات .. تجفف العراق .. تعانق رؤوس الشجيرات .. تموج اللوزات المتفتحة بلونها الابيض الشاهى ، فيبدو القطن بحرا .. كبيرا صاخبا .. يغطى الزبد صفحة مائه ..

.. وابتسمت (ست ابوها) وهى تتخفف من الخرق التى تلفها فوق راسها وحول رقبتها عازلة أشعة الشمس من أن تحيل وجهها التفاحى البشوش ، قطعة فحم ..

.. واطال ابراهيم تأمل ست ابوها ، وأسقط فى قلبه ، ملاحة البنية .. ووقف بعينيه على خديها المتوردين ..

– ست ابوها مش للغيط ياأولاد ..

رآها بكرت فى داره .. كنستها وجزءا من الحارة .. ملأت البلاص من الترعة ورجعت فى يدها حزمة حبأ بحر .. اخضر .. معطر .. تقربه الى انفه ..

– قوم يا براهيم السمس علو الدنيا ..

– يا شيخه سيبيني شويه ..

– وحياة سيدى ذا النون م اسيبك ..

واعترضت ساق ابراهيم شجرتى قطن تشابكت فروعهما .. شق طريقه وسط الاغصان المتشابكة .. احس اللسع ونقطدم صغيرة .. قانيه .. متجمعة على ركبته .. مسح الدم بقطعة قطن دسها خلسة فى عبه .. لتأخذ طريقها الى بوركشير . وسارعت ست ابوها تمد يدها بمنديل اعتادت ان تلف به صابونتها أم ريحة .. تشمم ابراهيم المنديل عميقا ، ورده .. التقط الحنو من عينى ست ابوها .. رفع قامته ..

عندى .. من الورد

بستان .. ورد

بيطرح .. ورد

وخادم .. الورد

بيسقى الورد

ماء الورد

سبع سنين السنه

حارس جناين الورد

... قفز لون وردى باسم .. صبغ وجه ست ابوها بخجل اليف .. ارتعشت أصابعها الماهرة ، وهى تنتزع القطن من لوزاته .. بصوت خفيض .

– مش قلت لك يا ابراهيم ..

– قلت ايه ياست ابوها ..

– قلت لك متغنيش الموال ده ..

– ليه يابت ..

– أحسن الناس .. بتعرف ..

– تعرف ايه ..



– م اعرفش ..

.. واتت ابراهيم المناسبة التي ينتظرها من الفجر الباكر .

– صحيح ياست ابوها ..

– صحيح ايه ..

– الواد عواد .. راح لامـــك .. ليلة امبارح .. عشان يخطبك منها ..

.. ابتسمت ست ابوها .. بعينيهـــا الاثنتين أطبقت على وجه ابراهيم ، فى لقطـــة كبيرة .. وجه اسمر مستطيل .. جبهـــة مفرودة ، عالية .. انف طويل .. شـعيرات رفيعة صفراء .. لمعت تحت شمس العصارى فوق شفته العليا .. ورأتها شنبا مبروما .. اكبر من شنب زيدان الخولى ..

– اقول لك الجد يا ابراهيم ..

– ايوه .. قولى الجد ..

– هو .. قابل امى ليلة امبارح .. قالت له .. صحيح يا عواد يا بنى .. انت عندك نص فدان ارض .. وعندك بقرتك فيهـــا الشوية اللبن .. لكن مخبيش عليك .. العيال بيحبوا بعض .. وانت عارف بنتى مقطوعة من سجرة .. عاوزه اجوزها لواحد .. بيحبها .. وتحبه .. عشان لما اموت .. امـــوت مرتاحه .

– مقطوعة من سجرة ازاى يا ست ابوها .. دا كلام .. عيب .. انى رقبتى فدا التراب الى تدوسى عليه .. مطرح م كنتى ..

.. ارتعش جسد الفتـــاة .. كاد ان يغلبها الدمع .

.. م انى عارفه كده يا براهيم .

.. لم تقو الشتمة التى جاءت من الخلف .. من زيدان الصعيدى ، ان تشوه بهجـــه الفرحة أو تقال من رغبة الصـــغيرين فى ان يلقى كل منهما رأسه على صدر الاخر.. فوق قبة الفرن ..

– يعني ياد .. يامفعوص .. مفيش غيرك انت والبت الصفرة دى .. طول النهـــــار ردوده .

.. غطى العرق البـــارد جلد الفتى .. ضرب قلبه بشدة .. على صدره وهبـــط .. ضاق وجه الدنيا الممتد بلا نهاية .. الخولى زيدان .. ثور هائج .. لسانه اطـــول من الفرقله واوسخ من نعل البلغة القديمـــة .. يشتم ويضرب بالشوم .. وبالكف .. وبالرجل .. وله ضهر يحميه .. ملعون ابو الوسيـــة .. من طاطا .. لسلام عليكو ..

– انت ياعم زيدان .. مش عايز الخطين يجمعوا .. ويسبقوا الخطوط ..

– متردش على يا كلب .. على الحـــلال من دراعى م تروح سليم ..

.. ساد غيط الوسيلة صمت جنـــائزى

.. تخدشه خرفشة الاصابع .. تلتف حول اللوزات والسيقان تتخطى فروع الشجيرات المجموعة .. ورجال يلمون القطن من الانفار الجمعية .. الأكياس ترتفع وتربط فى طريقها الى مخزن الوسية .. صوت زيدان .. يتنقل وراء الانفار .. هائجا .. يشتم .. يهـــدد بالضرب وقطع اليومية .. ويقسم بالطـــلاق من ذراعه اليمين بانه لن يسمح للانفار بالعودة الى دورهم الا بعد غطسة (الشمس) .

– اصل انى عارفكم .. فلاحـــين .. م تجوشى الا بالكرباج ..

.. تلفت ابراهيم حوله .. صف طويل من الانفار .. رجال البلد ونسوانها وعيالها كلهم يرتعدون من حوله الوسية .. ويخافون زيدان .. يتحدثون عن طول زيدان .. وعرضه وكف زيدان (يوم م ضرب احمد قلبـه على الارض) .. وعلى بن زينب خرق طبلة أذنه لانه تجرأ وممشاشي من قدامه يوم رى القطن.

.. تنفس ابراهيم كمدا .. حط على قلبه حمل ثقيل كالرصاص .. سـار فى دمه .. امتصته كل خلايا جسده الشاب .. تمزقت امامه الحيرة التى ركبته يوما .. لانـه رأى بعينيه اباه يقبل يد حضرة العمدة .. والعمدة مجعوص على المصطبة .. الشـمس تنزف سيور الدم فى الجهة الغربية .. الصمت الثقيل .. يحط على الانفار .. الانفار يقسمون بينهم وبين انفسهم انهم لن يعملوا فى غيـظ الوسية بعد اليوم .. لكن كلا منهم يعلم يقينا انه لن يوفى بقسمه .

فجأة تصرخ فاطمة .. تلقى ما بعبها من قطن مجموع ..

ـ مبروك .. مبروك .. يا ضـنايا .. يا حبيبى ..

.. ينكسر الصمت الذى فرضه زيدان .

فمبروك مولود فاطمة الصغير الذى تنيمه بجوار عود تيل كبير .. جرجره ذئب جائع .. وانطلق الانفار .. ينهون يوما من حياتهم .. ويطاردون ذئبا بين أنيابه صغير منهم .

(٢)

.. الدق المتواصل على الباب يصل اذنى ست ابوها .. دفوفا تتقدمها هى وابراهيم الى بيت العدل .. الدق يرتفـع وهى تسرع الخطى مع العريس الى القاعة التى فرشوا فيها حصيرتهـا الجـديدة وفى ركن القـاعة الصـندوق الخشبى المزركش أحمر وأخضر وأصفر .. بجواره (البوريه) .. لمحت حلة الاتفاق .. احست الخجل .. وابراهيم يوارب باب القاعة ويسلم الرجال والنساء والاطفال المهتاجة شاش الفلاح الابيض تنقشه بقع الدم .. ونسوة يغنين .. « شرفتينا يابنتنـا يازينة .. »

« قولو لابوها ان كان جعان يتعشى .. » ترتفع القلة الجديدة .. وقبل ان يصل الماء فمها تهب مستيقظة متضايقة ظمأنة .. وتسمع الدق على باب دارهم .. وكان ابراهيـم بالباب ..

ـ خير يابراهيم .. خير ..

ـ مش باين ياست ابوها ..

وبها رغبة عميقة أن تقص عليه الرؤيا ..

ـ ياخويا ولا يهمك من زيدان .. ولا من بتوع الوسيه كلهم ..

ـ مش من زيدان ياسـت ابوها .. الانجليز مع العساكر الهجـانة والغفر .. محاوطين البلد بحالها .. وبيلموا كل الرجالة

ـ خش .. اخبيك فى قاعة الفرن ..

ـ يادى العيب يا ست أبوها .. استخبى فى قاعة الفرن .. وبعـدين يجرجرونى .. وتبقى فضيحة فى البلد ..

ـ يا خـويا يوم .. والا اتنـين .. معلهش ..

ـ مفيش فايدة يا سـت ابوها .. وانى بصلى الفجر سمعت أنهم جايبينها من فوق.. م المنصورة بلد .. بلد .. عزبة .. عزبة .. يلموا الرجاله ويشحنوهم ع المنصـورة .. دول كمان بياخدوا الجمال والخيل والحمير .. حتى الفراخ والدره .. والشعير ..

ـ يادى الخراب ياولاد .. ليه ده .. هيه المنصورة اتخربت ..

ـ منصورة ايه يا هبله.. انا سمعت انهم بيشحنوا دا كله على مصر .. وبعد كده محدش عارف

ـ يادى الخيبة .. ومين اللى هيشتغل فى أرض الوسية .

.. وشد عساكر الهجانة ابراهيـم .. وانتشروا فى باقى غرف الـدار الواسعة بارشـاد شـيخ البـلد .. للتفتيش وخرجوا

وليس بيدهم سواه •• وثار رئيس الفرقة احمر الوجه •••• يتكلم بلكنة الخواجات •• تجار القطن •• متسائلا عن الرجالة •• والجمال •• والبقر •• والخيل والحمير •• والحبوب •• ورد شيخ البلد بلسانه ويده وجسمه •• ليس بالدار سوى امرأة عجوز وابنتها •• والبنت تعمل باليومية •• فى ارض الوسية •• كل يوم برزقه •• لكن احمر الوجه •• طلب ان تتبرع العجوز لمنظمة الصليب الاحمر ••

•• لم تفهم ام ست ابوها •• سوى انهم حملوا مع ابراهيم •• عريس ابنتها •• اجرة ست ابوها جمعة بحالها •• وأربع فرخات ببيضه •• وبطه سوده •

•• فى العصر •• ارتفع كالعادة •• دخان الكوانين•• يحمل رائحة الروث الجاف المحترق ورائحة الملوخية والبامية والرجلة والحميض•• وتراءى للرجال المشحونين فى العربات اللورى •• أن دخان الطبيخ •• حريق مكتوم •• يتصاعد لاعلى •• مثلما يتجهون هم شمالا •• كل لمصير •• لا يدريه •

- ٣ -

•• فى غيط القطن •• أمام الخولى زيدان •• ترنم الانفار •• بلدى يابلدى •• السلطة خدت ولدى •• بلدى •• يا بلدى •• أنا بدى أرجع بلدى ••

وينتهى جمع القطن •• وقطع الحطب •• وحرث الأرض •• وبذر الحنطة •• ويدخل على قريتنا فصل شتاء جديد ••

(٤)

•• هذه السنة •• واجهت ست ابوها •• شتاء فريدا •• مع حلول الليل •• والدوام لله وحده •• يهل ابراهيم على كتفه لبشة القصب •• وفى جيبه الفول السودانى، وخرطة العجوة السيوى •••

- سالخير يامه امباركه •• ازيك ••

وينحنى على ام ست ابوها •• يصافحها ويقبل يدها •• سمراء •• جافة •• رقيقة الجلد •• معروقة •• والى جوارها يتخذ مقعده •• تمسح بكفها على رأسه •• تطبطب على كتفه ••

- ازيك يا ابراهيم •• ازيك ياولدى •• قومى يابت ولعى الطاجن ••

•• الصغير يستعرض فتوته فى كسر أعواد القصب •• وتستغرق ست ابوها فى اشعال النار •• ويتوسطهم الطاجن ••وتمتد الاصابع تستدفىء •• ويملأ الدخان قاعة الفرن من الارض للسقف •• وترتشف الافواه الصغيرة العصير البارد •• ومن جيب الجلابيه يخرج ابراهيم لفة العجوة السيوى •• وفيما يشبه السر يدسها فى يد امه •• ام ست ابوها •• خالتى امباركه ••

- وخدى كمان يامه •• حتة الهريسة •• دى •• اصل انى عارف سنانك مش حمل القصب •••

•• وعلى ضوء اللمبة ام فتيلة •• المختنقة بين سحابت الدخان •• تبدأ الام فى •• القص بعد تمنع وحلفان من ابراهيم ••

- يا ابراهيم •• بابنى •• حكايتنا •• عواجيزى •• قولوا انتوا حكاية من حكايات الايام دى ••

•• ويعرف ابراهيم أن فى يده ورقة رابحه •

- وحياة سيدنا النبى يامه تحكى حكاية•

•• وتصهلل ست ابوها ضاحكة •• هى تعرف مشاهد السهرة مشهدا •• مشهدا أو ذلك لا يمنعها من الضحك •• بل أن تحقق ما تتوقعه •• على النحو الذى توقعته تماما •• يدفعها •• أكثر •• الى الاغراق فى الضحك •• وتبدأ الام من حكاية ست الحسن والجمال مع ابن السلطان والشاطر حسن •• والفتاة عنيبه التى خطفها الغول وعاشت جارية فى قصر معزول عال •••

•• وتبدأ الام •• دائما •••

- صلتوا •• بنا •• على سيدنا النبى ••

وتلتقى عيوان ابراهيم وست أبوها ٠٠ وتنفرج الشفاه ٠٠ ويتأخر الجواب عن الام ٠٠ تتغاضب وتقسم بحياة سيدى ذا النون ٠٠ أنها لن تحكى هذه الليلة ٠٠ ويسرع الصغيران ٠٠٠

ـ اللهم صلى على سيدنا النبى
وتعاود الام

ـ كمان زيدوا ٠٠ النبى ٠٠ صله ٠٠ وحياة سيدى ذا النون ان م زدتوا ٠٠ النبى صله ٠٠ مانى فتحه حنكى ٠٠ اصل جيل الايام دى كده ٠٠

وتصمت الام قليلا ٠٠ ثم تبدأ بتؤده واحترام ٠٠

ـ كان ٠٠ ياما كان ٠٠ ما يحلى الحديث الا بذكر النبى عليه السلام ٠٠ كان ٠٠ فيه ٠٠

٠٠ ويحدث كثيرا ان يغلب الام ٠٠ النعاس ٠٠ فتغمض عينيها نصف اغماض ٠٠ وينخفض صوتها مع قليل من البحة ٠٠

ـ كمان زيدو النبى صله ٠٠ كان فيه ٠٠ ياأولاد ٠٠ كان النوم سلطان ٠٠

٠٠ وتصحو الام على صوت قهقهة نشوانه ٠٠٠

ـ الله يجازيكو ٠٠ يا اولاد ويجازى شيطانكم ٠٠ سمعنا ياواد يا براهيم موال ٠٠ بس يكون مدح فى سيدك النبى ٠٠ مش من مواويل الايام دى ٠٠

٠٠ وكله خجل حقيقى ٠٠ يتمنع ابراهيم ٠٠ وتلح ست ابوها هذه المرة ٠٠ ويتنحنح ابراهيم ٠٠ ويجرع كوز ميه ٠٠ ويغمض عينه قليلا ٠٠

عندى من الورد
بستان ورد ٠

لكن فى هذه السنة ٠٠ واجهت ست ابوها ٠٠ شتاء فريدا ٠٠ يدخل الليل ٠٠ وهى من المغرب ممدده الى جانب خالتى امباركه ٠٠ تتقلب على الجنب اليمين مره ٠٠ وعلى الجنب الشمال مرة ٠٠ وتهب فزعة من حلم القاها

فى بئر عميقة ٠٠ وتعود تتقلب على الجنبين وتحك تحت ابطها ٠٠ وتتسمع صوت الشيخ حلموشى يؤذن الفجر فلا تسمعه ٠٠ وتهز امها ٠

ـ احنا امته ياامه ٠٠

ـ يا ست ابوها نامى ٠٠ لسه كتير عن الفجر ٠٠

وتنام ست أبوها ٠٠ ويتعارك ابراهيم مع زيدان الخولى ٠٠ وينبثق الدم من جبهة ابراهيم وتأخذه على صدرها تجفف الدم وتربط جبهته بالمنديل ابو ريحة ٠٠ وتفزع وتقنعه ان يبقى المنديل حتى لا يصفى الجرح دمه ٠٠ ويعض فأر كبير الاصبع الوسطى من يدها اليسرى وتستيقظ ٠٠ وتتقلب على الجنب الثانى ٠٠ وتعود مشاهد الحلم الكبير ٠٠ مرة تركب هودجاوتتهادى بها الجمل حول البلد ٠٠ ومرة النسوة والفتيات يسبقنها وهى تخطو الى جوار ابراهيم حول البلد فى طريقهما الى بيت العدل ٠٠ القاعة ٠٠ الحصيرة الجديدة المنقوشة مرة ٠٠ وساده مرة ٠٠وحلة الاتفاق داخلها دكر البط فوق البسوريه ٠٠ وابراهيم يخلع جلابيته الدبلان البيضة ٠٠ دكة اللباس الحمرة المجدولة من خيوط الصوف تتدلى بين فخذيه ٠٠ مرة تجلس القرفصاء على الحصيرة بجوار المخدة ٠٠ ومرات هاربة منه فى ركن القاعة ٠٠ ودائما يوارب ابراهيم الباب ويدفع بالشاش الابيض المنقط بالدم الى الناس المنتظرة على الباب ٠٠ وتصحو قبل ان يبلغ ماء القلة شفتيها ٠٠ وتتقلب على الجنب الثانى ٠٠ تتذكر النسوان اللائى حدثتها عن ليلة الدخلة ٠٠٠
زى قرصة الدبور ٠٠٠

ـ يا بت يا ست أبوها ٠٠ أخد الوش زى قرصة الدبور ٠

ـ يا شيخة حرام عليكى ٠٠ هـ ٠٠ تخوفى البت ٠٠ والنبى ياست ابوها ٠٠ ده ٠٠ زى قرصة البرغوت ٠٠

ـ يا بت ماتخافيش ٠٠ لا برغوت ولادبور ٠٠ ولا هـ ٠٠ تبقى حاسه بحاجه ٠٠ ومن داق عسل الخلايا يصبر لقرص النحل ٠٠

ـ اقول لكم ‥ ان كانت ست ابوهـــا بتحب ابراهيم يبقى زى قرصة البرغوت ‥ وان كانت بتكرهه يبقى زى قرصة الدبور ‥

ـ ان كان كده ‥ ست ابوها مش ‥هـ ‥ تحس بحاجة ‥

ـ يادى الكسوف ‥ دا انتو نسوان ‥ بجحة صحيح وحياة سيدى ذا النون ‥

ـ آل يعنى آل ‥ يختى الى يخـاف من العرسة ما يربيش فراخ ‥

‥ ويضحك ابراهيم ‥ وتغنى النسوة شرفتينا يابنتنا يازينه ‥

‥ وحدث ان كانت تزف الى ابراهيم ‥ وهتفت لنفسها وهى نائمة ‥ يابت ده حلم ‥ ياست ابوها ‥ انت بتحلمى ‥ وتصحو فارغة تماما ‥ شىء قاسى يمسك بصدرها من الداخل ‥ لا يسمح لها حتى بأن تحزن أو تبكى ‥ تصحو مخنوقة ‥ تنهج كأنها قادمة من مشوار طويل ‥ تود لوتبكى ‥ لو تطلق دموعها تغرق الدنيا بحالها ‥

ـ امه ‥ لسه اد ايه عن الفجر ٠

ـ خلاص يابنتى ‥ الشيخ حلموشى هـ ‥ يسبح كمان شويه ‥

ـ يمكن خدته نومه ٠

ـ استغفر الله العظيم ‥ يا بنتى دا ‥ الملايكة بتصحيه عشان يدن الفجر ‥

ـ الليلة دى مالهاش آخر ٠

ـ استغفر الله العظيم ‥ يا بنتى ما ديم الا وجهه ‥

ـ لـكن يا امه ‥ هو الواحدة تحـلم انهـا بتحلم ‥

ـ اللهم اخزيك يا شيطان ‥ هـ ‥ افتى يا بنتى فى الى ما ليش فيـــه ‥ صــباح رباح نسال الشيخ حلموشى ‥

ـ أووه ‥

ـ ما تنفخيشى يا ست ابوها ‥ رزقك ع الى خلقك ‥

ـ ‥‥

(٥)

‥ بعيدا عن سوق الثلاثاء فى المنصورة ‥ وعن سوق الخميس فى السنبلاوين ‥

حتى عن ســوق الاربعـاء فى طنطـا ‥ آخر ما يصل اليه النابهون والرحاله الـكبار من رجال قرية تلبانة ‥

‥ بعيـــدا عن أرض مصر ‥ كانت نجمتان تبهتـان ببطء فى الجهة الشرقية ‥ وتباشير ضوء كابـتنبعث من بعيد ‥وانطلق دوى صـفارة كئيب ‥ أفزع الرجال النيـام أو المهدوده تحسس كل منهم فأسه ومقطفه ‥ انتزعوا أنفسهم من رقـــدة أبدية ٠ طوابير يتحلق كل خمسين حول ريش ـ يوزع عليهم زاد يوم ‥ وتفرقع السياط فى الهواء ‥ وينطلق الرجال الى الجبل ‥ جبل عال ، أعلى من النخلة مرة ‥ مرتين ‥ قـل ثلاثة ‥ تضرب الفئوس بطن الجـــبل ‥ الاكتـاف العريانة تحمـل المقاطف تفرغها بعيـدا ‥ المقاطف الصغيرة تصنع تلالا فوق الجبل وتخلى ضربات الفؤوس سكة مشـــــقوقة فى بطن المستحيل ‥

‥ فى المقدمة ‥ وفى أعلى الجبـــل ‥ وقف وجه أحمر آخر ‥ كالذى خطف ابراهيم من فوق قبة الفرن يرسم ببـــال رائق عرض السكة المشقوقة ‥ ويتقدم « ريســـه » كبار ‥ يفسرون ويشرحون الى «ريسة » أصغر ‥ كلمات تنتقل من لسان الى لسان حتى تصـل الى الفعلة فؤوسا تضرب ‥ ومقاطف تحمـل ‥ وتلالا صـــــغيرة تنشـأ ‥ وتحبـــو ‥ وتكبر على جانب السكة المشـــقوقة ‥ الرجال الفعلة ‥ الشغيلة ‥ موجات زاخرة ‥ كالعاصفة فى بحر بلا نهاية أو أن آخره من الجهة الاخرى التى وقف عندها المهنـــدس الانجليزى يرسم عرض السكة المطلوبة لتمتد فوقها خشبات ترمى عليها قضبان حديدية ‥ يقيسها انجليزى آخر ‥ ويشير لمن يربطون المسامير القلاووظ الكبيرة ‥ وتمتد ســكة حديدية تربط جنوب الشام بشماله ‥ وينقل الانجليز جيشهم مارا وسط جبل لاتبلغ أعينهم مداه ٠



الذى يشق الجبل ٠٠ لا يعرف ماذا يدور٠٠ فالفأس ترفع وتهـــوى ٠٠ والمقطـف يلقى فارغا ويحمل طافحا ٠٠ ورافع الفأس وحامل المقطف ٠٠ وربما ريسهم الصغير نفســـه ٠٠ لا يرون اكثر مما تحت اقدامهم ٠٠ الجبـــل ممتد ٠٠ فيما يراه ٠٠ بلا نهاية ٠٠ الســوط فى يد الريس يبدو اثقل من الجبل ٠٠ وهو قد قطع كل ما بينه وبين الدنيا من صــلات ، يد الفأس ٠٠ وحمل المقطف ٠٠ هما ضـمان الحياة فى هذه البقعة الغريبة من الدنيـــا الواسعة التى لا أمان لها ٠٠ يوقظونه فى الفجر ٠٠ لا يقضى حاجته ٠٠ لا يفرغ أمعاءه ٠٠ كوز ماء يســتلمه ريا ليـــوم طوله ألف عام ٠٠ كبشة عيش زادا ليـــوم ليس له آخر ٠٠ حتى السوط الذى يشق جسده غدا لازمة من لوازم العيشة ٠٠ شىء واحد يرهبه رافــــع الفأس وحامل المقطف ٠٠ ان يضعف ٠٠ ان يهن ٠٠ ان يرفع الفأس فلا تكسر الجبل القاسى ان ينخ كتفه وينوء فلا يحمل المقطف ويصـــنع التلال التى تعلو وتفصل بين عالمين ٠٠ هنـــا حقيقة واحدة ٠٠ يعرفها يقينا ٠٠ يعرفهـــا بجسده ٠٠ بعروقه ٠٠ بالنبض فوق صدغيه تحت الحمامات الموشومة ٠٠ حقيقـــة يعرفها بجسده وينكره بعقله ٠٠ هو لا يصدقها وان كان يعيشها ٠٠ انه يعرف بكيانه كله ٠٠ مصيره ٠٠ اذا تخلخل فلم تشق الفـأس ولم يحمل المقطف ٠٠ سيحملونه ٠٠٠ سيحمله هــؤلاء الانفار الذين يحادثهم ويشكو لهم.. سيحملونه ويقذفون به حيــا وراء التــلال التى تصنعها المقاطف فوق الجبل ٠٠ ليموت مفزوعا ٠٠ على مهل ٠٠ ببطء ٠٠ بانتقام ٠٠ ومن العالم الثانى ٠٠ عالم ما وراء التلال ٠٠ ينبعث منه الفحيح ٠٠ وتصعد الآهات والانين ٠٠ وأحيانا صرخات مكتومة واستغاثات ضائعة ٠٠ وهمهمات خافتة ونداء للام تمتصه الريح الباردة ٠٠ واشارة اللهفة الى شربة ماء ٠٠٠ وينقلب نصف الحى على ميت ٠٠ هو الآخر وجهه مفزوع القسمات ٠٠ عيناه تحملقان فى فراغ موحش ٠٠ فمه مفتوح ٠٠ الشفاه بيضاء مشقوقة ٠٠ وتصفر الريح ويسيل المطر ٠٠٠ ويصنع الثلج طبقة هشة ٠٠ تتلوى تحتها الاجســاد ٠٠ وتكسو ما وراء التــلال ، رائحة حيــاة تموت وموت

يتنفس .. اجساد تتقلب على جثث .. وفوقهم يتدحرج قادم جديد هده شق الجبل .. وثان أحرقه العطش طفح جردل عرق واستنفد صنوف الحكمة فى استخدام لتر الماء الذى استلمه فى الفجر وانتهى لتر الماء ولم يكف الجسد الحى عن نشع العرق .. وسقط ولم يبل شفتيه .. واستقبله عالم ما وراء التلال وهمس حاملوا المقاطف لحمله الفؤوس .

– وسمعته يا احمد .. بيقول .. شفته ميه .. حد يبل شفتى ..

– وعملت ايه يا ناشد ..

– الكرباج شق كتفى بنص ضهرى ... وخدت المقطف ونزلت ..

ويعود الرجال الذين يحملون المقاطف بروءاهم القاتلة .

– بعينك يا بدراوى .. شفت الميتين مع الحيين ..

– انت مش مصدق .. وحياة دى الليلة ومساها .. وحياة من جمعنا من غير ميعاد يا شيخ صعيدى على بحراوى .. شفت واحد ميت مطبق بصوابعه على دراع واحد حى .. وده بيفك فى صوابع الميت .. م قادر ..

– يا ناس دا حرام .. يعملو جبانة للميتين .. وجبانه للحيين ..

والاجساد الساخنة وسط الصقيع والهواء البارد الذى ينشف الطوبه – لا تكف عن طفح العرق .. الشفاه تجف .. الحلوق تجف .. كل خلايا الجسد تعتصر ، ولا يكف عن طفح العرق ..

.. الشمس تتسلط عامدة متعمدة ... لبرد ينفذ كالمسامير المحمية فى النار ... ولا تكف الاجساد عن طفح العرق ..

– لكن يا واد يا عواد .. احنا فين ..

– وحياة غربتنا يا براهيم .. انا تايه ..

– من فين جابوا الناس دى كلها ..

– م البلاد يابراهيم .. شوف .. من بلدنا لوحدها طلعوا كام راجل ..

– لكن يا عواد .. فين رجالة بلدنا .. دول شحنوا من بلدنا لوحدها .. اكثر من عشر عربيات ..

– سألت الريس صميده .. قال .. ان رجالة البلد الواحدة .. يوزعوهم على فرق كثيره .. دا غير اللى بيرموهم ورا التل ..

– بتعرف تحدت الريس صميدة يا عواد .. انت يا واد .. عمرك شاطر .. ياماكت بتروح سوق السنبلاوين تشترى عجوه ويستفندى وفول سودانى ..

– دا .. انت اللى م لفتش يا ابراهيم .. دا بنى آدم .. زى وزيك تمام .. يطلع علبة الدخان ويلف السجاير .. ومره عزم على بواحده .. وياما كلمته .. ويقولى يا عواد .. يا بحراوى يا خرع .. ومره قال لى .. احنا يا واد يا بحراوى اكثر من الف ريس.. جول الفين .. كل واحد تحت ايده جول خمسين فواعلى.. وسواعى فيهم هنود والهنود دول فيهم سيك ومسلمانى .. ومره شوزلى على واحد كان ماشى زى جزع النخله .. وقال لى انت شايف ياد يا بحراوى يا خرع اللى ماشى ده .. قلت له ايوه يا عم الريس صميده .. قال وحياه سيدك عبد الرحيم الجناوى .. ده استرالى ..

– يا واد يا عواد .. الدنيا واسعه ..

على أن ابراهيم لم يهمس الى عواد عن الشىء الثقيل الذى يربض فى اعماقه .. لقد شب على انه ليس من الحكمة ان تقص الحلم الا اذا كان يبشر بخير .. فالحلم يتحقق بتفصيله فى كلمات محددة تخرجها الشفاة ولم يسمع أمه تنطق كلمة (العرسة) التى أكلت الكتاكيت الصغيرة.. انها تسميها (المخسوفة) ان المسافة مرفوعة بين الكلمة التى وضعت للدلالة على الشر وبين الشر ذاته ..

.. فى القاع البعيد لنفس ابراهيم ... يكمن خوف قاتل .. خوف يجفل ابراهيم ان يتحدث عنه او يشير اليه .. فالحلم باشياء سيئة يتحقق بحكاية الحلم .. صورة الجبانة الغريبة التى تقع على مرأى بصر من ابراهيم .. يزيحها عن مخيلته .. فتعود اليها اكثر وضوحا .. الاموات تتقلب على الاحياء ..

.. ابراهيم يضرب الفأس بقوة يبعد عن فكره .. موت صلحى صاحبه فى الحارة وفى شيل السباخ وجمع القطن وتنقية الغلت من غيطان القمح والسهرات فى مولد سيدى ذا النون .. وان يموت الصديق الاعمار بيد الله بيده كل شىء .. أما ان يلقى صلحى

حيا يستقبل ربا كريما فى هذه الجبانة ٠٠٠ فابراهيم يكاد ان يزيح بيده الفكرة عن دماغه والواد سليمان بن عم جرجس النحال وطاقيته الدبلان البيضة ٠٠ فينك يا سليمان ٠

فات شتاء منذ شحننا الغرباء فى عربات لا تستجيب لتضرعات راكبيها وتعود الى تراب تلبانه٠٠ أما ان يقذفوا ابراهيم حيار وراء التل .. ففكرة لا يكاد أن يصدقها .. فكرة يقاومها بالفأس تضرب بطن الجبل .. وهو كله شغل يابو خليل .. فى غيطان الوسيه .. فى جبل الانجليز .. فى ارض العمدة الحرامى ابن ستين .. كله شغل .. كل شغل .. وبنى آدم ٠٠ علا ٠٠ أو نزل ٠٠ نصيبه كله لقمة عيش ٠٠ هدمه تستر جسده ٠٠ والآخر حتتين قطن على فمه ووراء ضهره ٠٠ لكن الناس الانجليز ٠ الميه بالقطاره ٠٠ عيش وأقله يكفى لكن الشرب ٠٠ والنوم ٠٠ حرام .. حرام الشغل من النجمة لنص الليل .. ياما لعنت الشيخ حلموش يابو خليل وصوته الخشن المبحوح يوقظك لصلاة الفجر .. اخترعوا ولاد الكلاب .. الصفارة الملعونة ٠٠ والريس صميده ٠٠ رجل لا فى قلبه تقوى أو ايمان .. حرام عليك ياريس صميده .. غسيل الوش ٠٠ قلنيا نستغنى .. لكن يارجل الميه المحبوسة طول الليل فى البطن .. مفيش دقيقتين نفكها .. على الحرام الخولى زيدان نفسه .. الله يعافيه بالعافيه ٠٠ ما كان يقدر يحوشنى مفكش الميه .. لكن معلهش .. يا بو خليل .. فين كلام الشيخ حلموش فى خطب الجمعه ٠٠ ايها الناس ما يصيبكم الا المكتوب لكم فى اللوح المحفوظ .. واللى يتبلى ببليه .. تكفر عن ذنوبه ... والله وحشتنى ياشيخ حلموش ، سامحنى .. ياما نعست وانت ماسك الورق فى ايديك وبتخطب خطبة الجمعه ٠٠ وده ذنب كبير يابو خليل ٠٠ والواحد عليه ذنوب ٠٠ متعدش وادى احنا بنكفر عنها ٠٠

مع اختفاء الخطوط الحمراء بعد غروب الشمس .. أحس ابراهيم بفراغ داخل ركبتيه لم يلق له بالا .. واصل طعن الجبل بفأسه .. يرفعها أعلى من رأسه بحديدتها فوق المشط التى فى حجم دماغ طفل .. ويملأ المقطف ليحمله من يصعد به الى أعلى

التل .. ويرفعها ليملأ المقطف الثانى .. والثالث ٠٠ مقاطف بعدد شعر الرأس .. ويصعد الالم الى صينيه ظهره٠٠ والمقطف يلقى فارغا ليرفع مليئا ٠٠ والفاس ترتفع وتنزل٠٠ وينتشر الالم فى ذراعى الفتى ٠٠ والفاس ترتفع وتنزل ومقاطف ترمى فارغة وتشال طافحة٠٠ والظلام يسقط ببطء وتقاد الفوانيس والكلوبات ٠٠ وتتراقص خيالات الرجال والفؤوس والمقاطف فى عينى ابراهيم .. وتدق عروق دماغه تحت الحمامتين الواقفتين أعلى صدغيه .. ويرفع الفأس وتبدو رأسها



الحديدية اكبر من قبة سيدى ذا النون
ـ واد ياهمام ٠٠
ـ ايوه يابراهيم ..
ـ انا حاسس اننى تعبان شويه ..
ـ اجمد يابو خليل ..
ـ امته .. هـ .. يخلص النهارده ياواد ياهمام ..
ـ لسه بدرى يابو خليل ..
ـ ياواد ياهمام أنا دايخ ٠٠
ـ اعوذ بالله .. اصبر شويه ..
ـ مش قادر اشيل الفأس ..
ـ اقول لك على شوره ٠٠٠
انت شايف سجرتين الينسون ٠٠ اللى هناك دول ...

وبين شجرتى الينسون الكبيرتين .. القى ابراهيم بجسده .. لم ينعس .. اسلم جسده لأمه الارض .. يتنفس فوقها كما يتنفس ورق الينسون .. وكما تتنفس دودة القرضه .. والسحليه التى تحمل مفتاح الجنة وترقد تحت جنبه ... وكما تتنفس حفنات التراب الرطيبة التى تظللها غصون الينسون ..

ـ الخولى زيدان يشد على يده .. والله حمدالله ع السلامه ياواد يابراهيم ..
ـ وامه .. خالتى أم ابراهيم .. تحتضنه وتبكى غير مصدقه .. مش مصدقه ياابراهيم يا ضنايا سيدى ذا النون له دستتين شمع ٠٠ وليله لاهل الله .. يقرا فيها الشيخ حلموش عشان رجعتك ليه بالسلامة ..

ست ابوها قادمه .. من بعيد .. تغطى وجهها .. و .. صوت غريب عن مجتمع شجرتى الينسون ودودة القرضه .. والسحلية .. وزيدان .. وخالتى أم ابراهيم .. وست أبوها صوت يأتى من اغوار مجهولة .. ويتقلب ابراهيم ويزيح عن نفسه أكوام التعب والنعاس ٠٠ وينقلب على جنبه الثانى والصوت يتضح أكثر .. فأكثر .. ويفزع ابراهيم ٠٠ وفتح ابراهيم عينيه ٠٠ ووقعتا على حافرى حصان .. وشال بصره الى اعلى ٠٠ وتجلت أمامه الرؤية المخيفه ٠٠ انجليزى على ظهر جواده .. نزل الراكب .. رطن .. شد كف ابراهيم اليمنى وقرأ رقما مثبتا على قطعة حديد تلتف حول معصمه كساعة اليد٠٠ انطلق الحصان بالراكب .. حمل ابراهيم فأسه وجرجر هواجسه ومخاوفه التى مزقته الى فرقة الريس صميدة ٠٠ وكله ينتفض بالفزع . حكى لعواد ..

ـ .. انا خايف يا عواد ..
ـ .. الخوف من الله ...
ـ هـ .. يموتونى ياعواد ...
ـ يا شيخ فال الله ولا فالك ..
ـ نفسى اشوف امى .. يا عواد .. نفسى ياعواد .. اشوف بلدنا قبل مموت ..سجرة الجميز الكبيرة .. ابو قردان . وابوبه ...
انا كنت بخاف من ترب بلدنا ٠٠ لكن الوقتى ٠٠ ياريت ادفن فيها ٠٠
ـ ياواد يابراهيم سلامتك م الموت .. وحياة دى الليلة يابراهيم انت عندى اعز من نفسى ٠
ـ انا عارف ياعواد .. وعايز اقول لك حاجة ..
ـ انا تحت امرك . قول ...
ـ ست ابوها يا عواد ٠
ـ وحياة سيدى ذا النون .. هترجع لها سالم ..
ـ انى عارف ياعواد .. قلبى حاسس .. اجوز ست ابوها ياعواد لما ترجع البلد ...

عواد يرتج جسده كالمحموم ٠٠ ويضع كفه على فم ابراهيم يمنع شر الحلم ان يتجسد فى كلمة وكلمة عرسه تفتال صغار الفراخ كالعرسة ذاتها ..

ـ اجوزها ياعواد .. دى طيبه .. قلبها ابيض زى اللبن الحليب .. ياماكان فى نفسى .. انى مش كت بحبها زى م واحد يجوز واحده .. كت بعزها زى امى .. اختى .. واحد صاحبى ٠٠ دى ـ غلبانه ٠٠ ياما شافت كان فى نفسى اريحها شويه من غيطان الوسيه ٠٠ غلبانه ٠٠ ملهاشى حد غير امها ٠٠٠
ـ كفاية ياابراهيم ..
ـ أنا بقول لك اجوزها ٠٠ عشان عارف انك بتحبها ...
ـ ٠٠٠
ـ ٠٠٠ نهرب فين ياعواد ٠٠ احنا عارفين

احنا فين .. ويمسكونا بدل م يبقى واحد يبقى اتنين ..

بات الفرخ فى قفص الثعبان ..

فى الفجر .. لم تسق فرقة الريس صميده للعمل ...

.. الشمس العجوز كسا شروقها سحابات كثيفة سوداء .. فرقة الريس صميده تقف حلقة ... فى وسط انجليزى ببذلته الصوفية الصفراء داخل معطف ثقيل تصطف أزراره من تحت الرقبة الى ما بين الساقين .. تزين اكتفافه وصدره نياشين مجهولة الهوية .. قدماه غاطسة فى شرابين من الصوف .. الحذاء لامع كالبصقة .. اللحية حليقة ناعمة .. الشنب مثلث قاعدته شفة رقيقة .. يمر بلسانه عليها يمسح آثار آخر كوب من زجاجة ويسكى كبيره .. ينتهى الشنب تحت انف طويل كالبلحة الوارمة فى لكنة متكسرة .. كالخواجات تجار القطن .. اعلن ان ابراهيم سالم .. من فرقة الريس صميده والذى يحمل رقم ١٩١٧ .. نفركسلان .. وثبت انه هرب من الخدمة .. ونحن فى حالة حرب كبيرة .. وقيادة المعسكر قررت جلده مائة جلده .. عقوبة له .. وتحذيرا لغيره .. والقيادة هذه المرة قد استعملت الرأفة ...

.. وسحبوا فتانا ابراهيم سالم الذى يحمل رقما لا يعرفه .. ادخلوا راسه فى حلقة .. شدوا يديه الى الامام .. قوسوا ظهره .. ووقعت الطاقية الصوف الحمراء المشغولة بالفرزة ومرت هبة هواء باردة هزتها .. ولم ترفعها يد .. وظهرت البقعة السوداء على جنبه الأيسر .. وحمه أم ابراهيم فى حفنة عسل اسود .. ومرت هبة هواء ثانية باردة . فحركت شعر « الاصة العايق .. » ورفع صميده يمناه بالسوط مزحوما بالزيت ثقيلا .. وصرخ ابراهيم ..وصرخ..وارتفعت الانات .. لم يسمعها سيدى ذا النون صاحب الشمع الذى لا ينطفىء .. وارتفعت الانات .. والاوراق المقدسة فى يد الشيخ حلموشى على منبر الجمعه .. وخفتت الانات .. تدلت راس ابراهيم .. العد مستمر .. ستين .. واحد وستين .. اثنين وستين .. وانتفض الرجال الواجمون .. الساكتون .. وحمله الرجال حمله عواد .. واستقبل ابراهيم ما وراء التل ...

(٦)

.. خمسون سنه ...

.. تنقص سنة . سنتان .. تنقص عشر سنوات ..

.. قل تنقص خمسون سنه .. نحن لانعد بالارقام ..

.. نحن فى حوارى تلبانه .. قريتنا .. غيطانها .. وسككها وأشجار الجميز .. وأبو قردان الوفى وحميرها التى تدب باقدامها متمهلة متباطئة .. تحرك الرقبة وتهتز الأذنان الطويلتان المتدليتان اهتزازة وقورة .. تصنع مع دبيب الحوافر المتمهلة قطعه باليه شجية .. تقول ان المصريين لم يتموا بعد رغم تعاقب فصول الفيضان .. بناء الهرم الاكبر

(٧)

الشمس على مهل تصنع يوما جديدا .. نورها يكاد يمس أعالى شجر الجازولين والكافور .. سطح الترعة تتصاعد منه بوخة كالتى تتصاعد من حلة بامية تغلى رفع غطاءها (خالتى الست) تشق طريقها .. تتبين بوضوح آثار قدميها فوق التراب الذى ختمه ما امتصه من ندى .. قشرة التراب الرطيبة تملأ بحنو الشقوق المفتوحة فى كعبى خالتى الست . الشمس تعلو من وراء غيط الذرة .. قطرة ندى تلمع خضراء حمراء صفراء على ورقة حلفه مدببة .. أوراق البشنين المفرودة كالرغيف تنتشر على سطح الترعة .. وتقفز فوقها ضفدعة .. اعواد النسيل الخضراء تمتد على الحافة .. شجرة السنط العجوز تميل بجذعها على قلب الترعة وتصل الى قرب البر الثانى ويتخذها الفلاحون الخبثاء قنطرة .. جنينة العمدة القديمة تقذف خالتى الست برائحة الجوافة .. قوية نفاذة .. نور الشمس يسقط على ورقة الجوافة الخضراء

الداكنة وتبرز حبات الجوافه .. بقع صفراء اللعاب يزحف الى فم خالتى الست ويغـرق لسانها .

ــ سبحان الدايم .. عادت جنينه الاصلاح

ــ اشوح واحدة ياعم جبرين ..

ــ بس يابت هـ يعطى من ملك غيره ..

ــ ملكه والا ملك غيره .. قنعت والحمـــد لله ..

ــ بتحدتى مين ياست ابوها ..

ــ انت فين داهيه ياواد ياعواد .. دايما ورايا .. ورايا ..

ــ انا فت ع الدار .. ندهت .. محدش رد ..

ــ مين هـ يرد .. ياحسرة .. انا صاحبه من ادان الفجر .. غسلت وشى وبلبت لقمة .. وقلت يابت ادحدحى .. اسبقيهم ع الغيط ..

ــتركبى الحمار ياست ابوها ..

ــ معدشى يمرى .. السكه خلصت .. الغيط قرب ..

ــ والله انا ياست انا بيعز على بهدلتـك فى الغيطان ..

ــ مش عيب ياعواد .. ايام .. مين اللى مرتاح .. الله يرحم الجميع ..

.. اختار عواد لست ابوها خـط قلب القنايه .. قطنه خفيف .. تقتعد حـرف القنايه وتميل الشجرة .. وتنتزع القطن من اللوزات .. وتثنى الشجرة .. وتضـغط بيدها على حرف القناية وتنتقل للشـجرة الثانية.. أولاد عواد ..ونسوان اولاده وأولاد أولاده بعدد خطوط الغيط من الحد للحـد .. وقف خفير الاصلاح الزراعى يسأل ..

ــ عايز كام كيس ياعم عواد .. ؟؟

ــ هات كيسين يابنى ..

ــ قولى موال يا خالة الست ..

عم عواد لحفيده ..

ــ اجمع ياواد وانت ساكت ..

ابن عم عواد البكرى .

ــ يا راجل .. سبب العيال يتفكو .. احنا فى مدرسة ..

ــ ياتك الغم .. لسانك طويل زى ابنك..

ــ قولى موال ياخاله الست .. وأنا هـ اجمع لك الخط بتاعك ..

عم عواد قذف حفيده بطوبه . تلقـاها الصغير باسما عابثا .. ونظر الى أبيه يرى وقع ماحدث على قسمات وجهه ...

ابن عم عواد البكرى ..

ــ ياراجل نقطنا بسكاتك .. سبب العيال يجمعوا .. والا اقول لك . قوم روح . فوت على النقطة دول كانوا عايزينك ..

ــ اخرس لسانك ياوله .. دك خيبه .. انت وابنك فى يوم واحد ..

ولكن حفيدا اخر مال على الصغير طالب الموال ..

ــ ياخايب الموال مابيجيش كده .. سيبه يبجى لوحـده دى خالتك الست متعرفشى تشتغل الام تقول مواويل ..

ــ مين أكبر ياوله .. جدنا والا خالتـك الست ..

ــ انا سـمعته مره بيقول انهم من سـن بعض ..

صحيح كان داير عليها قبل ما يجوز جدتنا .. الله يرحمها .. قبل ماتموت سمعتها بتقول لابويه ابوك ياابراهم مالوش أمان .. ياما جرى ورا ست أبوها .. كان فى نفسه يجوزها ..

عم عواد لم القطن من حزم الجميعة والقـاها فى الكيس .. ادار يده فى الكيس يسوى القطن ويكبسـه .. واسند ظهره الى الكيس وفى ظاله اخرج علبة الدخان .. وانتزع ورقة بفره من الدفتر اخذ من العلبة مسكة اصبعين دخان فرط .. انام الورقة على السـبابتين .. وبالابهامين ، برم الورقة الرقيقة .. وبطرف لسانه بلل حرفها وبرمها .. فاستوت فى يده سيجارة تعلقت بين شفتيه .. سـحب من جيبه كيس قماش صغير .. اخرج منه قطعة قطعة حديد مستديرة مع قطعة سن مشطوفة قرب يده من فمـه وضرب الحـديده على الصـخرة فتطايرت بضع شرارات وشد نفسا عميقا فاشتعلت السيجارة .. وزم شفتيـه تاركا ثقبا ضيقا .. طرد منه الدخان فانبثق خط افقى .. ومن طاقتى انفه نفث عمودين من الدخان تقاطعا مع الدخان المنطلق من بين

شفتيه..وسرح ببصره فمسح الاولاد ونسوانهم احفاده .. وبسط ساقيه .. ووقف عند ست ابوها .. ونبض عرق داخل صدره ..

— فين ياأولاد .. عمر .. عمر طويل .. من أيام م رجعت من السلطة .. رحت لأمها .. كأنه امبارح .. دارهم اللى مفيرهاشي الزمان .. ياما سمعت من المرحوم ابويه .. الفاتحه لروحه .. وروح امواتنا .. واموات المسلمين .. ياما سمعت منه ان الدار دى كان فيها بدل الراجل خمسه .. ابوست ابوها .. واخواته .. سبحان الدايم .. فضلت الوليه وبنتها .. مش هانسى ابدا .. يوم م قلت للوليه على اللى حصل للمرحوم ابراهيم الله يرحمه . الوليه حزنت عليه .. يمكن اكتر من امه .. الا ست ابوها ..م فيش وحده بالوصفه دى..تقع من طولها ساعة م تعرف ان ابراهيم مات .. يعنى يا ولداه لو عرفت اللى حصل له .. الله اعلم .. كان عملت ايه فى روحها قاست كثير م .. صدقتش ان ابراهيم قال لى ياعواد اجوز ست ابوها .. الله يرحمك يا ابراهيم .. فين العود السرح الحلو .. ياما التراب بياكل ..

— اجوز ست ابوها يا عواد ..

كانت بتحبه .. وشهاده لله .. انا م كت يعتقد فى حكاية الحب دى .. وللوقتى كمان .. لكن ست ابوها .. فيه واحده تعمل كده .. تب لو مش بتحبنى .. كان اجوزت حد غيرى .. امها قالت لها ..

— يا ست ابوها .. يابنتى .. الاعمار بيد الله .. وربنا حلل الجواز .. عواد مش غريب ..

— يا امه راسى والف سيف .. انا خلاص عرفت بختى ..

— يابنتى انت لسه صغيرة .. لا رحت ولا جيتى والبخت عند الله مدارى ..

— يا امه انى مش ها اجوز .. لا عواد ولا غيره ..

— سيبيها يا خاله امباركه .. هيه .. راميه عينيها على حد تانى ..

— ياعواد يابنى .. دى بنتى وانى عارفاها .. وحياة دى الليلة ومساها يابنى .. م حد فى دماغ ست ابوها .. سيبها شويه .. الفرقة صعبه .. ودول يابنى كانوا .. زى الاخوات ..

— ياعواد يابنى .. شوف عدلك .. بنتى حصل فى دماغها حاجة .. دى ياحبة قلبى طول الليل تعيط .. وساعات تصرخ وهيه نايمه ..

— ياخاله امباركه .. المرحوم ابراهيم قال لى .. انه م كانشى بيحب ست ابوها .. زى م واحد هيجوز واحده .. زى م يكون اخوها ابوها .. وانى مطرحه .. الجواز نصيب لكن انى خدام .. زى ابنك تمام .. وست ابوها على كل حال اختى ..

— البقيه فى حياتك ياست ابوها .. الدوام لله .. ماتحمليش هم .. احنا محناشي غرب عن بعض .

— كتر خيرك ياعواد .. عملت اللى عليك واكتر لاكت عارفه اكفن ولا ادفن .. ولا عارفه يمينى من شمالى . كتر خيرك ..

— كان عندها حق .. مين كان يتحمل اللى حصل لها .. الدار بتاعتهم اكبر من الجرن.. تنام فيها ازاى ياولداه لوحدها .. والحاجة الغريبة انها ترد كل اللى راحوا لها .. مسكينة. كان عندها حق..مين كان يتحمل اللى حصل لها .. انى نفسى لما قالو لى ياعواد ست ابوها سدت الدار عليها ومبتطلعشى أدى جمعه بحالها .. خفت اخش الدار عليها وكانت ليلة زى الطين .. دقيت ع الباب م حدش رد .. مره .. واتنين وتلاته .. ادورت من ع السطوح .. ونزلت ع السلم الخشب .. جزع نخله منجور .. لقيت نفسى جوه الدار .. ضلمه خرس .. ياست ابوها .. ياست ابوها .. خفت .. قلبى ضرب.. والفار لعب فى عبى ..

ياواد يمكن ماتت .. يمكن هجت .. زى م بتهج فى ميعاد جمع القطن كل سنة يمكن .. يمكن .. والدار زى الهو ..

— ياست ابوها .. انى عواد .. اطلعى .. ياشيخه حرام عليكى .. حلفتك بسيدى ذا النون وحياة ابراهيم .. وفين .. وفين وفين .. لما سمعت عياطها .. ياناس داحرام

.. دا الوليه دى تعذبت عذاب .. الله يلعن الحب .. على اللى بيحبوه ..

ـ.ياعـواد .. كتر خـيرك .. انا كـده مبسوطه .. سيبنى ..

ـ انتى فين الاول ·· انى مش شايف ··

ـ آنى فى القاعه اللى ماتت فيها أمى ··

ـ اطلعى ياست ابوها ..

ـ سيبنى ياعواد .. اطلع اعمل أيه .. خير ربنا كتر .. العيش فى المشنه .. والزير مليان ميه .

ـ على الطلاق من حليمه بنتالبرعى يحللها شيخ ويحرمها شيخ ما اسيبك تنامى لوحدك فى الضلمه ..

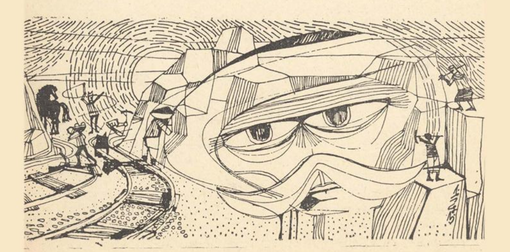
الضلمه موتت قلبها ... الضلمه وحشـه ياناس .. انى استغفر الله العظيم يارب .. م اخفش من الملايكة اللى فى القبر زى م اخاف من الضلمه .. الضلمه عملتها راجل .. فيه واحدة زيها كانت تشتغل الشغل دى كله .. أراضى الوسـيه ·· أرضى أرض ·· حوض حـوض ·· فين ·· والا فين ·· والا فين ·· انى يللى اسمى راجل ·· م اشـتغلتش زيها .. من ساعة م الوسية تحط بذوة القطن ايد ست ابوها ما تتعنشى عن الخط ·· تزرع ·· تخل تنقى الغلت ·· الحند أوه ·· تلقم الكيماوى .. الحاجه وحشه ياناس .. دى كانت بتسـقى تحت مكنه الميـه بالليل مع الرجاله .. والاكاده .. ان الناس خلاص .. قالت ست ابوها .. عادت راجل .. راجل ياخسارة .. ياخسارة يا اولاد .. الله يلعن الايام فين .. فين ست ابوها .. اللى كانت تجمع القطن طول النهار فى بؤنه الحجـر .. السمس م تشوفشى ايدها ولا وشها .. اخر النهار وهيه مروحه .. ولا بنت ناظر الوسيه كعبها يبقى احمر زى الجزره ووشـها زى الطمطمه·· الله يرحمك يابراهيم مش هـ انسى الموال بتاعك .. عندى من الورد .. كانت بستان ورد صحيح .. مين يصدق . الناس معذوره .. محدش شافها من اولاد الايام دى ..ورحت لها تانى بعد م اجوزت وبعد م جبت بسلامته ابراهيم ·· على الحرام كان قصـد خير ..

ـ ياست ابوها .. ربنا حلل الجواز من واحده واتنين ··

ـ ياست ابوها سيدنا النبى . اجوز بعد ستنا خديجة ..

ـ ياست ابوها انا خدامك .. خليكى فى دار ابوكى زى ما انت دانى ومراتى والعيـال تحت رجليكى ..

ـ كتر خيرك ياعواد .. عملت اللى عليك واكتر .. والاكاده الناس عملونى ولى امرها الواد السـعيد بن فرحة يقولى ياعواد انى عايز اجوز ست ابوها وجاى لك . تقول لها



قلت لها .. اعمل ايه .. اى حاجة احسن من الضلمه اللى عايشه فيها .. والشغل ليل نهار فى ارض الوسيه .. وارضى اللى يسوى واللى م يسواش .. انا سمعت اباهتنا بودانى اللى هياكلها الدود .. انها بنت اصل .. دارهم دى ٠٠ كان فيها بدل الجاموسه اتنين ٠٠ وبدل البقرة اتنين ٠٠ حتى الجمل سمعت ان المرحوم ابوها كان عنده جمل .. حكمة ربنا .. صحيح زى م قال الله يرحمه الشيخ حلموشى .. اللى يسأل ربنا .. عملت دى ليه .. يبقى كافر ٠٠ راح فين دا كله .. الرجاله .. والبهايم والدنيا .. والاخر تصفصف ع ست ابوها .. والطوفه تيجى لها .. لا ترضى بيه .. ولا بغيرى .

ــ يا عواد ٠٠ كنت انت اولى من السعيد بن فرحه والا غيره ٠٠ دا انت جمايلك م تتعدش ٠٠ عييت ٠٠ جبت لى ٠٠ الليمون البنزهير ٠٠ وجيت مع المرحومة امى وخدتونى للشيخ ٠٠ وجبت لى السحلية ربطتها فى رقبتى ٠٠ وخدت الميه اللى الشيخ كتب عليها ورشيتها فى سبع مفارق ٠٠ ولما امى ماتت م سبتنيش ٠٠ ومعايه زى اخويه واكتر ٠٠ والله فيه اخوات م بيعملوا كده ٠٠ كنت انت اولى يا عواد ٠٠ لكن انا مش بتاعة جواز ٠٠جواز وقلنا كل شيء قسمة ٠٠ لكن اللقمه ٠٠ الحاجة وحشة دانت عفوفه ٠٠ ياما رجعت الناس بزكاه رمضان ٠٠ وغير رمضان ٠٠

ــ يا عواد انى مش هـ أكل الا من عرقى ٠٠ طول مافيه صحة ٠٠ اروح واجى مش هاكل الا من عرقى ٠٠ لما اعيا يتولانى اللى بيتولى الناس كلها ٠٠

ــ ياستى ٠٠ ده مش عيب ٠٠ والاقربون اولى بالمعروف .

ــ انت لسه هتعرفنى يا عواد ٠٠ بعد العمر الطويل ده ٠٠العيب وقلته انى م بخدش حاجة من حد الا بعرقى ٠٠ الحمدلله ٠٠ الحمد لله ع الصحة ٠٠ رضى ٠٠ ده ثواب ٠٠ سروح الغيط حسنه عند الله ٠٠ يا بخت من نفع واستنفع ياعواد ٠٠

ــ عمرك ياست ابوها ٠٠ دماغك حجر ٠٠ لينى ياوليه ٠٠

ــ ابدا والله ٠٠ سيدنا الخضر ٠٠ جالى فى الحلم ٠٠ وقال لى ياست اباها ٠٠ سروح الغيط حسنة عند الله ٠٠

ــ تب ريحى نفسك شويه ٠٠

ــ ياواد ياعواد ٠٠ الراحه بعد لقاء الله ٠٠

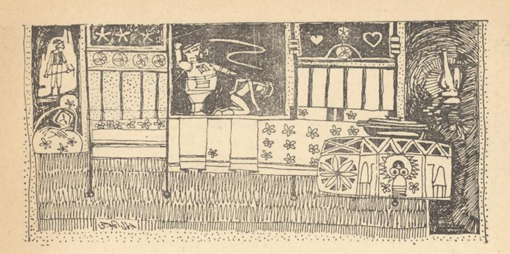
٠٠تعامدت الشمس فوق (شرخه) عم عواد ٠٠ فارتفعت حرارة الغيط ومافيه حتى قاربت الالتهاب خالتى الست العذراء ٠٠ ست ابوها ٠٠ تظلل رأسها اعواد ملوخية خضراء مربوطة من جذورها الاصابع الرفيعة الناشفة تقف مرتعشة على لوزة القطن٠٠ الاولاد يميلون عليها يخطفون لوزة من هنا ولوزة من هناك يخففوا الخط أمامها ٠٠ الصهد حاصر عم عواد فهب فزعا من البئر المظلم البعيد الذى وقع فيه ٠٠ سقط بصره على طرطور اعواد الملوخية الذى تحتمى به ست ابوها ٠٠

ــ عمر طويل يا ست ابوها ٠٠ فين يا ولداه ٠٠ لو ترضى البقاء فى منزلها ويتكفلها عم عواد ٠٠ اقل لقمة تكفيها ٠٠ لكن رأسها ناشفة وتعذبت بعنادها ٠٠

٠٠ ووقف وراءها ٠٠ نادى ولدا من أحفاده ٠٠ وأمره أن يجمع حرف القناة ٠٠ طلب من ست ابوها ان تستريح طول القيلولة تحت شجرة الصفصاف فى رأس الغيط ٠٠ رفضت ست ابوها اقسم عم عواد ايمانا بالطلاق وبحياة سيدى ذا النون والست ام هاشم انه لن يترك ست ابوها تجمع القطن فى القيلوله ٠٠ احست ست ابوها ان عواد لا ينوى التحزحز عن رغبته اعلنت اليه ٠٠ انها لن تتقاضى منه الا اجر نصف يوم ٠٠ وفى ضربة خاطفة قارنته بالوسيه ٠٠ وابتسمت فى وهن مفضلة اياه عن الوسيه التى كانت تقطع اجر اليوم كاملا. لو مرض النفر او طرده الحولى قبل غطسة الشمس ٠٠ احتد عم عواد ٠٠ واصر على عودة ست ابوها الى البيت .

٠٠ استلمها الطريق الى المنزل٠٠عزم عليها ان تركب ابنته ست ابوها فى ود ٠٠

ــ انت يا واد يا عواد عقلك ٠٠ جرا ٠٠ له حاجة ٠٠



ـ يا شيخه اركبى ملعـــون ابو النـــاس كلها ••

وهاجم عم عواد عناد ست ابوها بمناسبة رفضها ركوب الحمار •• وفى تلافيف دماغه احلام الظهيرة فى ظل كيس القطن ••

ـ عمرك دماغك ناشف •• على الطلاق ••

ـ طلاق من مين يا خيبه •• اجوزت اتنين وديتهم •• يا عجوز •• يا نارش ••

ضحك عم عواد •• ولم يكن لديه اى نبض ان يصف ست ابوهـا بالكبر او بالشيخوخة •• لا سمح الله ••

استوى عم عواد •• على ظهر حمـــاره الاســود العجوز وفى محـاذاته ســارت ست ابوها •• الحمار يحرك رقبته فى تؤدة ••• اذناه الكبيرتان تهتزان على وقع الحوافر البطىء •• تناغم صوتى وحركى يصاحب الكلمات بين عم عـــواد وست ابوها ••• عم عـــواد يعاتب صديقة العمر •• فى الم واضح •• فهى لاتأكل قدر ما يتبقى من طفل •• وخير ربنا كثير •• وقسما بمن رفع الســـماء بلا عمد عم عـــواد يشيل اللقمة من فمه الى فم ست ابوها ••• رجاؤه ان ترتاح •• لكن ست ابوها تفاجئه..

ـ فاضل أد •• ايه •• على ما يكمل الجنيه

ـ دماغك ناشف يا ست ابوها ••

ـ انا بدى اكمل الجنيه •• علشان اموت وانا مرتاحه انى سايبه تكاليف الكفن ••

•• كانا قد اقتربا من القريه •• اعترضهما الواد شحاته الغفير الميرى •• اعلن الى عم عواد ان نقطة البوليس تطلبـــه فأصغر أولاده غاب عن المدرســة بلا تصريح وحـــرروا له محضرا ومطلوب منه كلمتين فى النقطة ••

ـ صحب شحاته عم عواد الى نقطة الشرطة

ـ قادت خالتى الست قدميها الى داخـــل القرية •• كنست صحن الدار الواسعة ملأت البلاص من حنفية المجموعة ••

اوقدت الكانون تسخن صحن الملوخية •• خيمت العتمـــة •• داخل الدار الكبيرة ••• رفعت رأســـها الى الســــماء من صحن الدار المكشوف بصعوبة تبينت شقا ابيض فى السماء حسرت القـــرطة عن رأســـها ـ عرت مقدمة شعراتها البيضاء ••

فتحت صدرها •• رفعت كفيها مفتوحتين فى مواجهة وجهها •• وفى تبتل عميق •• هل •• هلالك •••

ـ اجعله شهر مبارك ••

•• آمين •

•• آمين •

•• آمين •



حسين مروة

دفاع عن الإنسان العربي

لم ينقطع ، بعد ، حديث التجربة العربية فى الخامس من حزيران (يونيو) .. فما يزال الوسط الثقافى والفكرى فى لبنان يدير هذا الحديث فى المجالس والندوات والصحافة لا يشغله عنه شاغل ..

ذلك امر منطقى ما دام فعل التجربة هذه قد هز الانسان العربى من اعماقه هزة عنيفة حركت حتى مفاهيم الأشياء التى كان يثق بها من قبل ، فطفق يرسل اليها نظرا جديدا وراءه حوافز جديدة .. ولكن الأمر يتجاوز حدود المنطق حين تبلغ الهزة مكان الثقة بالانسان ذاته ..

لقد حدث هذا فعلا لدى بعض الكتاب اللبنانيين الى جانب ما يكتبه الآخرون من معالجات تصدر عن مواقع الثقة بالانسان وبقدرته العظيمة على الاستفادة من التجربة العميقة .. وقد يكون من الحق ان اخص هذه المعالجات الايجابية نفسها بالذكر فى هذه الرسالة ، ولكن ارى ان امرها يجرى على طبيعة الاشياء ، فلا حاجة بها ، اذن – الى اعادة أوتوكيد وانما الاحق بالذكر هنا هو ما يصدر ، عندنا ، هذه الايام من معالجات سلبية للتجربة تخلص الى استنتاجات غريبة تخرج بقضية الانسان العربى عن موضعها الاصيل من الواقع ومن التاريخ .. وعلينا أن نتصدى لهذا النوع من المعالجة فى هذه الظروف بعينها نناقش اصحابها فى هدوء وموضوعية وانفتاح ..

لقد كتب بعضهم ، هنا ، عن اسباب « النكسة » العربية فى حوادث العدوان الاسرائيلى الاستعمارى فى ٥ يونيو ، صادرا برأيه فى هذه الاسباب عن نزعة مثالية ذاتية انتهت به الى القول بان ما حدث للعرب من نتائج العدوان ليس هزيمة عسكرية ، بل هو هزيمة « حضارية » .. وأن المطلوب اذن « تغيير الانسان العربى » من الاساس

.. ثم ان المطلوب – فى راى هذا البعض – انما « نطلبه من اليائسين الغاضبين المشمئزين الهاربين التائهين المصلوبين»

فى هذا الكلام وامثاله ما يدفع – اولا – ذوى النفوس الضعيفة المتزلزلة الى الياس او الهروب من المعركة ، وما يدفع – ثانية – قضية العرب عن مكانها الحقيقى وعن مجراها الواقعى والتاريخى ..

ونحن اذا رجعنا الى اصل القضية العربية فى وضعها القومى من تاريخنا ، امكننا الوصول الى استنتاج أن الانسان العربى ، خلال هذا الوضع ، لا يستحق ان يوصم بانه متخلف حضاريا ، بل الامر على العكس .. فما هو وضع القضية باساسه وجوهره ؟

نقول لهؤلاء المشككين بالانسان العربى : انه منذ ان حاول هذا الانسان – والمقصود هنا الشعب العربى – ان يخرج من عهود الامبراطوريات الاستعمارية الى عهود الثورة التحررية ، كانت قضيته ، ولا تزال ، قضية صراع بين قوى استعمارية تتشبث بوجودها فى ارضنا وبمصالحها وامتيازاتها وسيطرتها فى بلادنا ، وبين قوى شعبنا المتشبثة باسباب الكفاح المتواصل ، بمختلف اشكاله ووسائله ، للتحرر الكامل من قيود تلك المصالح والامتيازات والسيطرات .. وبالرغبة العارمة فى انشاء علاقاتها الدولية ، سياسيا واقتصاديا وثقافيا ، على اساس من مبادىء : حق تقرير المصير بحرية ، وحق كل شعب بسيادته التامة على ارضه وثرواته ومقدراته ، وحق بناء هذه السيادة فى اطار الدولة المستقلة استقلالا كاملا يلغى كل امتياز لاية دولة اخرى ، وينفى كل تدخل من اية دولة فى شئون السيادة الوطنية ، ويجعل هدفه الاول والاخير تطور قوى الشعب وتقدمها الاجتماعى والسياسى والاقتصادى والثقافى لمصلحة اوسع الجماهير الشعبية ، اى لتحرير طاقاتها الابداعية فى سبيل رخائها المادى وتقدمها الروحى ورفع مستواها الحضارى .

هذا هو جوهر القضية العربية فى الاساس ٠٠ وليست المسألة الفلسطينية بأصولها وفروعها سوى جزء من هذه القضية ، او جذر من جذورها ٠٠ اى ان مسالة فلسطين لاتخرج عن كونها جزءا من مسالة الصراع بين قوى الرأسمالية الاحتكارية الاستعمارية العالمية التى تدخل الصهيونية واسرائيل فى تركيبها العضوى ، وبين قوى الكفاح التحررى العربى لتحقيق سيادة الشعب فى بلاده وتقرير مصيره بنفسه وفق اهداف تقدمه وسعادته وكرامته ٠

ان وضع القضية على قدميها يقتضى ان تكون مفهومة على هذه الصورة المنبثقة من وضعها الواقعى التاريخى ، قوميا وانسانيا ٠٠ فاذا تصدى بعض الاقلام فى لبنان او غير لبنان ، بعد حوادث ٥ حزيران الماضى ، لاستخلاص وضع آخر للقضية يخالف هذا الوضع ، فانما ينحرف بها عن حقيقتها انحرافا يقف بها على راسها لا على قدميها ٠٠

ان تشبث الانسان العربى منذ نحو مائة عام ، فى حلبة ذلك الصراع ، بنشدانه الحرية ، وبكفاحه المتصل من اجل هذه الحرية الى حد التضحية والفداء فى كثير من المعارك ، يكشف عن ادراكه — أولا — قيمته من حيث هو انسان ، وادراكه — ثانيا — قيمة الحرية فى تحقيق انسانيته ٠٠ كما يكشف ذلك عن ايمانه العميق بالقيم الانسانية الرفيعة التى تجىء فى طليعتها قيمة التحرر من العبوديات الخارجية والداخلية ٠٠

ان انسانا يتكشف تاريخه عن هذه الحقائق ، ليس يصح أن يوصم بأنه متخلف حضاريا ٠٠ واذا كانت الحضارة ، كما يقول البعض ، هى « الحضور الانسانى واشعاعه فى الكون والمستقبل والناس» ، فان طلب الحرية كقيمة انسانية عليا ، والكفاح من اجلها ، هما التجسيد العملى الايجابى لهذا المفهوم الحضارى ٠٠

فاى حضور انسانى فى الكون والمستقبل والناس ، وأى اشعاع لهذا الحضور ، اقوى واعمق واظهر من أن ينهض الانسان العربى ، منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وهو رازح بأثقال قرون عدة من العبوديات متطلعا الى تاريخه الحضارى وآراء تلك القرون من جهة ، والى تاريخ الانسانية الجديد وراء عالمه المغلف بالظلام من جهة ثانية ، وفى قدميه انواع من القيود غلله بها استبداد الغزاة والطغاة الزاحفين اليه من أعماق الشرق واعماق الغرب منذ حملة التتار الى حملة الصليبيين فالى حملات الغزاة المحدثين المستعمرين ٠٠ ينهض الانسان العربى وهو رازح بكل هذه الاثقال ليزيحها عن منكبيه ، ولينفض عن نفسه وعقله ووجدانه ما تراكم من آثارها ورواسبها ، وليحـرر وجـوده الفردى والاجتماعى وكينونته القومية من التبعيات الدولية ومن انواع التسلط الخارجى ، ثم الداخلى ؟

منذ منتصف القرن التاسع عشر الى يومنا هذا والانسان العربى دائب فى كفاحه دون انقطاع ليثبت وجوده الحضارى ٠٠ وقد يسأل بعض هؤلاء المتشككين :

— كيف ينقضى اكثر من مائة عام ولا يصل هذا الكفاح الى غايته ، بل يصاب بمثل النكسة الاخيرة ، بالماساة ؟ ٠٠ اليست هذه احدى ظاهرات التخلف والعجز الحضارى ؟

نقول : لا ٠٠ ليس يكفى هذا المدى الزمنى للخلاص من آثار خمسة قرون وتزيد تضافرت فيها قوى تاريخية عدة رهيبة على خنق النبض الحضارى فى روح الانسان العربى وجسده معا ، فكيف اذا أضيفت الى هذه القوى القديمة قوى جديدة هى أشد فعلا وأمضى سلاحا واضرى ضراوة فى صراع قوى التحرر الناشئة عند هذا الانسان العربى الذى ما انفك طوال مائة عام حاملا على احدى كتفيه خشبة صليب ، وعلى كتفه الاخرى سلاح المعركة ٠٠

ان القوى الجديدة التى دخلت حلبات الصراع ضد هذا الانسان العربى حفاظا على امتيازاتها الاحتكارية الاستعمارية فى ارضه ، ودفاعا عن قواعدها الاستراتيجية والاقتصادية والثقافية فى جغرافيته البشرية والطبيعية ، قد زحفت اليه بوسائل حضارية مادية وهو خارج من دهاليز الزمن الوجودى الظلامى فاقدا هذه الوسائل كلها ، ولكنه صمد لها ولم يتزحزح عن قصده ، ولم يهرب من المعركة ، ولم يفقد الطاقات الروحية التى تعود به الى قلب المعركة دائما كلما دفعته عنها هذه القوى الشرسة دفعا عنيفا يبلغ احيانا كثيرة منزلة الماساة التى تزيد عن مأساته الاخيرة ، ويبلغ احيانا اخرى منزلة الفاجعة التى يتجاوز أثرها ما فعلته فاجعته الحاضرة ٠٠

كم معركة نازل فيها الانسان العربى قوى الاستعباد والاستعمار والظلام منذ بدء نهضته الحديثة حتى اليوم ؟٠٠ ولنذكر معاركه فى القرن العشرين هذا وحده : منذ مشانق السفاح العثمانى فى ساحتى دمشق وبيروت ، وثورة ١٩١٩ فى مصر ، وثورة ١٩٢٠ فى العراق ، وثورة ١٩٢٥ فى سورية ، وثورة ١٩٣٧ فى فلسطين ، الى النضالات المتنوعة الاشكال والوسائل والاساليب التى خاضتها جماهير الانسان العربى على مدى السنوات المنقضية بين الحربين العالميتين ، تعبيرا عن اصرارها على رفض العبوديات والتسلط والقهر الخارجى والداخلى ، وعلى رفضها الاستمرار فى حالات التخلف الحضارى والركود التاريخى ؟

هل الثورات والانتفاضات الشعبية المتلاحقة فى : بلدان المغرب العربى ، ليبيا وتونس والجزائر والمغرب طوال عهود الاحتلال الايطالى والفرنسى حتى الثورات الاستقلالية ، وفى مصر بوجه حملة نابليون ، ثم بوجه الاحتلال البريطانى من ثورة عرابى حتى ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢ ٠٠ وفى السودان ضد الاستعمار البريطانى ٠٠ وفى اليمن بوجه الحملات التركية العثمانية والايطالية دون أن يتنازل شعبها قط عن مناعة استقلاله حتى ثورته الاخيرة بوجه النظام الملكى الاقطاعى الرجعى ٠٠ وفى العراق وسورية ولبنان والحجاز وفلسطين مواجهة للاستبداد الاقطاعى الداخلى حينا ، وللسلطات العثمانية حينا ، وللسيطرات الاجنبية الاستعمارية حينا ، وللتغيير الاجتماعى والسياسى حينا ٠٠ هل هذه الثورات والانتفاضات

وهل أنواع النضال الجماهيرى المتواصلة التى واكبت هذه الثورات والانتفاضات أو مهدت لها أو انضجت ثمارها ..

هل اصرار الانسان العربى على متابعة الثورة العربية بحركتها الكلية المتكاملة ، رغم الانهزامات والخيبات التى أصابتها ، ورغم الانتصارات التى حققتها هنا وهناك ..

.. هل ثورة عدن وجنوب اليمن المحتل ، وثورة عمان فى اقصى الجنوب العربى ، والتضحيات وحرارة الصمود والاستمرار بهما دون توان ولا نكوص ولا انقطاع .

هل تصاعد حركة التغيير الاجتماعى والسياسى والاقتصادى والايديولوجى فى البلاد العربية لبناء مجتمع الانسان العربى على اساسين متلازمين : أساس مواجهة الصهيونية واسرائيل والامبريالية الانجلو أمريكية التى تسندهما ، وأساس تحرير هذا المجتمع من الاستغلال والاستبداد وتحرير ثرواته وموارده الطبيعية من أيدى المسيطرين غير الشرعيين عليها ، وتحرير طاقاته البشرية من القيود الكابحة لتطورها وتقدمها الحضارى ..

هل ثورات الانسان العربى ونضالاته المتصلة التى استقلت بفضلها معظم أقطاره وبنى على انتصاراتها دولات وطنية ودولات تقدمية هى التى تثير الآن غيظ الاستعمار والصهيونية ويكيد لها ويتآمر عليها كل معسكر الامبريالية العالمية بزعامة اكبر دوله المعاصرة واقواها : أمريكا ... ذلك لأن هذه الدولات العربية التقدمية ، وفى طليعتها الجمهورية العربية المتحدة ، تحمل الخطر المهدد لواقع هذا المعسكر وقواعده ومتيازاته واحتكاراته فى جزء خطير من العالم ..

هل مشاعر الوحدة والتضامن المعبأ دائما فى شعوب البلدان العربية كافة لمواجهة كل مؤامرة على كل حركة تحررية أو تقدمية فى أى بلد عربى قريب أو بعيد ..

هل تلك الوثبة التى وثبها الانسان العربى فى كل بقعة عربية يومى ٩ و ١٠ يونيه الماضى للابقاء على قيادة الرئيس جمال عبد الناصر للثورة التحررية التقدمية بالرغم من أن الظرف العصيب الذى انبثقت منه هذه الوثبة الشعبية العربية العظيمة كان ظرفا يقبض على الصدور بمقابض ماسوية قاسية ..

هل هذا كله ، أيها السادة المشككون بالانسان العربى، يمكن أن يأخذ به منطق الفكر الحضارى دليلا على تخلف الانسان العربى حضاريا ، أم يأخذ به على العكس ، دليلا على حضاريته العريقة الاصيلة ؟

هل هذا كلهسوى حجة قاطعة دامغة على عكس ماتريدون اذاعته فى الناس ودسه الى نفوسهم وعقولهم ، منتهزين حالة القلق والالم الرازحة بها أعصابهم فى هذه الظروف الدقيقة ؟

هل هذا كله سوى برهان ساطع على أن الانسان العربى مستمسك ، باصرار وعناد الى النهاية ، بأفضل القيم الانسانية الحضارية : قيم الحرية ؟

هل يصح ، فى منطق الفكر الحضارى ، أن نحسب حساب الفشل العسكرى وحده فى احدى جولات المعركة العربية الكبيرة الطويلة الامد المستمرة حتى النصر ، وأن نهمل كليا حساب تلك الذخائر الروحية ذات الدلالات الحضارية التى احتفظ بها الانسان العربى أكثر من مائة عام يكافح بدأب غير منقطع ، فى ثورة متصلة الجبهات لاقرار وجوده الحضارى ، دون أن تخذله خيبة وهزيمة .. أو يلهيه انتصار ، وما أكثر ما حقق من انتصارات ؟

❋

أيها السادة المشككون بالانسان العربى وهو فى أوج توتره الثورى ..

أنتم لا تعرفون الانسان العربى هذا ، لأنكم تجهلون تاريخه ، تجهلون تكوينه الروحى المتصل بتراثه الحضارى، أو تتجاهلون ...

أنتم لا تعرفون قضية الانسان العربى الا مقلوبة على رأسها ، لأنكم عاجزون – بحكم أسلوبكم فى الحياة – عن أن تروا القضية العربية واقفة على قدميها فى تاريخ الانسان العربى قديمه وحديثه ..

أنتم لا تستطيعون ، أيها السادة ، أن تدركوا أنقضية الثورة العربية ، أن قضية الكفاح العربى من أجل الحرية ، وهى القيمة الحضارية المثل – هى قضية الانسان فى كل مكان من الارض ، وهى لذلك تحشد الى جانب انساننا العربى صفوف البشرية التحررية والتقدمية باسرها ، وان هذه القضية ستنتصر ، وان الصفوف التى نسير معها فى قافلة واحدة ستبلغ غاياتها من الظفر لا محالة ، مهما أمعنت قوى الظلام والشر والعدوان بكيدها ..

ستنتصر قافلة الحرية والتقدم وينتصر معها كفاح الشعب العربى العظيم ..

رسالة بغداد

يكتبها : عبد الجواد داود البصري

رسالة جامعية عن شاعر عراقي مجهول

نوقشت فى قاعة كلية الآداب مساء يوم الثلاثاء ١٩٦٧/٤/٢٥ رسالة الطالب زهير غازى زاهد من قبل الاساتذة الدكتور جميل سعيد والدكتور محمود غناوى الزهيرى والدكتور على الزبيدى ، والدكتور صفاء خلوصي وكان الاستاذ المشرف على اعداد الرسالة .

وموضوع الرسالة شاعر ظل نصيبه الاهمال زمنا طويلا، هو عبد الصمد بن المعذل .. وهذا الشاعر لم يكن مغمورا فى حياته وانما كان شاعر البصرة فى عصره لكن غبار الزمن قد غطى ذكره قرونا ، فاصاب الكثير من اشعاره التلف والنسيان ، وما حفظت لنا مصادر الأدب الا القليل من شعره .

ومثل هذا الشاعر فى الأدب العربى شعراء تحتاج اليهم الدراسات الادبية لكنهم ما زالوا ينتظرون الأقلام التى تجلو عنهم غبار النسيان من امثال ابن المعذل وابن يسير الرياشى وابن لنكك البصرى وغيرهم من الشعراء الذين تفرقت اخبارهم فى مصادر الادب ومظانه ، فهم يلقون الاضواء على جوانب من الادب العربى ولهم الوانهم التى تتضح بها معالمه .. ولهم ظلالهم التى تكتمل بها صورته بالاضافة الى انهم كانوا ذوى مواهب ادبية حسنة .. فنحن بحاجة الى اظهارهم ودراستهم لأن فى ذلك فائدة لاتقل عن فائدة دراسة الشعراء المشهورين ..

وقد حرص الباحث على أن يؤكد أن عددا من الشعراء لم يتصلوا بقصور الخلفاء فيشهروا وتدون اخبارهم وتسجل اشعارهم لأنها ذات صلة بأخبار الخليفة أو جوائزه .. وانما هم ظلوا فى مدنهم بعيدين عن مقر الخلافة ومجمع الشعراء والرواة .. ظلوا يتغنون بآلامهم وآمالهم ويغنون فتون الطبيعة باشعارهم .. فقد يكون سبب نسيانهم ابتعادهم من قصور المدوحين واعتبارهم شاذين عما شاع فى عصرهم من أن الشاعر ما ان يستكمل اسبابه ويحسن قول الشعر حتى ياخذ طريقه الى قصر الممدوح حيث ينتظره الاطراء والجائزة معا .. فنسيان مثل هؤلاء الشعراء قد لا يرجع الى ضعف مواهبهم لأننا لو نظرنا فى مواهبهم وكفاياتهم الفنية لوجدناها عالية بل قد تفوق مواهب بعض الشعراء المشهورين فى فنهم ..

فأمانة البحث اذن تقتضى الكتاب الالتفات الى هذه الناحية ..وألا يتواكلوا ولا يلتفتوا الى الاسم وشهرته.. بل ينبغى لهم أن يتاملوا فيما وراء هذا الاسم من مواهب أدبية وكفايات فنية .. وبعد ذلك فليقولوا كلمتهم ، ثم اضاف :

« هذا الذى دفعنى الى اختيار عبد الصمد بن المعذل موضوعا لرسالتى فهو من الشعراء الجديرين بالقراءة والدرس .. وهو وابن يسير وابن لنكك البصرى وأضرابهم يؤلفون اتجاها فى الادب طريفا ويكونون لونا فى الفن ظريفا ..

ومنهجى فى البحث هو اظهار مدى تاثير البيئة فى الشاعر .. لأنه كما أرى لا ينفصل عن بيئته وانما يتاثربما يحيط به من مظاهر الطبيعة ومؤثرات المحيط الاجتماعى .. ثم تظهر تلك الآثار فى اتجاهه الادبى وفى ذوقه وفنون تعبيره .. »

والفصل الاول من البحث بيان لبيئة البصرة الطبيعية .. موقعها وقيمته التجارية .. طبيعة أرضها وتوسع عمرانها .. وأنهارها .. ثم مناخها وتقلبه صيفا وشتاء . وآثار كل ذلك فى شعرائها ، ومنهم شاعرنا ابن المعذل .. فقد رددوا فى أشعارهم أوصاف النخيل وهو كثير فى البصرة ، وأكثروا من ذكر السفن والزوارق والمد والجزر .. وكل ذلك من مالوفات بيئة الأنهار ..

وكان الفصل الثانى لدراسة عصر ابن المعذل ، وهو أواخر القرن الثانى والنصف الاول من القرن الثالث للهجرة حالته السياسة فقد بدأ هذا العصر بالفتنة بين الامين والمامون التى دامت حوالى خمس سنوات سالت فيها الدماء واضطربت أحوال البلاد .. وشمل هذا الاضطراب والفوضى البصرة موطن ابن المعذل فامست مسرحا للمغامرات والاهواء .. وكانت ثورة زيد النار سنة ١٩٩ هـ بالاضافة الى حوادث العنف الاخرى ، مصدرا لقلق أهل البصرة على الأخص ، ومنبعا لحزنهم ، وقد ختمت هذه الفترة بثورة عاصفة هى ثورة الزنج التى هددت عاصمة الخلافة بخطرها .. ونرى الصراع الطبقى يظهر واضحا فى هذه الثورة .. فالطبقة المحرومة من العبيد والمظلومين أيدت الثورة للقضاء على حارميها وظالميها ..

ثم درس الباحث الحياة الاجتماعية لهذا العصر ومظاهر القلق فيه واجملها فيما ياتى :

(أ) الخلاعة والتحفظ : وقد ظهر هذا التناقض متمثلا فى مختلف الطبقات ، فى الخلفاء والأمراء وأواسط الناس وغيرهم ، ورأينا كثرة الجوارى والغلمان سببا من اسباب اتساع مجالس اللهو والطرب ومن ثم شيوع المجون والتماجن .. وهما ظاهرتان لقلق العصر ..

(ب) الحرص والطموح : فقد سيطر العامل المادى على النفوس ، فشاع الاقتصاد ، وتفنن الناس فى جمع المال .. ونلمس هذا فى كتابات الجاحظ وفى أساليب تفكير المعتزلة .. وتفكيرهم كان طابع العصر ..

(ج) التمرد والفردية : فلم تكن تهمه الزندقة تستخدم للحقيقة ، وانما كانت وسيلة من وسائل محاربة الخصوم السياسيين للدولة ، واستخدمت احيانا لمحاربة حرية الفكر من قبل رجال الدين المتزمتين .

ودرس الباحث فى هذا الفصل الحياة الادبية ، والصراع بين القيم الحضارية التى تمثلت فى المعارك بين القديم والجديد من التقاليد والعادات والمثل الاجتماعية والادبية .. فكان انصار القديم من الرواة والشعراء لايرون فى خروج بشار وابى نواس وابى تمام على المألوف القديم حسنا ، ولا فى فنون المعرفة المترجمة أو المستحدثة خيرا .. وكان انصار بشار وابى نواس وغيرهما ممن مال الى التجديد فى شعره .. ينحازون للجديد وفنونه .

هكذا احتدم الصراع فى مضامير الحياة المختلفة ... وهذه الالوان من الصراعات دفعت بالكثير من الشعراء الى طريق التمرد .. فالشاعر يندفع فى هذه السبيل حين ييأس من جد الحياة ويحال بينه وبين مايصبو اليه من آمال وأمان .. يندفع متمردا على الحياة بمجونه واستهتاره أو بزهده فيها واحتقاره لها .. ومتمردا على المجتمع بهجائه له وسخره من قيمه .. هذا الاتجاه الشعرى يسميه الباحث « الاتجاه الذاتى » ، ويرى انه أصدق ألوان الشعر فى التعبير عن أحاسيس الشاعر ومشاعره وهو مذهب شاعرنا .. وقد ميزه عن الاتجاهين الآخرين فى شعر هذا العصر :

واحدهما : اتجاه التكسب : وهو ما اتصل بقصر الممدوح من خليفة أو أمير .

الثانى : اتجاه الشعر السياسى الدينى المعارض وممثله دعبل الخزاعى ..

ويؤكد الدارس انه لا يريد أن يجعل الشاعر عبد البيئة .. وانما الذى يرجحه هو أن المؤثرات فى حياته ثلاثة :

أحدهما : البيئة الطبيعية

الثانى : المحيط الاجتماعى

الثالث : مدى تقبل الشاعر لمؤثرات بيئته ومجتمعه واعتمال هذه المؤثرات فى نفسه .. فلشعور الشاعر تجاه مؤثرات البيئة ومدى تقبله أو رفضه لها .. أثر فعال فى سيرته ومنحاه فى الحياة .. ولذا قد يكون فى البيئة الواحدة مطمئن ومتردد .. راض وساخط .. فكل هؤلاء قد تأثر بأسباب بيئية متشابهة لكنهم لم يتقبلوها جميعا بصورة واحدة ولم تمتزج فى نفوسهم امتزاجا متشابها . فكل منهم قد اتخذ الموقف الذى يتلاءم وطبيعة مكوناته النفسية والثقافية فى الحياة .. فعبد الصمد بن المعذل كان شاعرا متمردا .. وأخوه احمد كان فقيها ناسكا .. وكلاهما نشأ فى البصرة وفى بيت واحد .. لكن مذهبيهما فى الحياة قد اختلفا .. كما هو موضح فى الفصل الثالث الذى درس أسرة الشاعر بالاضافة الى ذلك .

أما الفصل الرابع فقد خصص لحياة ابن المعذل ، وهنا تبرز صعوبة طالما عاناها من ترجم للشعراء القدماء .. ففى الترجمة لاى شاعر قديم معروف كثير من المشقة والعسر لما يواجه الكاتب من هذه الاخبار المختلفة المضطربة حينا والغامضة المتباينة احيانا .. فاخبار الشاعر المدونة يتصل أكثرها بأيام شهرته ، أما أطوار حياته الاولى فهى غامضة لاتجد لها سوى لمحات شاحبة لاتغنى بحثا ولايتكامل بها رأى .. هذا الشاعر المعروف .. فكيف بالشاعر الذى غطى عليه موج الزمن قرونا ؟؟ وقد واجه الباحث هذه الصعوبة باللجوء الى شعر ابن المعذل .. يلتمس أطوار حياته فيه ، ويتعرف على مذاهبه فى التعبير والتفكير .. ثم يرسم لذلك صورة تكون القصيدة والمقطوعة الوانها وسماتها وتكون الاخبار بعد غربلتها والتوثق فيها خطوطها العامة .. فقد اعتمد على شعره فى تحديد تاريخ مولده وقد ذكره أبو البقاء البدرى (سحر العيون ص ٢٨٨) على انه سنة ١٩٩ هـ ، لكنه رأى أن مولده قبل هذا التاريخ. فهو قد ولد فى أواخر سنى الرشيد المتوفى سنة ١٩٣ هـ على اقل تقدير ، وعزز رأيه بشواهد من شعره .. ثم اخذ فى توضيح ملامح حياته منذ تولى الاخفش الاوسط تأديبه حتى تطورت الى حياة متمردة ساخرة مع بيان أخلاقه وحالات نفسه .. ويبدأ فهمنا للتمرد وللشعر الذاتى المتمرد يتضح فى هذا الفصل والفصل الخامس بعده .. فالشعر

الذاتى المتمرد أصدق فنون الشعر فى التعبير عن أحاسيس الشاعر ونظراته .. فالشاعر هنا صريح لانه يكره المداجاة والخداع .. فتراه يصف مايفعل ويفصح عما يحس حتى يتراءى مستهترا سخيفا فى أعين المحافظين المتزمتين .. والحق أنه التمرد والصدق والابتعاد عن احاطة الحياة بالغموض والنفاق ..

وقد تضمن هذا الفصل ثلاث موازنات بين شاعرنا وثلاثة شعراء كلهم متمرد قلق فى حياته وشعره ..

أولهم قديم : وهو طرفة بن العبد الشاعر الذى يلتقى نسب ابن المعذل بنسبه كما يلتقى واياه فى حياة التمرد والدعوة الى مبادرة الايام وعدم الالتفات الى قيم المجتمع الذى سخرا منه .. فقد كان كلا الشاعرين باصطلاح نقاد الادب الغربيين رومانسيا عنى بالخيال المبتكر والخروج على القواعد المألوفة المرسومة وكان كلاهما جريئا عزيز النفس أطلق لسجيته العنان فى كل ماراه صائبا أو خيل اليه أنه صائب .

الثانى : هو أبو نواس وكان شاعرنا قد أدركه وضمتهما مجالس البصرة الادبية وهو آنذاك صبى يشدو فنون الادب .. وأكبر الظن أن أبا نواس الشاعر الماجن الشهير قد كان موضع اعجاب عبد الصمد الصبى .. وهو لم يخف اعجابه بشعر أبى نواس وانما كان يظهر على لسانه كما ذكر الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد » .

الثالث : هو محمد بن يسير الرياشى الشاعر الذى عاصره عبد الصمد بن المعذل وكانت مجالسه الادبية معروفة فى البصرة .. لكنه كان أهدأ من ابن المعذل نفسا وأقل منه فى تمرده عنفا ..

والغرض من هذه الموازنات هو القاء ضوء على جوانب التمرد فى حياة ابن المعذل وهو أسلوب طريف فى التراجم مستحسن فى البحوث الاكاديمية ..

أما الفصل الخامس فهو دراسة تحليلية لشعر ابن المعذل .. ولما كان شعره يمثل حياته تمثيلا صادقا فقد كان هذا الفصل والفصل السابق متداخلين متكاملين .. فقد أوضح الباحث فى هذا الفصل مظاهر التمرد وأجملها فيما يأتى :

(أ) ظهور الذات .
(ب) حب الطبيعة .
(ج) العبث والمجون .
(د) الهجاء والسخرية .
(هـ) الفكاهة والظرف .

وبين نظرته فى كل مظهر من هذه المظاهر ذاكرا الشواهد الكافية من شعر الشاعر وبذلك اتضحت لدينا صورة الشاعر العابث المتمرد .. وهذه الصورة يمكن أن تكون نموذجا لدراسة شعراء الاتجاه الذاتى .. ثم درس الصور البلاغية فى شعر ابن المعذل .. ورأى أن يجملها فى ثلاثة مواضيع هى :

التشبيه والاستعارة والكناية .

وحاول الباحث أن يبرز آثار البيئة فى كل ذلك .. لاننا نطل من أفق شعره على بيئة البصرة الطبيعية .. ومن خلاله نشرف على المحيط الاجتماعى فتتراءى لنا تقاليده وقيمه .. فراه فى تشبيهاته واستعاراته وكناياته يرسم صورة بيئته بفن مبدع وباحساس صادق ..

ثم درس الاوزان والقوافى فى شعره الذى بين أيدينا وبين نسبتها فيه فوجده قد استخدم الاوزان الصافية والمجزوءة لانها تتلاءم والغنائية الواضحة فى شعره وتتوافق والرقة فى احساسه وشعوره ..

لقد تكامل منهج الرسالة فى الفصل الاخير على الاخص وهذا الفصل والفصل الرابع هما أفق الرسالة الذى حاول الباحث أن يتطلع منه الى دراسة الشعر الذاتى المتمرد الذى مازال بحاجة الى الدراسات العميقة والنظرات الواعية ..

وذكر الباحث أن ديوان الشاعر لم يعثر له على أثر وقال : « فابن النديم ذكر فى (الفهرست ص ٢٤٠) أن شعره مئة وخمسون ورقة لكنى لم أجد له جامعا من المتقدمين ولا وجدت من ذكر له أثرا أو مكانا .. » لذا عمل الباحث جهده فى جمع شعره من المصادر والمظان المخطوطة والمطبوعة التى وصل اليها مسعاه فاستطاع أن يجمع له ستة وخمسين وستمائة بيت .. بذل وسعى فى تحقيقها ثم ألحقها فى هذه الرسالة لتقوم مقام ديوانه حتى نعثر عليه ان شاء الله ..

خلاصة المناقشات :

تناول الدكتور جميل سعيد فى مناقشة الرسالة مسألة الامانة العلمية فى استعمال المراجع وأحكام الكاتب ومنهجه فى البحث وتحليل النصوص .

فلقد أخذ عليه أنه لم يحسن استعمال المراجع فى بعض صفحات الرسالة حيث اقتبس آراء من كتاب المؤلف حديث ولم يشر اليه مع انه نقل الهوامش التى تدل على أنه راجع الاصول القديمة له وراجع بعض الكتب فى لغات أجنبية .

وأخذ عليه أنه ذكر خبرا لعبد الصمد مع شروين ففهم منه أن عبد الصمد ضجر من غنائه بينما كان النص يدل على أن الشاعر غضب عليه لانه لم يغن له . وذكر الدكتور خبر هجاء عبد الصمد لابى تمام الوارد فى الاغانى فقد فهمه الطالب على أنه رأى الاصفهانى فى حين يدل النص على أن الاصفهانى يرفضه ويدافع عن أبى تمام ويراه من الاخبار المختلقة .

وقد نقد الدكتور أحكام الطالب فى رسالته منها : حكمه على ابن المعذل انه لم يتكسب بالشعر ، وأورد له شعرا فى مديح الولاة ، وحكمه على أنه يحفظ القرآن لان الاكتفاء بمثل واحد لايعتبر حجة عليه ، وحكمه على ان عبد الصمد شاعر البصرة ، فقد كان من الشعراء الثانويين وكان هنالك من هو أعظم منه كأبى نواس الذى عاصره ، وحكمه فى حادث موت ابن المعذل وقوله ان القاضى التميمى قتله بسبب هجائه له فذكر الدكتور أن الهجاء كان بنعت القاضى بانه صائم واورد الابيات فهل يجوز لقاض وهل يصح أن يتآمر على شاعر يصفه بالصيام ؟

وناقش الدكتور جميل بعض قضايا منهج البحث فانكر عليه تكرار مقطوعات شعرية داخل الاطروحة عشرات المرات ورأى أن عقد موازنة بين ابن المعذل وطرفة فيها تكلف وافتعال لما بين الرجلين من بعد فى الزمن والبيئة والمشارب

كما حكم على فصل تناول فيه الطالب الاستعارة والتشبيه والكناية فى شعر ابن المعذل لانه نصل لا يفيد البحث فى كتابة السير وتساءل ماالذى جعل الطالب يختار الاستعارة فى شعره ولايختار الوصل والفصل والايجاز والاطناب وحروف الجر وحروف النصب .. الخ .

وتساءل الدكتور كذلك عن جدوى رسم شجرة لنسب ابن المعذل تربطه بعدنان أوقحطان .. وعلق بعض الحاضرين بانها (شجرة ملعونة) .

وقد أجاب الطالب زهير :

ان المرجع الذى أغفل ذكره كان كتابا من تاليف الدكتور جميل نفسه ومحاضراته ، وهذا الاغفال غير مقصود لانه استاذه فربما يكون عن طريق لاشعورى وضع فى رسالته شيئا من محفوظاته التى تلقاها منه طيلة عام دراسى كامل .

وأما تحليل النصوص فقال ان الحكم على أن القاضى تآمر على الشاعر مجرد ظن . وأن القول بانه حفظ القرآن عائد الى نظام التربية والتعليم السائد وقتذاك فقد كانت أول مادة تعليمية تحفيظ القرآن . وأما الفصل البلاغى فأريد منه ملاحظة أثر البيئة فى شعره من ناحية ومعرفة البيئة فى شعره من ناحية أخرى ، وهذا لا يتيسر بالفصل والوصل وغيره من الابواب التى أشار اليها الدكتور ، وانما هو ميسور فى الاستعارة والتشبيه والكناية . وبرر الموازنة بين طرفة وابن المعذل بأن سلسلة النسب تربطهما ولانهما آمنا معا بالتمرد .

وتناول الدكتور محمود غناوى الزهيرى فى مناقشة الرسالة : الفهرست وبعض قضايا المنهج وخاصة الاستفادة من المراجع الجغرافية والتاريخية ، ثم نقد كثيرا من أحكامه النقدية ، ولغته ومسالة تحقيق النصوص الشعرية .

فقد لاحظ الدكتور أن وضع الطبقات فى باب دراسة الحالة السياسية ليس له ما يبرره وكان الواجب ادراجها فى باب دراسة الحالة الاجتماعية ..

وقال ان المنهج ليس ذا طابع واضح ، فلاهو نفسى ولاهو تاريخى ولاهو لغوى ولاهو أى منهج مما عرفناه فى كتاب (مناهج الدراسة الادبية) الذى ألفه الدكتور شكرى فيصل .. وذكر الدكتور أن الطالب توسع فى أمور جغرافية لاتخدم البحث ولايراها ضرورية كمشكلة الماء ، فقد تعقبها الطالب الى القرن الرابع الهجرى مع أن الشاعر عاش فى القرن الثانى الهجرى وكان ألصق بالبحث لو توسع الطالب فى نواحى الجمال الطبيعى كنهر معقل والبساتين المحيطةبه وكيف تأثر بها الشاعر ابن المعذل .

ومن الناحية التاريخية ذكر الدكتور الزهيرى أن الطالب يقول بحصول توتر وتأهب للقتال بين الازد ووائل وبكر اعتمادا على مقال فى مجلة «سومر» ولو أنه رجع الىالمصادر التاريخية المعروفة الموثوقة لادرك أن ما حسبه توترا انما كان قتالا استمر تسعة أشهر قتل فيه شيخ الازد ونفر كثيرون .

ومن الاحكام التى أوردها الطالب فى رسالته ونقدها الدكتور الزهيرى أن تقلبات الطقس فى البصرة بين الحر والبرد حول نفسية البصريين الى نفسية متمردين فقال الدكتور متسائلا : يبدو انك تجهل طبيعة البصريين فهم أهدأ قوم وأكثرهم مسالمة ، ولم يقوموا بثورة طيلة تاريخهم والثورات التى تنسب للبصرة كانت طارئة ومن قوم غير بصريين .. وان تقلبات الطقس لاتدعو للتمرد على الطبيعة بقدر ماتدعو للتلاؤم معها والتكيف واياها .

وأما حكم الطالب على عصر ابن المعذل بانه عصر خلاعة وفردية اعتمادا على مايعرف من قصص عن الخلفاء وبعض الشعراء فحكم خاطىء لايصح تعميمه على تلك العصور المحافظة القريبة العهد من الاسلام .

وتقسيم الطالب الاتجاهات الشعرية فى العصر الثانى والثالث الى اتجاه تكسب بالشعر ، واتجاه دينى سياسى ، واتجاه ذاتى ، ليس له مايبرره .. لان كل شعر يمكن أن يوصف بالذاتية .. وقد اعتدنا فى تاريخنا أن يقسم الشعر غير هذه القسمة .

ووصف ابن المعذل بانه شاعر متمرد لايصح .. بل الاصح أن يقال انه شاعر ماجن . وليس بجائز وصف الماجنين بالتمرد والثورية .

واختلف الدكتور مع الطالب فى نواح ذوقية حول بعض الالفاظ واستساغة بعض الصور والتعابير .. واستدل الطالب على تأثر ابن المعذل بالبيئة الحضرية باستعماله : الجفنة والحوض فى شعره ، فقال الدكتور ان هذه الالفاظ من صلب الحياة البدوية .

واختلف الدكتور مع الطالب فى تحقيق بعض الابيات الشعرية .. فقد حقق الطالب بيتا من شعر ابن المعذل كما يلى :

فان بسطت يدا لم تنبسط خصرا وان تغل ..
فغل لى فيه تثليج ..

فسأل الدكتور عن معنى البيت فى عجز فاجاب الطالب: ان البيت عن البرد فى البصرة .

يعنى أن اليد لاتنبسط أصابعها لشدة البرد ومن يتقلب على فراشه يجده مثلجا فانكر الدكتور هذا التفسير وقال لافراش فى البيت وانما الصورة عن اليد فقط فى حالة انبساطها وفى حالة عدم الانبساط أو الاغلال .. والاصح تحقيق البيت على النحو التالى على أساس وجود تصحيف .

فان بسطت يدا لم تنبسط خصرا وان تغل فغل فيه تثليج .

وقد أجاب الطالب زهير على بعض هذه النقدات ومما قاله :

ان منهجه جديد يتناول طرفا من كل المناهج المعروفة ويصح تسميته بالمنهج المتكامل ، وأما عن الخلاعة والفردية فى عصر ابن المعذل فلم أعتمد علىحياة الخلفاء بل استشهدت بشىء من حياة سراة القوم وأوساطهم ، ومحافظة العصر

يكذبها حياة وسلوك ابراهيم بن المهدى وعليه بنت المهدى.

واما عن تقسيم الشعر الى ماقسمته فهو اجتهاد شخصى جديد ارجو ان يكون اجتهاداً موفقا وان كان خاطئا فارجو تصويبه .

واما التمرد فاعنى به شيئا غير الثورية والتمرد السياسى ، وانما أعنى به أسلوب حياة يجابه به الشاعر مجتمعه وعصره .. وقد اتفق مع الدكتور فى تعريفه بانه الخروج عن المألوف الى حد ما .

ولو انى لم أتوسع فى دراسة البيئة لكان أول اعتراض يأتى على رسالتى من هذه الناحية .. اما المقال الذى اعتمدت عليه فكان بقلم الدكتور صالح أحمد العلى وهو مؤرخ ثقة .

وتناول الدكتور على الزبيرى مسائل جمع الديوان ، ونسب الشاعر ، وعلاقاته بعصره ومقتله ، ومسائل أخرى عن أسلوب الكاتب .. والشواهد التى استشهد بها والجدول الاحصائى العرضى الذى أثبته المؤلف فى نهاية بحثه ومسالة الانتحال .

فرد الدكتور الزبيدى ادعاء الطالب بأن شعره لم يجمع ، وقال لو تأمل نصوص الاغانى لادرك أن المبرد محمد ابن يزيد جمع شعره ، وصاحب الاغانى يروى عنه كما أن ابن النديم ، كما ذكر الطالب نفسه ، يقول انه وجد ديوان ابن المعذل ب ١٥٠ صفحة اى أن ما فيها من الابياتالشعرية يساوى (٦٠٠٠) بيت من الشعر وكل ماجمعه الطالب من الشعر (٦٥٦) بيتا فقط .

واستغرب الدكتور الزبيدى أن يعتمد الطالب على نسب الشاعر الى عبد القيس ليستدل على تمرده وثوريته باعتبار أن عبد القيس علوية وابن المعذل من عبد القيس فهو علوى وكل علوى متمرد ثورى .. ان هذا الاتجاه فى الدراسات العلمية غير أمين لانه يولد الحزازات ويثير النعرات ، والواقع أن عبد القيس هى القبيلة الوحيدةفى البصرة التى لم يعرف اعتقادها ومذهبها كما يثبت ذلك الدكتور صالح أحمد العلى .

ان عبد الصمد بنالمعذل شاعرماجن لاقيم له ،ولاعلاقة له بالتمرد والثورية على الاطلاق .. وهل نعد على هذا القياس (الخنافس) ثوريين متمردين ؟!

والقول بان عبد الصمد ذاتى الشعر أقول فيه ماقاله الاساتذة المتقدمون واضيف ان أول من ذكر الذاتية فى الشعر وأشار اليها الدكتور الجوارى فى كتابه عن الشعر فى بغداد ، ثم توسع فى هذا المصطلح محمد مصطفى هدارة، ولم ينتبه الى التحفظات التى أوردها الجوارى فى بحثه .. وقد أخذ على هدارة هذا التوسع حين نوقشت رسالته .

وذكر الدكتور الزبيدى أن القاضى التيمى كان أحد ثلاثة زهاد قابلوا الخليفة وعرض عليهم قضاء البصرة ، فرفض اثنان أحدهماأحمد بن المعذل أخو الشاعر،وقبلها التيمى مكرها ، فهل يصح الظن بانه تامر على ابن المعذل وقتله ؟! .. والنص الوحيد الذى يذكر أنه مات مقتولا أورده الكتبى فى « فوات الوفيات » .. وارجح انه مات (معتلا) وقد صحفت الكلمة فنقلها الكتبى مات مقتولا .

وأشار الدكتور الزبيدى الى أن بعض صفحات الرسالة كتبت باسلوب انشائى غير علمى ، وأن بعض الشواهد الشعرية أخذها الطالب من عصر غير عصر ابن المعذل ، كأبيات التنوخى حول البصرة ، فقد عاش فى عصر متأخر عن عصر ابن المعذل . وكان الاوفق لو انتقى شواهد من العصر نفسه .

ولاحظ الدكتور الزبيدى أن تدوين جدول احصائى للاوزان والقوافى التى وردت فى شعر ابن المعذل لا داعى له لأن الشعر الذى أحصى لا يتجاوز ربع شعر الشاعر ، ومن الجائز اكتشاف الديوان بعد شهر أو شهرين ، فعند ذلك يعاد النظر فى الاحصائية ، ولعل الاحصائية تصبح قابلة للتغيير كلما اكتشف بيت أو قصيدة جديدة لابن المعذل .

ولاحظ الدكتور الزبيدى أن الكاتب فى تحقيق شعر الشاعر لم يعن بمسالة الانتحال التى كان لها صداها ولا حاكم الشعر المنسوب الى ابن المعذل ، ولم يصنف الشعر تصنيفا أبجديا ، ولم يدرج فهرسا للاعلام .. كما عرج على قضية المراجع واغفاله بعض المراجع التى استفاد منها ، كما انه من ناحية أخرى تجاهل مراجع كان الاجدر به الاطلاع عليها وخاصة فى دراسة بيئة البصرة فى ذلك العهد .

ثم جاء دور المشرف على اعداد الرسالة الدكتورصفاء خلوصى ، فبدأ حديثه ببيان أنه يتحمل شيئا من مسؤلية النقدات التى وجهت للرسالة وذكر أنه أعطى للطالب حريته ، فالمنهج هو الذى أشار به على الطالب منهج النقد الموازنة والاستنتاج والتحليل ، ولكن الطالب لم يأخذ بما أردته تمام الأخذ ، فقد كنت أريد هذه الامور مبثوثة داخل الفصول لا ان ترد البلاغة فصلا خاصا ، والموازنة بين طرفه وابن المعذل فصلا خاصا ، وأنا عدو للمقدمات ومع ذلك فقد كتب الطالب مقدمة طويلة لم أردها أوقعته فى المآخذ التى ذكرها الأساتذة الفضلاء وكنت آمرته بحذف الشجرة الملعونة فلم يحذفها ، وتناول فى مناقشته المسائل العروضية ومسائل القافية وهو جانب لم يتطرق له الاساتذة المتقدمون .

وفى نهاية المناقشة قدر جهد الطالب ، وأثنى عليه ، وقال ان جهده مشكور رغم المآخذ والتجريح .

وقد اتفق جميع المناقشين على أن الطالب أعطى لابن المعذل صورة أكبر من الواقع وعرضه عرضا لا ينسجم مع حقيقة شخصيته والشعر الذى وصلنا عنه . وأولاه جهدا لا يستحقه .

وقد دامت المناقشة أكثر من سبع ساعات تخللتها بعض النكات عن الشعر الحر والخنافس وغيرها .. وكانت شخصية الممتحن شخصية قوية لم تتخاذل أمام الضربات التى وجهت للرسالة .. وهو شاعر من شعراء الشباب فى العراق وله ديوان مطبوع وقد كشف الدكتور خلوصى سرا هو ان الدكتور طه الحاجرى كان ممتحنا خارجيا ، وقد قدر جهد الطالب وشكر له حسن بحثه ودراسته والمعروف أنه فى بعض الجامعات يكون رأى الاستاذ الخارجى هو المفضل ، أما فى جامعة بغداد فرأى الاساتذة المناقشين هو المفضل .

الحرب النفسية

معركة الكلمة والمعتقد

٢ - المعتقد

تأليف : صلاح نصر
عرض : تحسين عبدالحى

بصدور الجزء الثانى من كتاب الحرب النفسية ، تكون المكتبة العربية قد كسبت مؤلفا ضخما ، يزيد عدد صفحاته على الف ومائة صفحة تحتوى جميعا على دراسة قوية وهامة ، فى مجال جديد لم يتعرض له احد الدارسين من قبل . وتنبع اهمية كتاب الحرب النفسية بجزئيه ، معركة الكلمة ومعركة المعتقد . من انه قد جاء فى وقت يحتاج فيه شعبنا الى ان يعى ذاته ، وان يعرف كذلك ما يدور من حوله فى هذا العالم المتوتر الصاخب .

معركة العقل بين الماضى والحاضر

لكل انسان مطالب أساسية كثيرة حتى يستطيع البقاء ، ويجب عليه ان يكيف نفسه طبقا لأحوال بيولوجية معينة ، ولكن ليست البيولوجية هى كل شىء لدفع عجلة الحياة ، فالانسان يحتاج الى الحب ، والدفء ، والماوى ، كما أنه اجتماعى بطبيعته لا يطيق العزلة ، وتحدث للانسان فى حياته ردود فعل نتيجة محاولاته لتحقيق مطالبه الضرورية ، وتتوقف طبيعة هذه الردود على مدى نجاحه فى موازنته بين هذه المطالب الضرورية وبين ردود الفعل من الخوف واليأس والكراهية وغيرها . وهى الركيزة الاساسية التى يستغلها أولئك الذين يحاولون السيطرة على معتقدات الناس بمحاولتهم استمرار خلقها واثارتها ، وذلك بفرض مؤثرات معينة على مخ الانسان بدرجات تتفاوت مع طبيعته حتى يصل الى درجة الانهيار بحيث يتوقف المخ . ويصبح مستعدا لتقبل اى ايحاءات تفرض عليه .

وقد استخدمت اساليب كثيرة ومتعددة فى الأزمنة الغابرة للسيطرة على عقول الناس وتوجيهها .

وقد استهل المؤلف كتابه بشرح تلك الوسائل فى المجتمعات القديمة ، لكى يمكن المقارنة بينها وبين تلك الوسائل التى استخدمت فيما بعد على مر العصور فيما يواجه الانسان الحر من معارك ضد عقله وارادته لتغيير معتقداته وفكره . ولقد اصبح تعبير « غسيل المخ » شائعا ، وهو تعبير يطلق على أية محاولة تستخدم لتوجيه الفكر الانسانى او العمل الانسانى ضد رغبة الفرد الحر أو ضد ارادته أو عقله ، وغسيل المخ ليس بجديد تماما ، فلقد عرفت كل أمة وفى كل مرحلة من مراحل تاريخها نوعا من فرض المذاهب والعقائد على مواطنيها ، فقد عرفت عمليات « الاستنطاق » وعرفت « الاستقصاء » كما مرت بها عمليات التحويل الجماعى . وتختلف الاساليب المتبعة فى تقويم الفكر تبعا للظروف ، وتبعا للجماعة التى تكون هدفا للبحث ، ولكن الاصول الاساسية واحدة ، متماثلة فى كل الحالات . فهى تهدف الى السيطرة على جميع الظروف المحيطة بالحياة ، الاجتماعية والجسمانية للفرد ، أو للجماعات لاثبات أن الافكار الفردية غير صحيحة ، ويجب الا تتفى ، كما تهدف الى تنمية الطاعة والاخلاص لعقيدة معينة ، ولقد تعددت الاساليب الرامية الى ذلك . فمنها عزل الشخص عن الحياة العامة ، والضغط الجسمانى مثل الجوع ، والاجهاد ، والتهديدات وأعمال العنف ، والاذلال والضغوط ، ومنها أيضا الدروس الجماعية . وقد أشار الكتاب الى نظريات وتجارب بافلوف التى اثبتت انه يمكن تكييف الكلب - الذى اجرى عليه تجاربه - مثل الانسان على كراهية من كان يحبهم سابقا ، أو حب من كان يمقتهم قبل ذلك ، ويعتبر هذا الاكتشاف ذو اهمية كبيرة فى عمليات التبشير المذهبى ، او فى عمليات التحول الدينى ، وقد ارتبطت دراسات بافلوف ارتباطا كبيرا بموضوع تغيير افكار الناس ومعتقداتهم تغييرا شاملا ، كما انها استخدمت فى حالات كثيرة من حالات استنطاق الاعترافات والتحويل الايديولوجى ، وقد نجحت تجارب بافلوف فى توضيح كيفية تغيير أفكار الناس ومعتقداتهم تغييرا شاملا ، وكانت هذه التجارب والابحاث ترمى الى تغيير أنماط السلوك عند الانسان ، بجعله فى حالة شلل ذهنى وعقل لكى يكون مهيئا لتقبل اية افكار تملى عليه ، حيث يكون خالى الذهن ، ومقدرته على المناقشة منعدمة . ولكن كيف يتم ذلك .. ان له وسائل وأساليب » وهو ما يعالجه الكتاب فى الباب الثانى تحت عنوان :

الوسائل والأساليب

وفى هذا الباب بين المؤلف الكيفية التى يمكن بها غرس انواع مختلفة من العقائد فى كثير من الناس ، بعد أن تكون وظائف المخ قد اضطربت اضطرابا كافيا نتيجة تعرضه لتوترات خارجية شديدة ، مثل الخوف والغضب أو القلق او الاستثارة سواء أكانت عرضية أم مقصودة ، وفى الفصل الاول من الباب « أساليب الانقلابات الدينية والتحولات المذهبية » يتحدث الكتاب عن الاساليب التى واجهها الانسان عبر التاريخ لتحويل معتقداته الدينية والمذهبية ، حيث ارتبط الدين بالسياسة ، وحيث استغل الدين للسيطرة السياسية على الجماهير . كما أن الوسائل التى اتبعت والتى وقع على أثرها التحول كانت وسائل ذات طبيعة اخاذة مثيرة بلغت فى بعض الاحيان حد الهستيريا الجماعية .

ومن الواضح ان عملية التحول تقوم على صراع عقلى وعلى احساس بعدم الكفاية ، والا فلن يكون هناك مغزى من وراء تغيير معتقدات الفرد . ولقد اظهر بافلوف بالتجربة ان الاجهاد العصبى هو احد الظروف او الاحوال التى ادت الى تدمير انماط المخ القديمة ،

وابدالها بانماط جديدة . فالحب سعيا وراء موضوع ما ، والكراهية، والغضب والقلق ، والياس والاجهاد الناجم عن الصراع العقلى أو الاجهاد البدنى - كل هذه الحالات تعد العقل - فى ظروف بيئية مناسبة للتحول الدينى .

والتحول الدينى - من وجهة نظر العالم النفسى - قد يتخذ صورة هى ملء الفراغ الذى تخلف عن التذمر أو عدم الرضا عن الشخصية القائمة ، وفى تلك الحالة يقدم التحول الجزء الناقص من اللغز ، أو قد يتخذ التحول صورة أخرى هى استبدال جزء من السلوك بآخر ربما ظل فى ثبات لعدة سنوات سابقة ، ومن الواضح ، أن التحول يغير معتقدات الفرد واعماله ، ولكن ما كان هذا يحدث لو أن المعتقدات الجديدة لم تكن فى حالة اتفاق تام مع شخصية الفرد الاساسية .

بين العلاج النفسى
وطب الأمراض العقلية

وتوضح بعض أساليب العلاج النفسى ،أن أساليب التحول الدينى والسياسى لها ما يقابلها فى تجارب الطب النفسى ، اذ يمكن احداث التحولات الفسيولوجية فى وظائف المخ باستخدام مثيرات سيكلوجية متكررة دون الالتجاء الى العقاقير ، أو احداث انهاك خاص للفرد . او أى ضغط صناعى يعين المريض على عملية التفريغ الانفعالى ، على الرغم من أن هذه الوسائل تساعد فى الاسراع على احداث التفريغ الانفعالى المطلوب . ويبين المؤلف فى هذا الباب بعض الاساليب التى تستخدم فى علاج مرضى الطب النفسى ، والعلاقة بينها وبين تلك التى تستخدم فى عمليات التحول الاخرى. ومن هذه الاساليب التنويم المغناطيسى والتحليل النفسى ، واستخدام العقاقير لما لها من تشابه كبير بأساليب التحول الدينى والسياسى من ناحية الآثار الفسيولوجية التى تحدثها فى وظائف المخ .

ويعتمد التحليل النفسى أساسا على مثيرات سيكلوجية متكررة ، وكلما كانت شخصية المريض أكثر ميلا الى المزاج الطبيعى ازدادت ثقتها عند رؤية الأمور فى ضوء جديد ، وبعد تفريغ انفعالى عنيف بدرجة معينة فان المريض يتحول تماما عن آرائه فى الدين أو السياسة او فى وجهات نظره تجاه العائلة أو الاصدقاء ، وقد تتحول وجهات النظر هذه بسرعة ، كما أنه يمكن زيادة القابلية للايحاء ولو مؤقتا عن طريق التفريغ الانفعالى المتكرر ، فقد يصبح المريض أكثر قابلية للتاكيدات العادية من الطبيب النفسى المعالج ، وهذه التاكيدات قد يستحيل أن يتقبلها من محاميه ، أو من الواعظ أو طبيب العائلة وهو فى حالة عقلية أكثر هدوءا .

وسائل الاستجواب

ويعرض لنا المؤلف فى هذا الباب أساليب استنطاق الاعترافات ، مشيرا الى عملية غسيل المخ وكيف أنها قديمة غير مستحدثة .

ففى هذا العصر الذى نعيش فيه نجد أنه حتى فى تلك الدول الكبيرة المتقدمة التى تتشدق بالديمقراطية ، وتفخر بسلامة التحقيق وعدالته ، كثيرا ما يدان أبرياء ويساقون الى الاعدام نتيجة استنطاق المتهمين اعترافات خاطئة ترجع اساسا الى الاساليب التعسفية التى استخدمت فى الاستجواب مثال ذلك : اعترافات تيموثى ايفانز، بقتله لزوجته وطفله ، حيث كانت اعترافات ايحائية ، اذ اكتشف القاتل الحقيقى بعد أن أعدم ايفانز ، وكان البوليس قد استطاع أن يبتز منه اعترافات غير صحيحة .

وبعد أن يستعرض المؤلف وسائل الصينيين للحصول على الاعترافات يقول : اننا نجد أن وسائل الاستجواب واستنطاق الاعترافات لا يختلف بعضها عن بعض من ناحية الجوهر فى كل المجتمعات المختلفة ، وان كان الشيوعيون قد استخدموها كوسيلة من وسائل التثقيف الايديولوجى . ويتطلب استنطاق الاعترافات دائما من المستجوب ان يحاول خلق مشاعر من القلق والاثم عند الفرد ، ووضعه دائما فى حالات من الصراع النفسى ، وحتى لو كان المتهم مذنبا بحق فان المستجوب يحاول دائما اثارة الاضطراب فى وظيفة مخه العادية بحيث تصبح أحكامه خاطئة . وحينما يصل الفرد الى درجة الانهيار نتيجة الاستجواب فان عقله لا بد من أن يحدث له أحد أمرين : اما أن يظهر استعدادا فى زيادة القابلية للايحاءات التى قد يستغلها المستجوب فورا فى عملية اقناع الفرد باعترافه. واما أن تحدث حالة متناقضة تماما . فيصبح ذهن الانسان فى حالة من الارتباك والفوضى ، وفى هذه الحالة ينقض الانسان تماما كل معتقداته وانماطه السلوكية السابقة بشكل يجعله يحس الرغبة فى الادلاء باعترافات تتناقض مع طبيعته وأحكامه العادية .

ويستمر الكتاب بعد ذلك فى دراسة العوامل الفسيولوجية والسيكلوجية التى بنيت عليها نظريات ووسائل كشف الكذب ، وتوضيح الاستجابات وردود الفعل التى تحدث نتيجة استخدام هذه الوسائل فى عمليات الاستجواب ، والحصول على الاعتراف .

الصراع الايديولوجى

ويستعرض المؤلف بعض مظاهر الصراع الايديولوجى من الناحية التاريخية . مثال ذلك الموقف الذى وقفه اليهود عندما ذهب أهل قريش يسالونهم عن الاسلام ، وهل فى كتبهم ما يشير الى الدعوة التى جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام ؟ .

ومع أن اليهود « أهل كتاب » ومن أهل التوحيد ، فقد أكدوا لقريش أن عبادتهم خير من هذا الذى جاء به الرسول الكريم ، فكان بهذا ان ناصروا عبادة الأوثان على الدعوة الى وحدانية الله .

وفى الحرب الاهلية الاسبانية مثل رائع لتاثير الايديولوجيات المختلفة على عقائد الشعب . بدرجة أوصلتهم فى النهاية الى فقد الثقة فى بعضهم البعض حتى أصبح من الضرورى قيام حرب أهلية استمرت سنوات عديدة قبل أن يشعر أحد الجانبين بالامن والسلامة .

واذا ما انتقلنا الى تاريخ أوربا المعاصر نجد فى النازية مثلا قيما

يوضح حقيقة العلاقة بين الحرب النفسية التى شنتها ألمانيا النازية وأيديولوجية الحزب النازى . وتعتبر سلسلة الانتصارات التى لم تسفك فيها أية دماء منذ بداية احتلال أرض الراين حتى عقد اتفاقية ميونخ هى قمة نجاح هتلر . بل نستطيع أن نؤكد ان انتصاراته فى ميدانى الحرب النفسية، والحرب السياسية لا يمكن مضارعتها، كانت استراتيجية هتلر الاولى فى غمار هذه الحرب النفسية هى جمع الشعب الألمانى كله فى كتلة واحدة تثير الرعب والفزع فى العالم أجمع وقد تم ذلك جزئيا عن طريق برنامج الحزب النازى الذى عمل لتحطيم : اليهود، والكنائس والجامعات ، واتحادات العمال ، والاشتراكيين ، والشيوعيين ، وغيرهم ممن يشك فى مشاعرهم الدوليه واتجاهاتهم الى المسالمة . وقد ادرك هتلر أن الخوف من الشيوعية قد قوى بين صفوف المحافظين فى بريطانيا ، وفرنسا ، والولايات المتحدة . اذ رأوا جميعا أن تحالفه مع اليابان وسيلة لأمنهم فى الباسفيك . وكان المحافظون ينظرون الى هتلر نظرتهم للرجل الذى حل مشكلة العمال لا نظرتهم للرجل الذى جند العمال لصناعة الاسلحة . وكان هتلر استاذا عبقريا فى استغلال خلافات الآراء بين الحلفاء ، وقد نجح فى مناقشة موضوعاته السياسية الاوربية لا فى الصورة التى يراها هو بها بل فى الصورة التى تسبب اقصى خلاف فى الرأى العام الخارجى .

وبعد الحرب العالمية الثانية انقسم العالم الى كتلتين تتنافسان فيما بينهما ، هما العالم الشرقى والعالم الغربى .

أو بمعنى آخر ، بين الماركسية والراسمالية ويبدو لنا ان التعارض هو تعارض أيديولوجى تماما وتبقى كتلة المحايدين بين الاثنين متأرجحة بين هذا وذاك .

وبعد دراسة مستفيضة لكيفية توجيه الفكر وخاصة عند الصينين .. يصل بنا الكتاب الى :

الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى

بعد أن قدم لنا المؤلف دور الأيديولوجيات بصفة عامة فى معركة المعتقد ، والصراع الذى قام بين الناس فى الأزمنة المختلفة من أجل هذه الأيديولوجيات . يقدم لنا فى هذا الفصل طبيعة التحول الذى يحدث فى الافكار داخل أيديولوجية واحدة .كانت الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى فى الصين هى النموذج الذى اختاره المؤلف لنا ، كموضوع معاصر ومطروح على مستوى العالم اجمع . يقول المؤلف : فيما يتعلق بمركز ماوتسى تونج نفسه، فليس هناك ظل من الشك فى أن بعض الشخصيات الهامة لا بد وانها قد اختلفت معه ، ونادت بسياسة مختلفة أو طالبت بتاكيد اهمية نواحى معينة فى سياسة الدولة . ولكن من المبالغة أن نقول : انه كان هناك خطر ما يهدد مركزه وسلطته ، مما جعله مضطرا الى تنظيم حملات الاصلاح هذه ، وعمليات التطهير حتى يحتفظ بسلطته. ولا يزال ماوتسى تونج - بالطبع - الرجل الذى يقود الدفة في الصين وهو الذى نظم الحملات والكفاحات الحالية لا للاحتفاظ بسلطته ، ولكن لكى يضمن لعمله الثورى ولقوة آرائه ومبادئه أن تعيش من بعده ،ومن بعد الجيل الذى يعاصره . والواقع أن ماوتسى تونج كان ولا يزال يحس قلقا ازاء مستقبل الثورة فى الصين، وازاء الحماس الثورى فى نفوس الشباب. وهو يأمل أن يورث « التناسق الكامل لأفكاره » لا للجيل الحاضر والمقبل فحسب ، بل للأجيال اللاحقة لشعب الصين الكبير . ومن ثم شنت المعركة الأيديولوجية الكبرى الاخيرة لصياغة المفاهيم الجديدة ، ولكى تضمن اشتعال نار الثورة وتفكير ماوتسى تونج الى الأبد فى عقول الجماهير الصينية . وتنفيذ برنامج واسع المدى للتلقين فى صورة نضال أيديولوجى ، وتدريب ملايين الأفراد الذين يخلفون ماوتسى تونج على مواصلة العمل الذى قام به وهو ضمان بقاء الروح الثورية والعظمة القومية للصين . ومن الطبيعى أن أكثر أتباع ماوتسى تونج ولاء واخلاصا هم الذين يمرون بالتجربة بسلام ، وهم حتما سوف يكونون نواة الزعامة على كل المستويات بما فى ذلك المستويات العليا فى الحزب والدولة والقوات المسلحة ومعنى هذا فان « الثورة الثقافية » ما هى الا كفاح من أجل السلطة ومن أجل الخلافة .

وكان ماوتسى تونج قد حذر من أن النصر سوف يخلق ميولا وطبائع معينة فى الحزب مثل : الصلف والغرور ، والكسل ، وحب اللهو ، وتجنب الحياة الكادحة المتواصلة ، وكان ماوتسى تونج يريد تجنب تلك الأخطاء . وقد تكهن ساسة الغرب . بانه لو لم يتيسر الوصول الى توافق مع الجيلين : الاول والثانى من الصينيين فقد يكون من الممكن الوصول الى هذا التوافق مع الجيلين الثالث والرابع .

ويعتقد الصينيون ان التعايش السلمى الذى ينادى به «المستعمرون» ما هو الا استراتيجية تستهدف افساد المجتمعات الاشتراكية ويريد ماوتسى تونج أن يتأكد أن انهيار الثورة - الامر الذى يتوقعه وينتظره الغرب - لن يحدث فى الصين .

وفى الدورة العاشرة الكاملة للجنة المركزية للحزب الشيوعى سنة ١٩٦٢ فكر ماوتسى تونج فى اتخاذ اجراءات بعيدة المدى لمواجهة الميول البرجوازية المناهضة للحزب . وبالفعل شنت حملة تعليمية اجتماعية فى الفترة ما بين ١٩٦٣ - ١٩٦٤ ، حيث مهدت الجو « للثورة الثقافية » التى جمعت اطراف كل الحملات السابقة وادمجتها فى حركة واحدة شاملة واسعة المدى .

وتحاول الثورة الثقافية توجيه صراع طبقى بازالة العناصر المناهضة للحزب والعناصر البرجوازية ، والعناصر المنحرفة ، وفى نفس الوقت اختيار نواة الزعامة - النواة التى تعتمد عليها جميع المستويات فى الحزب وفى الدولة والفكرة الرئيسية التى تغذى الحركة الحالية فى الصين هى اعطاء الأسبقية والاهمية للنواحى السياسية على المهنية وللايديولوجية على الخبرة والحذق .

وهذا لا ينطبق على الحزب والقوات المسلحة فحسب ، بل ينطبق على : المزارع ، والمصانع ، والجامعات والكليات والمدارس . فلا يكفى الآن ان يكون المرء مطلعا وعقائديا وخبيرا » ولكن من واجب المرء أن يكون عقائديا اكثر منه خبيرا .

وقد ألقيت الأضواء على تلك النقطة بالذات عندما شنت الحملة التيهدفت الى أن تؤكد : أولوية السياسة ، وزعامة الحزب فى القوات المسلحة . وعن السياسة والخبرة . أجريت مناقشة فى السلاح الجوى لجيش التحرير وانتهت المناقشة الى نتيجة عامة هى : أن ما يمجد الآن فيالحملة الحالية ليس العمل مهما كان متسما بالخبرة الفائقة ، ولكن ما يمجد هو روح الشعب لأن هذه الروح تدفع الشخص الى تجاوز عمله العادى وبذل التضحية الفردية والجماعية . وهذا توضيح لمفهوم ماوتسى عن « القنبلة الذرية الروحية » للصين ـ أى طاقة الملايين الملهمة أيديولوجيا والمنظمة سياسيا ، تلك الطاقة التى تواجه التحديات التى تجابه الأمة . والتى تحقق انجازات عظمى فى وجه المصاعب والأخطار ـ وبعد دراسة استنتاجية لمراكز القوى داخل الصين ، ومن سيذهب ومن سيبقى من الزعماء المعروفين .. يصل المؤلف الى القول « والملاحظة التى يستطيع المرء أن يبديها فورا هى أن الهدف كله من الثورة الثقافية هو المحافظة علىالثورة، ولذلك فانه لا يمكن أن تكونالتطورات أو التغييرات تمهيدا لتخفيف سياسة الشدة التى تتبعها الصين ، فانالقومية الصينية ـ أيضا ـ عامل لضمان استمرار سياسة الشدة .

ولقد أصبح تفكير ماوتسى تونغ بمثابة دعامة تحافظ على تماسكالدولة الصينية الهائلة وعلى عظمة الصين ومجده كشعب ، وكقوة عالمية .

ويستنتج المؤلف أن السياسة الصينية بعد الثورة الثقافية ستظل متسمة بالشدة مع الولايات المتحدة..

أما الاتحاد السوفيتى فانه من الواضح الا تتحسن علاقاته مع الصين .

ويستعرض الكتاب بعد ذلك أسطورة العنصر ، وزيفها ، وجذورها التاريخية والأساطير الخاصة بالتفوق العنصرى . وآثار الاستعمار علىالشعوب الملونة . والقيم الروحية عند الشعوب الملونة . أو ما يسمى اليوم بالدول النامية .

ويستعرض بعد ذلكالسحر وسطوته على العقل ، والطابع الاجتماعيللسحر، والسحر من الناحية التاريخية ، فى مصر القديمة ، والبيئة السحرية فى المسيحية ، ومدرسة الكابالا اليهودية فى السحر ، الى أن يأتى الى الباب الثامن والاخير من الكتاب .. الذى يشرح فيه المؤلف كثيرا من الالوان الزائفة من المعتقدات التى ما زالت تسيطر على عقول البسطاء من أبناء شعبنا ، مثل الولاية والاعتقاد فى الاولياء الموتى . وضرب الزار ، وارتباط الزار بغسيل المخ .. والآثار الفسيولوجية لضرب الزار ، وكيف أن الزار يعتبر وسيلة من وسائل التفريغ الانفعالى . ويستنكر المؤلف استخدام المخدرات وانتشارها لأنها تخدر الشعوب ، وتحد من مقدرتها على الحركة الطليقة .

ان جعل مخ الشخص العادى ينهار تحت وطأة التوترات التى تفوق حد التحمل ، ومحو الأفكار القديمة ، والأنماط السلوكية ، وزرع أفكار جديدة فى مخ الانسان يعتبر امرا واحدا ، ولكن الأمر المختلف عليه هو جعل هذه الآراء الجديدة تتخذ لها جذورا ثابتة راسخة .

ويختتم المؤلف بحثه القيم بقوله : نود أن نؤكد أن الهدف الأساسى من هذا الكتاب ليس نقد أى نظام أخلاقى أو سياسى . بل هدفه هو أن يبين كيف أن المعتقدات سواء أكانت خيرا أم شرا . حقيقة أم مفترضة ، فانه يمكن بذرها فى العقل الانسانى ، كما انه من الممكن تحويل الناس الىاعتناق معتقدات تسيطر عليهم وتتنافى تماما مع ما كانوا يعتنقونه فيما مضى ولو الى حين .

●

وبانتهاء هذا العرض السريع لكتاب الحرب النفسية بجزئيه . نكون قد وصلنا الى تساؤل هام وحيوى . لا مناص من طرحه هنا .

وهو الى أى مدى استطاع هذا السفر الضخم بجزئيه ان يؤثر فى عقولنا ، ونفوسنا .

صحيح ان الحكم على مثل هذه الأمور سوف يكون متروكا ، لأولئك الذين سيؤرخون لفكرنا العربىالمعاصر. ولكننا هنا نعبر عما استطعنا ان نعرفه ونعيه . فلقد انتهى الجزء الاول ، على أمل فى أذهاننا ، أردناه أن يتحقق فى الجزء الثانى ، لاعتقادنا ، ـ وهو اعتقاد مشروع اذا ما أخذنا فى اعتبارنا التسلسل الفكرى والمنهجى لفصول البحث ، وبخاصة الباب الأخير من الجزء الاول ـ أقول ـ لاعتقادنا أن الجزء الثانى سوف يضع النقاط على الحروف ، أمام الحائرين وضحايا التفسيرات المتضاربة التى انتشرت فى مجتمعنا العربى ، لقضايا هى فى الأساس قضايا ، معتقدات ، مرتبطة بقضايا المصير ، مع شركاء المصير الواحد .

●

ولقد جاء الجزء الثانى دراسة أكاديمية قيمة للتحولات الدينية والمذهبية ، وخاصة فى الوسائل والأساليب ، وهو يعتبر شكلا وموضوعا ، عملا رائعا ومفيدا ، وأكثر من قيم ، ولكن من حقنا على المؤلف أن نطالبه بجزء ثالث لكتاب الحرب النفسية ، يلبى لنا فيه احتياجاتنا المذهبية والنفسية أيضا . فى وقت نحن بحاجة فيه الىمعرفة الكثير .

ولقد قوبل الكتاب بجزئيه ، بترحيب واسع فى أوساط المثقفين العرب ، وبين الجماهير العريضة ، التى توجه الحرب النفسية الى عقولها وحياتها ووجودها القومى

وسيظل كتاب الحرب النفسية بجزئيه نقطة مضيئة على طريق فكرنا العربى المعاصر

إسرائيليات

تأليف : احمد بهاء الدين

عرض : مصطفى فودة مصطفى

كتاب قيم اعيد طبعه أخيرا ، وجاء ذلك ابان المعركة ونحن احوج ما نكون الى مثله ٠

هو كتاب « اسرائيليات » للاستاذ « احمد بهاء الدين »الذى يزيدنا تعريفا بعدونا الرابض على حدودنا المتلمظ للسيطرة علينا واغتصاب بلادنا بعد ان اغتصب جزءا عزيزا منها هو فلسطين ٠

وهو لايزيدنا تعريفابعدونا فقط ، وانما بمن وراءه يشد ازره ويغريه كلما اقتضت مصلحته ذلك ٠ كما يضع الكتاب أيدينا ايضا على نقط ضعف كثيرة فينا ، جعلت الغلبة حتى الآن لهذا العدو ومن معه ٠

فمن هو هذا العدو ؟

٠٠ ليس هو اليهودى بعمومه ٠٠انما هو الصهيونى منهم ٠٠

فليس بين العرب والمسلمين بعامة وبين اليهود كراهية قديمة كتلك التى بين اليهود والمسيحيين ٠

وبصرف النظر عن الاسباب التاريخية او الاجتماعية ، فمن المؤكد أن اليهود على مر الزمن أصبحوا مجتمعا مغلقا على نفسه يقف موقف العزلة والعداء ٠ مع شعور بالتفوق ازاء سائر أجناس الأرض وشعوبها ، وهذه النزعة العنصرية تبلورت فى شكل عنصرى سافر بظهور الحركة الصهيونية التى تؤمن بان هناك صفات خاصة تجمع بين اليهود كعنصر واحد من دم واحد وعرق واحد وأصل واحد، وأن الرابطة بين اليهود أسمى من رابطة موطن الاقامة ، أو اية رابطة اخرى ٠ ومعنى هذا أن اليهودى فى أية دولة يجب أن يشعر بان ولاءه الاول لدولة اسرائيل ، وليس للدولة التى يعيش فيها « الفصل الثامن » ٠

وهذا ما يقول به بن جوريون فى محاضرتين له ، وان كان يحاول اخفاء مسالة العنصرية :

« ان اليهود شعب يعيش فى العالم بمفرده ، وانه ليس له حليف الا نفسه » ، ويعلق المؤلف على هذا بقوله : ان هذا صحيح ، لأن القوة التى جاهدت وضغطت وساومت وتحالفت هى اليهودية العالمية ، التى كانت الحركة الصهيونية بالذات هى الاداة العنيفة المنفذة فيها.

ولسنا مع المؤلف فى هذا فاى شعب فى العالم حليف نفسه ، بمعنى انه يسعى لمصلحة نفسه بتقدير ما يملك من قوة ذاتية يؤثر بها على الآخرين ، وعن طريق هذه القوة الذاتية يستطيع أن يوجه الآخرين لمصلحته ٠ فاليهود شانهم ـ هنا ـ شان أى شعب من الشعوب ، وان كان الذى يميزهم عن العرب فى هذه النقطة ، هو تغلغلهم فى شعوب العالم ، وسيطرتهم على المال يضغطون به او يشترون ، او يجعلونه اداة توجيه غير مباشر عند الضرورة ٠ ومما ساعدهم أيضا أن بعض الدول الكبرى لها مصلحة فى ان يظل العرب مشغولين عن استغلالهم لثروات بلادهم بعدو مباشر يهددهم فى وجودهم ٠

ويرى «بن جوريون» أيضا ان الصهيونى هو من يرغب فى العودة الى جبل صهيون ، أما اليهود الذين يعتبرون أنفسهم جزءا من الشعب الامريكى أو الانجليزى أو الفرنسى ٠٠ الخ ٠٠ فليسوا بصهيونيين ، حتى ولو قدموا كل المساعدات الممكنة لاسرائيل ٠ فما يربط بين اليهود ، ليس هو الدين اليهودى ، ولا العنصر الواحد ولا اللغة الواحدة ، فهذه كلها صفات قابلة لأن تجمع اليهود من جديد بعد رؤيا العودة أولا ، لأن كل الشعوب نشات ملتصقة بالارض الخاصة بها ٠ أما اليهود فقد عاشوا عشرات القرون مطرودين مما يعتبرونه أرضهم ٠ فمشكلة اسرائيل هى الأمن ٠ وأمن اسرائيل لايحققه أى جيش مهما بلغ تسليحه ، وانما يحققه أن يعود لاسرائيل بسرعة مليونان من اليهود كل عام على الاقل الى أن تتم عودة يهود العالم أجمع ٠

و « جولدا مائير » أيضا ترى أنه لا يكفى أن يبكى اليهود أو يتبرعوا من أجل اسرائيل ، لأن هذا لا يكفى لتعمير النقب وجبال الجليل ، وبدون ذلك فلا أمن لاسرائيل ٠

ولكن هناك كثيرا من المفكرين اليهود لا يقبلون القول بأن اسرائيل هى المكان الطبيعى لكل اليهود ، بل كانوا يعارضون قيام اسرائيل ٠ ولكن هذه الاصوات ضاعت او خفتت تحت تأثير انتصار فكرة قيام الدولة عام ١٩٤٨ ٠ ومن هؤلاء ، المؤرخ اليهودى الانجليزى « سيسل روث » فقيام اسرائيل فى نظره يتمم رسالة هتلر فى القضاء على اليهودى الاوربى وامكانياته الواسعة ٠٠ ومنهم أيضا « سالوبارون » استاذ التاريخ اليهودى فى جامعة كولومبيا بامريكا ، الذى يرى أن نزعة معاداة السامية تختفى وتتلاشى بالفعل ٠ وأن الشباب اليهودى فى شتى دول العالم ضاق ذرعا بهذا الكلام ، لانهم يرونه متناقضا مع الحياة التى يتمتعون بها فى كل المجالات ٠ ومنهم كذلك « أوسكار هاندولين » وهو استاذ يهودى للتاريخ الأمريكى فى جامعة هارفارد ، وهو يقول : انا واحد من اليهود الذين ذابوا فى المجتمع الامريكى ولم أكن صهيونيا قط ٠ وكنت اعارض قيام دولة اسرائيل فكريا ٠ وان كنت الآن أتمنى لها النجاح ٠

ومثل هؤلاء وغيرهم يرون أن حل مشكلة اليهود

يكون بذوبانهم فى مجتمعاتهم التى يعيشون فيها • ومع ذلك فهناك آخرون يرون ما يراه بن جوريون • ومنهم المؤرخ الصهيونى « رفائيل ماهلر » القائل بان المجتمع اليهودى اخذ فى الذوبان منذ اكثر من مائة سنة • فاليهود يتشتتون بين مختلف وظائف الحياة الاجتماعية والاقتصادية • وبالتالى يذوبون، فتختفى لغتهم وتقاليدهم •• ويغيرون أسماءهم لكى لا تنم عن يهوديتهم • ولا يرضيه هذا ، فيرى أن الحل الوحيد لانقاذ اليهودية ، ومنع تحولها من شعب واحد حيثما كان ، الى مجرد ديانة يدين بها ناس مختلفون ينتمون الى شعوب مختلفة هو جمعهم فى اسرائيل (الفصل الثانى) •

ولكن لماذا كل هذا ؟ وما الذى أدى باليهود الى أن يصبحوا مضطهدين وسط الشعوب التى يعيشون بينها، دون خلق الله من الاقليات الدينية الاخرى التى تعيش وسط أغلبية تخالفها فى الدين ؟ أهى مسالة الدين ؟ أم أن هناك غيرها ؟

لليهود أنفسهم يد طولى فى هذا الاضطهاد الذى حاق بهم لاعتقادهم أنهم شعب الله المختار ، وأنهم أفضل من غيرهم من البشر ، وتلك هى العنصرية بعينها • ومن الطبيعى أن ظهور حركة عنصرية لا بد أن يؤدى الى اصطدامها بحركات عنصرية أخرى • فاذا كان هناك شعب يزعم أنه أرقى الشعوب وانقاها ، فمن البديهى أن يصطدم مع اى شعب آخر يقول انه أرقى الشعوب وأنقاها •• ومن هناكان اصطدام الصهيونية بالحركة النازية مثلا • يقول « أرنولد توينبى » : « ان أشهر الذين يزعمون أنهم شعب مختار هم اليهود، فالحركات الصهيونية والنازية ، سواء فى ادعاء هذه الصفة العنصرية غير الصحيحة • ان الحركة الصهيونية ، قد جمعت بين جنبيها أسوأ ما فى الحضارة الغربية : القومية العمياء ، والاستعمار • فان استيلاء الصهيونية على بيوت وأراضى وأملاك تسعمائة ألف عربى فى فلسطين ، هم الآن لاجئون •• ليس أرقى من الناحية الاخلاقية من أبشع الجرائم التى ارتكبت خلال القرون الخمسة الاخيرة بواسطة الغزاة والمستعمرين • وهذا حكمى الاخير على تاريخ الصهيونية فى فلسطين • ان اليهود من بين كل شعوب العالم ، لهم أطول تاريخ فى التعرض للاضطهاد • وقيام اليهود بتحميل طرف ثالث مسئولية الاضطهاد الذى لاقوه على يد الغرب يشكك المرء فى الطبيعة الانسانية كلها) « الفصل الثامن » •

أما سارتر فله رأى آخر فى كتابه الذى وضعه دفاعا عن اليهود وابتداء بنظريته فى الانسان ، تلك النظرية التى تنبنى على أن الانسان ابن موقفه ، بمعنى أنه لاتتحدد صفاته ونزعاته وأخلاقه بمجرد مولده ، بل بالموقف الذى يوجد فيه •

والنتيجة التى يرتبها « سارتر » على هذا ، هى التى تجمع بين اليهود ، وكذلك ليست وحدة التراث أو التاريخ ، لأن تاريخ وطن اسرائيل القديم قد اندثر منذ ألفى عام • ولا هى أيضا وحدة الدين ، فاتباع أديان كثيرة يعيشون متفرقين فى انحاء الارض دون أن تكون بينهم هذه الرابطة التى نراها بين يهود العالم

ويخلص سارتر من هذا ، الى أن الرابطة الحقيقية التى تربط بين يهود العالم هى موقفهم •• موقف كل المجتمعات منهم (الفصل الخامس) •

ولا شك أن فكرة سارتر هذه تحسب لليهود وعليهم فى آن معا • فكما انه لا الاصل الواحد ولا الدين الواحد ولا التاريخ الواحد يجمع بين اليهود ، فبالتالى لا يكون لهم حق فى الوطن الذى اغتصبوه فى فلسطين •

وقد بالغ « سارتر » فى القاء مسئولية هذا النبذ على المجتمعات التى ينشأ فيها اليهود فى حين لم يفكر لحظة واحدة فى ان يكون اليهود أنفسهم مسئولين عن هذا النبذ • ونحن هنا نضعه امام مفكر يهودى آخر هو « رفائيل ماهلر » المؤرخ الصهيونى الذى قام بدراسه عميقة عن وضع اليهود (الاقتصادى) فى البلاد المختلفة وفى ظل النظم الاجتماعية المتعددة من رأسمالية الى شيوعية • فلقد لاحظ « ماهلر » أن اليهود ليس بينهم فلاحون قط • وان هذا كان شانهم فى كل البلاد التى عاشوا فيها ، باستثناء بولندا • وبعض اماكن معزولة فى روسيا القيصرية ، بل ان وجودهم فى الصناعة يقل فى العادة بينما يزداد تركيزهم دائما وبسرعة فى أعمال التجارة والمال والمهن الحرة كالطب والمحاماة والصحافة وغيرها • ويعترف « ماهلر » بان انحصارهم فى اماكن اقتصادية محددة هى مراكز المال والتجارة • يعد مصدرا خطرا من مصادر النزعة المعادية للسامية ، وسببا من أسباب اتساع الهوة بين اليهود وغيرهم من أبناء البلاد التى يعيشون فيها • ويذكر ان العمال والعاملات سالوه فى بولندا : لماذا لا نجد من بين اليهود اى عامل صناعى مثلنا ؟ لماذا لا نراهم فى هذه الاعمال المجهدة ؟ ويردف « ماهلر » : انه لا يوجد عامل مناجم يهودى واحد فى أمريكا أو روسيا • فما راى سارتر بعد هذا ؟ أليس لليهود دخل فى عزلتهم ونبذهم ؟

وينتقل سارتر الى تحليل حب اليهود للمال • فيرى ان الذى يجذب اليهودى للفلوس ليس هو حب الذهب والفضة فى حد ذاته ، ولكن قوتها الشرائية • فاليهودى لايؤمن بان أى شىء له قيمة ، ولكنه يؤمن بان أى شىء له ثمن • ان القيمة لها معايير كثيرة غير الفلوس ، ترجع الى التراث أو الانتماء الى أصل معين أو حضارة معينة الى آخره • فاليهودى يجد نفسه محروما من فكرة القيمة هذه ، فيحل محلها فكرة الثمن • وعلى هذا النحو مضى سارتر فى سرد كثير من الصفات التى أصبحت لاصقة بشخصية اليهودى فى الذهن العام • فاليهودية الحسناء، تعنى الاستباحة والاغتصاب ، واليهودى فى فرنسا قد يصل الى أعلى الدرجات ، ولكنه يظل الوزير اليهودى•• وهكذا •

ثم يعرف سارتر عدو السامية بانه ذلك الذى يتميز بعداء خاص لليهود • وهو ليس فى العادة من الاذكياء أو المتفوقين بأية صورة من الصور ، ولكنه من العاديين أو الاقل من ذلك • وأغلب الدعوات العنيفة ضد السامية

نشات وترعرعت بين أبناء الطبقة الصغيرة التى لا يملك أفرادها شيئا ، فبمجـــرد تعصبهم يشعرون فجاة بأنهم أصبحوا يملكون شيئا . واليهودى ازاء هذا الموقف يختار أحد أمرين ، اما أن يتنصل من يهوديته ويتستر عليها. فهو فى حالة هرب دائم من نفسه ومن وضعه ، واما أن يقبل اتهام العـــالم كله ، فيعامل العالم كله على هـــذا الاساس .

ويرى ان اقامة دولة يهودية قد يحل مشكلة اليهود الذين يسكنون تلك الدولة . ولكنه لا يحل مشـــكلة اليهود الذين يفضلون البقاء فى أوطانهم ، لأن قيام هذه الدولة دليل آخر على ما يقول به خصـــومهم عن أنهم لا يحبون الانتماء الى الاوطان التى يعيشون فيها .

والملاحظ أن ســـارتر صاغ كتابه بلهجة المحامى ، الذى يبرر كل شىء ، وينفى كل مسئولية ، فلقد بالغ فى نفى أية مسئولية عن اليهود الى درجة كاد معها أن يكون عنصريا بمعنى آخر . فكما أن كراهية عنصر معين، اتجاه عنصرى . كذلك نسبة فضيلة الصواب المطلق الى عنصر معين نزعة عنصرية .

ان سارتر حين يؤكد أن اليهود يحاولون دائمـــا الاندماج والذوبان فى كل مجتمع يعيشون فيه . ولكن المجتمعات العالمية هى التى ترفض ذلك . يتجاهل محاولات كثيرة جرت لامتصاصهم ولكنهم رفضوها . (الفصـــل الخامس) .

ولقد استغل اليهود مسألة الاضطهاد العنصرى هـذه لصالحهم أحسن استغلال . فبعـــد قيام اسرائيل ظلوا يضغطون بها على شعب المانيا ويبتزون أمواله ـ ومسألة التعويضات الالمانية لاسرائيل معروفة لنا جميعا .

ولكن هل هناك عقدة اخرى يبتزون بها الفاتيكان حتى يحاول أن يبرئهم هذه الايام من دم المسيح وقد شهدوا على أنفسهم بأن دمه عليهم وعلى آبنائهم من بعدهم ؟

ازيح الستار لأول مرة عن جزء خاص بالعلاقة بين المانيا النازية والبابا الاسبق بيوس الثانى عشر . وكان هذا البابا قد قضى سبعة عشر عاما يعمل فى الكنيسة ومقر عمله المانيا قبل أن ينتخب للبابوية . وشهد هناك الفترة التى كادت الشيوعية تستولى فيها على الحكم فى المانيا . ثم لم يقهرها الا لجوء الراسمالية الى دكتاتورية هتلر ، ومنذ ذلك الوقت تكون لديه اقتناع بأن الشيوعية بوصفها دعوة الحادية هى الخصم الاعظم للكنيسة ، وأن النازية هى الاســـلوب الوحيـــد الذى نجح فى وقف الشيوعية . وبالتالى فعلى الكنيسة أن تقف من النـــازية موقفا مؤيدا ، وتبدى هذا فى تصرفات البابا خلال الحرب العالمية الثانية . ومنها :

أن أطول خطاب أرسله لرئيس دولة بمناسبة انتخابه بابا جديدا هو خطابه الى هتلر . واقتراحه على رئيس وزراء بولندا اعطاء الاقليات الالمانية مزايا جديدة .. واعترافه يوما للقائم بأعمال سفارة المانيا فى الفاتيكان بأن نفوره من النظم الدكتاتورية غير صحيح بدليل علاقاته الطيبة مع النظام الفاشستى .

وهذا كله وغيره ، غير خاف على اسرائيل وتستطيع منه أن تمارس داخل الفاتيكان ضغطا من نوع الضـــغط الذى تمارسه داخل المانيا الغربية (الفصلان الثـــامن والتاسع) .

والآن ما الذى اتبعه اليهود فى اقامة اسرائيل ؟

لقد أحسنوا استغلال ما جبلوا عليه : القتـــال من خلال الآخرين وبهم .

يعتمد الاستاذ بهاء الدين فى هذا الموضوع على كتاب « الن تيلور » « مدخل الى اسرائيل » المطبوع فى الولايات المتحدة ويركز على العمـل الدبلوماسى الصهيونى الذى مارس ضغوطه على الخليفة العثمانى ثم القيصر الالمانى ثم رئاسة الوزارة الانجليزية وفى النهاية البيت الابيض ومجلس الشيوخ الامريكى .

ويتساءل المؤلف عن السبب الدفين وراء تلك الموجة من تأييد الصهيونية . ويرد بقول توينبى : « ان المصدر لهذه الموجة هو شعور بالذنب لدى بعض غير اليهـــود ، الذين هم فى قرارة نفوسهم معادون للسامية رغم عدم رضاهم العقلى عن هذا الشعور . فهم يكفرون عنـــه بتأييد اليهود علنا . والمصدر الثانى هو أن هذا نموذج من قدرة الانجلو سكسون على مزج أهدافهم السياسية والمصلحية بشعارات تبدو انسانية . » ويأخذ الكاتب بعد هذا فى استعراض الجهود التى بذلت فى سبيل انشـــاء اسرائيل من بدئها حتى قامت بالفعل عام ١٩٤٨ ، وهى جهود باتت معروفو لنا جميعا . وان دلت على شىء فانما تدل على انه لولا انجلترا وأمريكا ما قامت اسرائيل وما استمرت ، وكل الدلائل التى تلت قيامها بما فيها عدوان ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ تؤكد هذا .

ومذكرات بن جوريون توضح بعض النقاط التى لم يتعرض لها مدخل الى اسرائيل ومنها : ان اليهود كونوا بعض الفصائل التى قاتلت الى جانب انجلترا فى الحرب العالمية الاولى . وان « وايزمان » بعد أن حصل على وعد بلفور حصل على اتفاق مع فيصل بن الحسين يعتـــرف فيه بوعد بلفور . وقد عزز فيصل موقفه بخطاب أكد فيه هذا المعنى وأرسله الى القاضى الصهيونى الامريكى «فيلكس فرانكفورتر » وفى هذه المذكرة يكشف بن جوريون منذ البداية عن نواياه تجاه قرار التقســـيم الذى يتظاهـــر باحترامه لأنه يرى ان هذه القطعة التى اعترفت بها المنظمة الدولية لليهود لا تكفى لانها مجزأة تربط بينهما ممرات تقع تحت رحمة الارض التى تركها القرار للعرب .

ويحاول بن جوريون أن يصور الامر على أن انجلترا والعرب كانوا يقفون فى جهة ، وأن الحركة الحـــركة الصهيونية وحدها كانت تقف فى جهة . والحقيقة عكس ذلك تماما .

كما يحاول بن جوريون أن يزيف وضـــع القـــوى الاستعمارية فى المنطقة ، فهو يحاول أن يظهر القوى الكبرى وفى مقدمتها أمريكا وكانها قامت بدور ثانوى بينما قام هو والستمائة ألف يهودى معه فى فلســطين بالعبء كله . وتلك مغالطة تدل عليها حوادث الماضى والحاضر .

ويستفيد بن جوريون الى اقصى حد من قصة الهجرة العربية فى فلسطين وتلك ظاهرة يفسرها ـ ولنعترف ـ تخلف الامة العربية حضاريا . ويفسرها القيادة الخاطئة

التى رزىء بها العرب • ولم تتمكن من ان تعطى خط السلوك والتصرف لجماهيرها • وهل تبقى او ترحل • ويفسرها ان الصهيونيين جعلوا المدنيين هدفا اساسيا لهم فارتكبوا ضدهم المذابح التى لا أظن احدا من العرب ينساها (الفصل السادس) •

ولا أعتقد أننا فى حاجة لأن نقف كثيرا عند الفصل السابع من الكتاب الذى يعتمد على كتابى « السويس سرى جدا » « لميشيل زهار » الاسرائيلى و « دلاس والسويس » « لهيرمان فينر » الامريكى وكلا الكتابين يروى قصة العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ وما سبقه من تآمر بين لندن وباريس وتل أبيب • اذ أضحت هذه القصة معروفة تماما حتى للبسطاء من الناس بعد اعترافات «انطونى ناتنج» الوزير البريطانى المستقيل أيام العدوان احتجاجا عليه • وبعد ان قال « موشى ديان » القائد الاسرائيلى فى كتاب الفه عن ذلك العدوان ، ان دور اسرائيل فيه لم يزد عن دور راكب الدراجة يضع يده على سيارة تصعد التل .. أو بمعنى آخر : القتال من خلال الآخرين •

اما وقد وجدت اسرائيل ، فما هو حال ناسها ؟

يقدم لنا المؤلف لمحة عن ذلك فى خلاصة لرواية « طوبى للخائفين » التى الفتها ابنة « موشى ديان » وقد خرج المؤلف من عرضها بان اسرائيل دولة أقامها ناس لا علاقة لهم بالدين ولا يعترفون به بل انهم هاربون من دينهم قبل اى شىء آخر ، رغم أن اسرائيل أقامت دعايتها وحجتها فى احتلال فلسطين على اساس الدين •

وانها ان كانت قد أقامت ضجة كبيرة حول فكرة انها تخلق نوعا جديدا من الناس أطلقت عليه اسم نبات الصبار ليكون جنسا ممتازا على سائر البشر ، الا ان المؤلفة تمزقها تمزيقا شديدا وتدمغها بالفشل الذريع •

ان فكرة القوة والغزو والتوسع والعدوان عميقة راسخة الجذور فى بناء مجتمع اسرائيل • والجيل الجديد ينقد كل هذا ولكنه مصاب الى حد كبير بنفس الامراض• لذا هو حائر (الفصل الرابع) •

لم ماذا عن الفلاح فيها ؟ الفلاح بالذات لأنه عماد أية أمة والملتصق بترابها ؟

لقد اخذ اليهود بنظام المستعمرة الزراعية العسكرية فى آن معا • ولم تصطدم اسرائيل بمشكلة الارض بقدر ما اصطدمت بمشكلة الماء • اذ تؤكد الابحاث أن اسرائيل لديها حاليا ٥٠٠ الف هكتار صالحة للزراعة لو أمكن توفير الماء لها ، ولكن الماء لا يصل حاليا الا الى ١٣٠ الف هكتار • وكل المياه المتوافرة فى اسرائيل الآن لاتزيد على ١٣٠٠ مليون متر مكعب فى السنة ومن هذه الكمية يذهب ٦٠ مليون متر الى الصناعة و١٧٥ مليون متر للاستهلاك العادى • و ١٠٤٠ مليون متر للزراعة • فاذا اضيف الى ذلك وجود الماء فى أماكن وانعدامه فى أخرى مما يكلف نقله ، أصبح سعر الماء مرتفعا فى اسرائيل حتى لتصل تكاليف رى الهكتار احيانا الى ١٧٥ جنيها فى السنة • مما يجعل العملية غير اقتصادية بالمرة • والطريق أمام اسرائيل مسدود تماما ، الا اذا وجدت طريقة رخيصة لتحويل مياه البحر الى مياه عذبة (الفصل الثالث) •

اما كيف ينظر الينا الاسرائيليون ، فذلك ما يتعرض له ابا ايبان وزير خارجيتهم ويوضح فيه نقطة الارتكاز التى يقف عليها التفكير الاسرائيلى والدعوة الاسرائيلية فيما يتعلق بالعرب •

يقول « أبا ايبان » فى كتابه « موجة القومية » ان أكثر الحركات القومية سطوعا كان ولا شك تحرر الامة العربية وتقدمها • وانه لم يحدث فى تاريخ العرب ان كانت لديهم الفرص الهائلة ، سياسيا واقتصاديا التى تتوافر امامهم الآن • ويأخذ بعد هذا فى بث سمومه ، عندما يصل الى « ان القومية العربية برغم كل نتائجها المبهرة لا تواجه العالم بوجه سعيد بالنصر ، بل تواجهه بمرارة عنيفة • واول أسباب هذه المرارة – كما يراها – توتر علاقات العرب بعضهم البعض • ويرجع ذلك الى وجود تيارين احدهما يحاول جذب البلاد العربية نحو الوحدة • والآخر يدافع عن تنوع الاقطار وتعددها • وينضم « آبا ايبان » الى التيار الثانى وهذا طبيعى •

وثانى الاسباب يراه فى توتر علاقات العرب بالغرب •• محاولا بكل ما اوتى من جهد ان ينفى الفكرة الشائعة فى دوائر الغرب التى ترى أن اسرائيل هى السبب الوحيد لسوء العلاقات بين العرب والغرب •

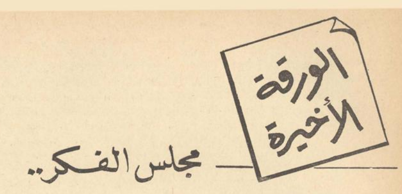
أما ثالث الاسباب ، فيراه فى العلاقة بين القومية العربية واسرائيل • ومرة أخرى يحاول أن ينفى مايقال من ان اسرائيل هى المسئولة عن سبب المرارة التى يحملها العرب نحو البلاد المسئولة فى نظرهم عن وجود اسرائيل • (الفصل العاشر) •

وبعد ما رأينا من تخطيط اليهود خلال قرون طويلة لدولتهم وتسخيرهم لكل من استطاعة من ذوى النفوذ فى العالم •

الم يكن للعرب جريرة فيما حاق بهم ؟ الحق ان عليهم يقع عبء ، أى عبء، فيما حاق بهم من نكبة • لأن تأخرهم الحضارى وما استتبع ذلك من ضعف مادى ، ادى الى استهانة أعدائهم بهم • حقيقة أن التأخر فرض عليهم، عبر قرون طويلة ، ولكن سكوتهم على ما فرض عليهم من تأخر هو الذى جعلهم فى مواجهة المسئولية •

ومهما يكن من امر فلقد افاد العرب من هذا التحدى، اذ لا يمكن أن يتحول الانسان الا اذا جوبه بالتحدى ولعل هذا مصداقا لقول الله سبحانه (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض) •

تنبه العرب وأفاقوا من الصدمة واخذوا يعملون على ازالة آثارها « وما يحسم المعركة ليس الوف الجنود والسلاح فقط ، برغم أهمية ذلك ، لأى أى جيش لايمكن ان يؤدى مهمته ما لم يكن مستندا الى مجتمع قوى وسليم •• ولكن الذى يحسم المعركة مزيد من الثورة الاجتماعية، والثورة الثقافية والثورة الصناعية • واقامة مجتمع سليم عصرى متحضر » •



مجلس الفكر..

الكتاب هام وقيمته العلمية كبيرة ، ولكنى معذلك توقفت وأطلت الوقوف عند عبارة واحدة فيه :

« .. الأدب المصرى ليس على غرار الأدب الغربى له خصائص أدبية أو مادية أو معنوية بل كان شيئا مشاعا ومباحا ، فالتراث الثقافى مثله مثل الطبيعة بانهارها وأشجارها ، لكل أن يرد المياه ويجنى الثمار . »

وما أظن الا أن مترجم الكتاب الدكتور ثروت عكاشة قد توقف مثلى ، وأطال الوقوف ، عند هذه العبارة الهامة ، ذلك أن خيال كل مثقف وكل مشتغل بالثقافة ، مهما غالى ، لا يمكن أن يتجاوز هذا الحلم الجميل السعيد ، يوم يصبح التراث الثقافى كالطبيعة بأنهارها وأشجارها ، لكل أن يرد المياه ويجنى الثمار ..

ترى هل تحقق هذا الحلم الجميل فى مصر القديمة حقا كما يؤكد الأب دريوتون فى كتابه « المسرح المصرى القديم » ؟

ليست لدينا بالطبع أدلة كافية على صدق هذه الحقيقة ، بل ليست لدينا كذلك نصوص تكفى لتكوين فكرة صحيحة عن أدب مصر القديمة .. غير أن الآثار الفنية الجليلة التى خلفها المصريون القدماء تقطع بأنها نتاج بيئة ثقافية راقية ، اذ لا يعقل أن يتفوق الفنان التشكيلى والمعمارى وحدهما ويسموا الى هذا المستوى الرفيع دون أن تتفوق بقية الفنون وترقى ، ولا يعقل كذلك أن هذه الأعمال الفنية الممتازة كانت تقدم لقوم لا يحسنون تذوقها ولا يقدرونها حق قدرها ..

وسواء تحقق هذا الحلم الجميل فى مصر القديمة أم لم يتحقق ، فالذى لاشك فيه أنه أصبح ممكن التحقيق فى مصر الحديثة ، وعلى نطاق أوسع بكثير من أى عصر مضى .. فوسائل الاتصال بالجماهير والتأثير فيها ، من اذاعة وصحافة وتليفزيون ومسرح وكتاب وسينما ومعارض وندوات ، أصبحت منتشرة فى كل مكان ، وهى تمارس نفوذها الجبار على الجماهير بالفعل وعلى أوسع نطاق . فاذا أردنا مثلا على مدى قوتها ونفوذها ، فما علينا الا أن نتذكر الدعاية الضخمة والضجة الهائلة التى ظلت هذه الأجهزة ، أو معظمها ، تحيط بها لعبة كرة القدم الى أشهر قليلة مضت ، حتى أحدثت لدى غالبية الجماهير هوسا مرضيا بهذه اللعبة ، كان من العسير شفاؤه لولا النكسة الأليمة التى مرت بنا فى يونيو الماضى ..

غير أن الهوس الكروى نفسه لايخلو من دلالة طيبة ، فهو يؤكد شدة حاجة جماهيرنا العريضة الى موضوع تتحمس له وتهتم به بعد اهتمامها بحاجاتها المادية من مأكل وملبس .. ومن واجب

القائمين على أجهزة الثقافة أن يحسنوا استغلال هذه الحاجة ، ويشبعوها بما ينفع الأمة والفرد ، ولن يكون ذلك الا فى صورة فن راق وثقافة جادة أصيلة ، تعيد خلق المواطن المصرى خلقا جديدا .

ولقد قلتها من قبل ، وسأظل أقولها دائما ، ان من حسن حظنا أن جميع أجهزة الثقافة الجماهيرية قد أصبحت مملوكة لنا ، ولم تعد ، الا فى القليل النادر ، فى أيدى تجار يهمهم الربح بأى وسيلة وأى ثمن ، ولو كان هذا الثمن انحراف مواطنيهم وتدهور بلادهم .. وخلو حياتنا الثقافية من هؤلاء التجار يعفى أجهزتنا الثقافية من الدخول فى مباريات فى الاسفاف والتهريج .. وها نحن قد تخلصنا كذلك من سموم التفاهة ومغامرات الجواسيس والجنس التى كانت تنشرها الأفلام والحلقات الأمريكية المسلسلة ، فاذا لم ننتهز فرصة خلو السوق من العملة الرديئة ، لنعمل بكل طاقتنا على تقديم عملة جيدة عن طريق كل وسائل نشر الثقافة عملة ثقافية تبنى وتنفع وتبقى . فلا نلومن بعد ذلك لا أنفسنا ..

فلنكف عن تدليل الجماهير ، ولنقلع تماما عن ترديد نغمة تجار الحرب من أن الجمهور لا يستسيغ الا الاسفاف والتهريج ، فما أكثر ما كذبت جماهيرنا هذا الادعاء ، ومن قديم قال «سرفانتيز» :

« ليس مرجع الخطأ الى رغبة النظارة فى مشاهدة هذا السخف ، ولكن مرجعه الى أولئك الذين لا يعرفون أن يقدموا لهم شيئا سواه . »

واذا كانت ظروف النكسة تضطرنا الى الانشغال العاجل بعلاج نتائجها والعمل بكل وسيلة لازالة كل أثر للعدوان ، فيجب ألا يصرفنا ذلك عن العمل بنفس الهمة والحماسة فى مخططات طويلة الأمد ، لا ننتظر أن نجنى من ورائها نتائج سريعة ، بل قد لا تجنى ثمارها الا الأجيال القادمة من أبنائنا .

والثقافة من أهم الميادين التى تحتاج الى الخطط الطويلة الأمد ، بالاضافة الى المنجزات العاجلة والاسعافات السريعة ، فهذه الخطط هى السبيل الوحيد للتخلص ذات يوم قريب من هذه الاسعافات والضمادات الثقافية التى ما زالت ـ مع الأسف ـ غالبة على انتاجنا الثقافى بصورة مقلقة .

ووضع هذه الخطط الثقافية يتطلب تشكيل مجلس متفرغ من كبار مفكرينا يقوم ببحثها ودراستها ، ومراقبة تنفيذها والعمل على تخليص حياتنا الثقافية من كثير مما نشكو منه ولا نقوى على التخلص منه . ولابد أن توضع هذه الخطط على أساس عربى ، ويا حبذا لو اشترك فى وضعها والالتزام بها ممثلون لكافة الأقطار العربية ، فلم يعد من المقبول اليوم ان تجمع العرب قضية خطيرة كقضية فلسطين السليبة ، وتمتزج دماؤهم على أرضها ، ثم لا تجمعهم بعد ذلك وحدة فكرية متينة الأركان .

ولم يعد خافيا علينا الآن كذلك أننا لا نستطيع اجتذاب مفكرى العالم واقناعهم بعدالة قضايانا عن طريق الدعاية السياسية المباشرة ، أو افتعال علاقات شخصية معهم ..

والطريق الوحيد المضمون لبلوغ هذه الغاية هو أن يكون لنا انتاج فكرى وفنى عظيم يفرض نفسه على العالم ، ويدعو كبار مفكريه الى الاهتمام به ودراسته ومحاولة التعرف على منتجيه .. وكل ذلك لا يمكن أن يتحقق الا على أساس خطط طويلة الأمد يضعها مفكرون رواد متفرغون .. ويراقبون تنفيذها ، ويطهرون حياتنا الثقافية والفنية من كثير من أدرانها وواجهاتها الزائفة .

فؤاد دوارة